سلسلة الجوائز العالمية

الجوع الكبير

القصة الحائزة على جائزة الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٣٥

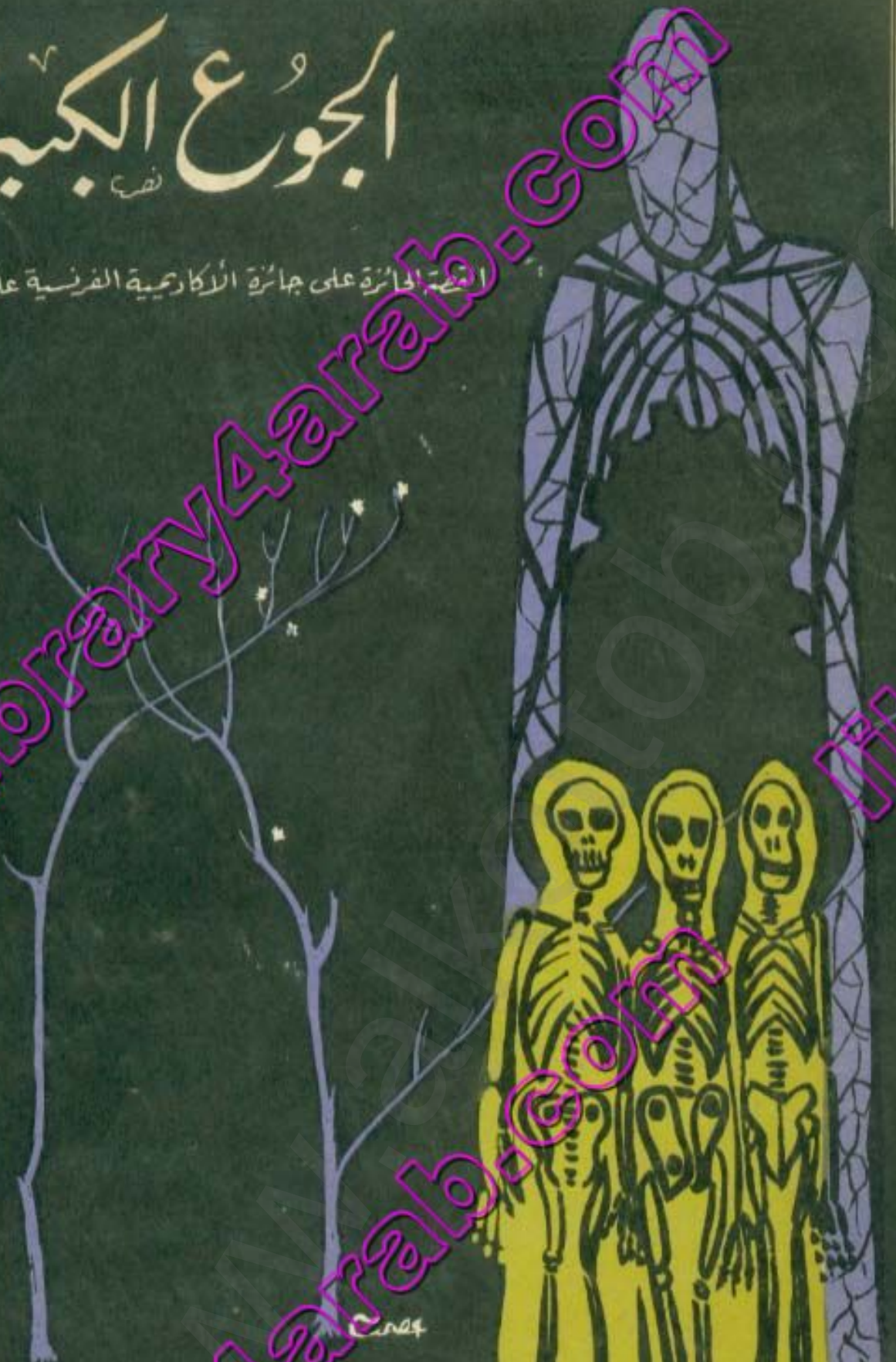

تأليف : جوهان بوجر

ترجمة : محمد مص[illegible] باشي

مراجعة : علي أدهم

الدار المصرية للتأليف والترجمة

library4arab.com

www.alkottob.com

الجوع الكبير

تأليف

جوهان بوجر

ترجمة : محمد مفيد الشوباشي

مراجعة : على أدهم

الدار المصرية للتأليف والترجمة

www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

الكتاب الأول

الفصل الأول

لا يوجد إعصار يعصف ، لمجرد التخريب ، مثل الإعصار الشمالى الشرقى العنيف حين يزمجر خلال ليالى الشتاء الطويلة ، ويسوق أمامه ، بين ضفاف « الفيورد » الصخرية ، كل ما يجرفه تياره ، ويمخض الماء حتى يصبح زبداً يتوج غوارب الموج المتوثبة ، فى حين تقفز القوارب الراسية على طول الشاطىء ، وتدور فى الهواء حتى تقارب أبواب الأكواخ الرمادية التى يسكنها الصيادون . ويقتلع الإعصار معابر المخزن المتينة ، القديمة العهد ، ويقذف بها فى الفضاء فتبدو كطيور ضخمة فوق الحقول . . . وتصيح الفتيات « رحماك يارب ! » ، ذلك أن هذا هو أوان حلب اللبن ، وعليهن أن يناضلن لشق الطريق إلى حظيرة البقر ، زاحفات على أيديهن وركبهن عبر الفناء وهن يجاذبن مصباحاً سينطفىء لا محالة ، ودلواً للبن يتعذر حمله . . وكذلك تغمغم الزوجات المتقدمات فى السن ، وهن جالسات داخل الدور حول المدفئة ، مرددات قولهن « اللهم احفظنا ! » وخواطرهن تسبح بعيدة فى الشمال مع صيادى « لوفوتن » وهم فى عرض البحر ، ولعلهم خرجوا إلى عرض البحر فى هذا المساء نفسه .

ولكن « الفيوردا » ، فى أيام الربيع الساكنة ، يسل هادئاً ساطعاً بين رأس الأرض والخليج . وعندما ينخفض منسوب الماء يظهر عالم العجائب بأسره ، مكوناً من أجزاء صغيرة غريبة ، وضفاف رملية ، وصخور متخلفة ، موشاة بالأعشاب ، شامخة جافة ، تتخللها أحواض صافية الماء ، يخوض فيها الأطفال بأقدامهم العارية فيتطاير رذاذها ، وتنطلق فى كل ناحية منها أسماك صغيرة مفلطحة فى حجم نصف القرش . ويمتلىء الجو برائحة الماء المالح ، وبالدفء ، وفضلات الشاطىء . ويتأرجح الشقمق البحرى فوق صخرة كبيرة فى الماء ، ويرفع فى مرح منقاره الأحمر صوب الشمس ، ويرسل صفيره مردداً « كويب ، كويب ! لقد حل الربيع » .

www.alkottob.com

وفى يوم من هـذه الأيام بالذات خرج غلامان فى نحو الرابعـة عشرة من أحد أكواخ الصيادين ، وانحدرا مسرعين صوب الشاطىء .

والصبية لا يستغرقهم الاهتمام الشديد أبداً مثلما يستغرقهم وهم مقدمون على شر ، وقد وضح أن لدى هذين الصبيين عملا من هذا النوع . وكان « بير تروين » الأصفر الشعر ، الشاحب الوجه ، يدفع أمامه « عربة بعجلة واحدة » ، وكان رفيقه « مارتن بروفولد » ، وهو صبي مريب ، منقط بالنمش ، يحمل دلواً . وتبادلا كلاهما حديثاً غامضاً مهموساً وهما يلقيان على مياه البحر نظرات قلقة . وكان « بير تروين » هو الزعيم بالطبع ، فهـكذا كان شأنه دائماً .

وفى العام الماضى اتهم بتدبير حريق الغابة .

وقد أوضح الآن لبعض أصدقائه أن للصبية مثل حق الرجال تماماً فى أن ينصبوا (حبائل) الصيد فى البحر العميق . لقد تركوهم طوال الشتاء يضطلعون بأعمال الـكبار ، فيقطعون الحطب ، ويحملون الخشب ، فلماذا يدعونهم الآن لبث صيد الشاطىء الذى لا يتسع لهم أن يحملوا إلى بيوتهم صيداً أفضـل من السمك الصغير ، وسمك « البربون » ، والقد السخيف ؟ لقد حرم عليهم لبس الحبال الخاصة بالصيد فى البحر العميق — هكذا كانت الحال — بيد أن الصيـد فى « لوفوتن » بلغ ذروته ، ولن يعود أحد من الرجال حتى ينتهى موسمه . وعلى ذلك قام الصبية فى اليوم السابق يوضع الطعم خلسة فى الحبائل الموجودة تحت سقيفة المراكب ، ثم مدوها عـبر أعمق موضع فى الفيورد .

أما فيما يتعلق الآن بشباك الماء العميق فهو أنها قد تدفع إلى السطح أسماكا كبيرة جداً ، ومفزعة جداً ، إلى حد أن أحداً لم ير مثلها من قبل قط .

ومع ذلك حدث بالأمس أمر مقلق من نوع مختلف ، فقد وجد الصبيـة . لفرط جزعهم ، أنه ليس لديهم أثقال كافية يثبتون بها طرف حبل الصيد الممتد إلى الشاطىء ، وبدا كما لو أنهم سيضطرون إلى نفض أيديهم من الموضوع بأسره . ولـكن بير ، المتأهب الذهن دائماً ، اهتدى إلى فـكرة مبتـكرة هى أن يربط أحد طرفى الحبل فى جذع شجرة « شربين » صغيرة ثابتة فى أقصى بقعة فى رأس الأرض ، ثم يحمل الحبل

www.alkottob.com

من هناك إلى عرض الفيورد الطلق . ويربط طرف الحبل الأقصى بحجر ، ويرخى من ظهر القارب حتى يغيب فى الأعماق الخضر فى حين ينطق بهذه الكلمات السحرية : « خسئت أيتها الأسماك ! » وقد تم الكلام بذلك ، وفى الحق إنه كانت هناك صنارتان تتدليان بالقرب من الأرض عند طرف الشاطىء فيما بين الشجرة والماء . وبينما قد تفيد هاتان الصنارتان فى صيد بطة أو أوزة ، فإنه إذا تصادف ومر بهما ملاح يجذف فى الظلام، وعلق بهما — فقد يجد الغلامان عندئذ أنهما أصابا صيداً آدمياً . ولاعجب إذن فى أن تراهما يتهامسان فى مثل هذا الاهتمام ، ويسرعان إلى القارب .

وصاح مارتن فجأة :

— ها هو ذا « بيتر رونينجن » مقبل .

وهذا هو عضو العصبة الثالث . وهو فتى نحيف ، مبيض الحاجبين ، ينم وجهه على الغباء . وكان يتلعثم إذا تكلم ، ويحدث صوتاً عجيباً إذا ضحك : « تشى — هى — هى » . وقد رسب مرتين فى الفصول الإعدادية ، على أنه ما فائدة تحصيل الدروس من كتاب ما دام أنه ليس هناك قط من يصبر عليه عند تسميعها ؟

وأنزل ثلاثتهم القارب إلى حافة الماء ، ودفعوه حتى عام ، وتسلقوه وهم يتدافعون ويكثرون من تحريك سيقانهم المكتسية بسراويل مرقعة . وصاح فتى من الشاطىء :

— هيه — دعونى أحضر أنا أيضاً !

وقال مارتن :

— ها هوذا كلاوس ؛ هل نصطحبه ؟

وقال بيتر رونينجن :

— لا .

وقال بير .

— أوه نعم ، لنصطحبه .

وكلاوس بروك ، ابن طبيب الناحية ، صبى أزرق العينين ، يرتدى سروالا

www.alkottob.com

قصيراً ، وسترة نوتى . وقد هرب ولا شك من غير استئذان — فهو يتلقى دروساً في بيته من مدرس خاص — وسيضربه أبوه بالتأكيد عند عودته إلى البيت .

ونادى بير ، وهو يمد له مجذافاً :

— أسرع .

وتسلقه كلاوس . وعملت المجاذيف الأربعة ، المخططة باللون الأبيض ، مصطخبة عبر الخليج ، مهتزة قليلا عندما ينتزعها الصبية من الماء بعد أن يضربوا بها . وكان مارتن يجذف في مقدمة القارب ، شاخصاً إلى بير الذى جلس بمؤخرة القارب في مكان القيادة ، متراقص الحدقتين ، ممتلىء العينين بالأعمال الكبيرة التى سيضطلع بها . وتملك مارتن المسكين بعض الخوف منذ الآن ؛ وهو لم يدرك قط لماذا يجد بير دائماً أعمالا يقوم بها هى إثم في نظر الخالق دون شك ، في حين أنه سيصبح قساً عندما يكبر .

كان بير فتى من قطان المدينة . وقد أرسله ذووه ليقيم بأجر عند أحد الصيادين في القرية . ولم تكن أمه أفضل مما ينبغى أن تكون ... هكذا قال الناس عنها ، بيد أنها توفيت الآن ، وأبوه لابد ، على أية حال ، أن يكون سيداً موسراً ، لأنه يرسل للفتى عشرة ريالات كاملة كل عيد ميلاد ، وعلى ذلك كان جيب بير عامراً بالنقود دائماً . ومن الطبيعى إذن أن يكون محط أنظار سائر الصبية ، وأن يتولى قيادتهم في أمورهم كافة بحسبانه زعيما عن حق .

وزحف القارب مجتازاً الصخور الشهب ، وإذا الشاطىء ، والأكواخ التى تعلوه تزداد على بعد المسافة زرقة وضآلة . ومن بين التلال النائية بدا بيت ريفى من خشب ، أحمر اللون ، يقوم في وضوح على جدرانه البيض .

وها هو ذا رأس الخليج يصلون إليه في نهاية الأمر ، وهناك يقع شجر الشربين . وتسلق بير حافة القارب ، وأرخى طرف الحبل ، ومال الباقون على جانب القارب وهم يراقبون الحبل حيث يغوص ويتوارى في الأعماق ... أى شىء سيطلع به إلى النور عند صدوره من الماء ؟

وأصدر بير أمره قائلا :

www.alkottob.com

ـــ جذفوا !

وبدأوا يديرون شراع القارب .

واتجه القارب عبر « الفيورد » رأساً ، وانسحب معه الحبل الطويل بما يجرجره من صنانير مثبتة بإحكام فى قاع براميل غير عميقة . وكان قلب بير يخفق بعنف . وانجذب الحبل بشدة ـــ لأول مرة ـــ وتألقت سمكة تألقاً خفيفاً فى أغوار الماء العميق . « يوه ! » هذه ليست إلا سمكة قد كبيرة . وطرحها بير داخل السفينة من فوق الحافة فى غير مبالاة . وجاءت بعد ذلك سمكة من نوع الرنجة ـــ وهى فى هذه المرة من نوع أسماك المياه العميقة على أية حال . ثم جاءت سمكة من نوع الخنزير البحرى ، وتبعتها أخرى وأخرى ؛ وهذه الأسماك ترضى النسوة لأنها لذيذة الطعم ، ولعلها تسكت ألسنتهن عندما يعود الرجال إلى بها بيوتهم ... و لآن يهتز الحبل بشدة ؛ فما السمكة المقبلة؟ وبدا للعيان ظل أشهب . وصاح بير :

ـــ على بالخطاف .

وألقى به بيتر إليه عبر القارب . وصاح الصبية الثلاثة الآخرون :

ـــ أى سمكة هى ؟ أى سمكة ؟

ـــ تمالكوا أنفسكم . لا تقلبوا القارب . إنها سمكة بياض . وعلى إثر ضربة جانبية من الخطاف ألقى بجسم أشهب غليظ فى القارب حيث جعل يتقلب ويلهث ويعض فى القاع ألواح الخشب والزاد ، وتفعقع بين أسنانه كسر ما قضمه .

وصاح كلاوس :

ـــ حذار ، حذار ! ـــ

فهو ينفعل دائماً عند ركوب القوارب .

ولكن بير كان يجذب الحبل من جديد . وقد قطعوا الآن ما يقرب من نصف الفيورد ، وصعد الحبل من أعماق غامضة لم يسبر غورها قبل ذلك ملاح قط . وبدأ جهد بير يظهر فى نظراته ، وجلس الآخرون يرقبون وجهه . وسأله كلاوس . « هل

www.alkottob.com

الحبل ثقيل » . وأضاف مارتن قوله : « التزم الهدوء ؛ ألا تستطيع ذلك ؟ » قال ذلك وهو ينظر إلى الحبل المنحدر إلى حيث يتوارى فى النور البعيد . وكان بير لا يزال يشد الحبل . وأحس أن شيئاً غير طبيعى يهز يديه من الأعماق على ما يبدو . وكان ملمس الحبل غريباً ... لم يكن ثقله كبيراً . بل إنه لم يشد حتى الشدة الواضحة التى تشدها السمكة العادية . وبدا كأن يد مارد تجذب الصائد فى رفق ... فى رفق شديد ... لتسحبه من ظهر القارب إلى أسفل ... إلى الأعماق . ثم حدثت على حين فجأة هزة عنيفة كادت تجذبه إلى جانب القارب . وصاح الثلاثة الآخرون معاً :

ـــ احذر ! ما هذا ؟

وصاح بير :

ـــ الزموا أماكنكم فى القارب .

وأطاعوه بدافع حماسة النظام المتمكنة من صائدى السمك .

وكان بير يمسك الحبل بإحدى يديه ، ويقبض بالأخرى على عارضة من ألواح القارب . وقذف بقوله مبهور الأنفاس .

ـــ أليس لدينا خطاف آخر ؟

وجذب بيتر رونينجن عصا أخرى فى طرفها قضيب حديدى معقوف وقال :

ـــ ها هو ذا .

ـــ خذه يا مارتن ، وتأهب للمعاونة .

ـــ ولكن ماذا ... ماذا علق بالحبل ؟

ـــ لست أدرى ولكنه شىء كبير .

وقال ابن الطبيب مولولا .

ـــ اقطعوا الحبل ، وجذفوا طلباً للنجاة .

وعجيب أن يكون جباناً على هذا النحو إذا ركب البحر ، وهو فتى يستطيع فوق اليابسة أن يتغلب على من هو فى ضعف حجمه .

www.alkottob.com

ومرة أخرى رج الحبل بير رجة كادت تلقى به من القارب . وفكر فى حريق الغابة الذى شب فى العام الماضى — ولا ينبغى بحال أن تلقى على أكتافه تبعة مكروه آخر من هذا القبيل . ولنفرض أن الوحش الهائل يصعد إلى السطح ويقلب بهم القارب — وهم بعيدون عن اليابسة بعداً شاسعاً . وأى خطب يكون لو أنهم غرقوا جميعاً وظهر أن الخطأ خطؤه ؟ ... وتحسس سكينه ليقطع حبالة الصيد — ثم دفعها ثانية ، واستمر فى شد الحبالة .

ها هو ذا يقبل — ظل هائل يضطرب خلال الماء . إن الوحش الضخم يدور قاذفا بنفسه ، مرسلا فورة من الفقاقيع إلى سطح الماء . ومن ثم لون أبيض يسطع ... صف من أسنان بيض كبيرة فى الجانب الأسفل . آهاً ! إنه يعلم الآن ماذا صاد ! إن سمكة القرش « الجرنيلادية » هى أضرى وحوش بحر الشمال ، وهى قادرة على وضع حد لحياة بضعة غلمان أو ما أشبه .

— اثبت الآن يا مارتن ... استعد بالخطاف .

كان الوحش يتقلب الآن على السطح ، والماء يفور حوله . وأخذ ذيله يجلد البحر حتى يحيل الماء إلى زبد . وظهر رأس مدبب متلوياً تحت الصنارة . وصاح بير . « الآن » وأصاب الوحش خطافان فى نفس الوقت ، ومال القارب على جانب ، وأفسح السبيل لدفقة من الماء ، وقفز كلاوس إلى مقدمة السفينة ، ملقياً بجذافيه ، صائحاً « أنقذنا يا يسوع ! » وفى اللحظة التالية ارتمى من فوق حافة القارب جسم ثقيل فى حجم جسم الرجل المكتمل النمو ، وإذا الغلامان يقذفان إلى الناحية الأخرى ؛ وهنا بدأت التسلية الرهيبة . لقد أسقط الغلامان خطافيهما وقفزا حتى يخليا مكاناً لذلك المخلوق ؛ فهناك كان الوحش الضارى الأسود الهائل يرقد هائجاً مائجاً ، بادياً بفكيه الحادين المتوعدين ، وعينيه الشريرتين المتقدتى الاحمرار . وكان ذيله القوى يضرب الهواء ، ويقذف المجاديف ورزم الأدوات عبر سطح القارب ، وينهش بأسنانه الطويلة ألواحه السفلى وعوارضه الخشبية . وكان بين حين وحين يقفز عالياً فى الهواء ليقع من جديد متلوياً فى عنف ، صافراً مزبد الفم . وكانت عيناه الحمراوان تحدقان فى آسريه الوجلين ، متنقلتين بينهم واحداً بعد واحد ، وكأنهما تقولان « اقتربوا ... لمسافة قليلة فقط ! »

www.alkottob.com

وكان « مارتن بروفولد » يخشى فى هذه الأثناء أن تحطم السمكة قاربهم إربا ، فشهر سكينه ، وتقدم إليها خطوة ، وومض السلاح ومضة فى الهواء ، وتغلغل عميقاً فى زعنفة ظهرها ، مرسلا دفقة من الدم . وصاح الآخرون : « حذار ! » ولكن مارتن كان قد قفز إلى الخلف بعيداً عن متناول ذيلها الأسود . وبدأت الآن رقصة الموت من جديد . كان الخنجر قد انغمس فى ظهر السمكة حتى مقبضه . وسكن شص خطاف بين عينيها ، وعلق آخر بجنبها — وتطايرت أعمدة القارب الخشبية هنا وهناك فى أثر كل قفزة ، واهتز هيكله وتأوه تحت وابل الضربات . صاح بير :

— ستحطم السمكة القارب ، وسنغوص إلى القاع .

وومض خنجره عندئذ ، وفجر سيلا من الدم المنحبس من بين كتفيها . ولكن الطعنة كلفته فقدان توازنه — وفى لحظة واحدة تهاوى الجسدان متدحرجين معاً مرة بعد مرة إلى قاع القارب .

وصاح كلاوس ، متعلقاً بمقدمة القارب :

— أوه ، أيها السيد المسيح ! إنها ستقتله ! ستقتله !

ووقف بير الآن نصف وقفة على ركبتيه ، ولكنه إذ بلغت يده جانب القارب لتمسكه أطبق الوحش بفكيه على ذراعيه . وتقبض وجه الفتى من شدة الألم ، وكانت أسنان السمكة قمينة ، بعد دقيقة أخرى أن تنفذ منها . وعندئذ ألقى بيتر رونبنجن بمجذافه فى مثل سرعة الخاطر ، وطعن بخنجره الوحش بين عينيه طعنة نجلاء ، واخترق السلاح الجبهة حتى المخ ، وتراخت عندئذ قبضة الأسنان . وقال بيتر متلعثماً وهو يرتد زاحفاً إلى مجذافه :

— شيطان لعين !

وبعد دقيقة أخرى كان بيتر قد انسحب متخلصاً من ورطته ، وجثا على دعامة القارب الأمامية ، وأمسك بذراعه الجريح من كمه المهلهل فى حين كان الدم يتدفق من بين أصابعه .

وعندما كانوا يجذفون وهم فى طريق عودتهم إلى بلدهم ، وقاربهم ينوء بثقل

www.alkottob.com

الهيكل الضخم ، توقفوا جميعاً عن التجذيف دفعة واحدة ، وسأل بير :

ـــ أين كلاوس ؟

ذلك أن ابن الطبيب لم يكن يجلس فى مكانه ، متعلقاً بمقدمة السفينة .

ـــ عجباً ! ... ها هو ذا ... فى القاع !

وهناك رقد الجلف الضخم الذى بلغ الخامسة عشرة ، ويتباهى منذ الآن بعلاقاته الغرامية ، ويدرس اللغة الألمانية ، ومفروض أن يصبح سيداً راقياً كأبيه ـــ هناك رقد فى أسفل القارب ، عند مقدمته ، مغمى عليه إغماءة شبيهة بالموت .

وارتعب الباقون فى أول الأمر ، ولكن بير الذى كان جالساً يغسل جرح ذراعه تناول دلواً يطفح بالماء ، وصب ما فيه على وجه الغائب عن وعيه . وفى اللحظة التالية كان كلاوس قد بدأ يجلس ، وأمسك فى حالة وحشية بحافة القارب وصاح :

ـــ اقطعوا الحبل ، وجذفوا طلباً للنجاة !

وتصاعد هدير الضحك من الباقين . وتركوا مجاذيفهم ، وتحدثوا عما جرى مبهورى الأنفاس . ولكنهم اتفقوا ، وهم على الشاطىء قبل ذهابهم إلى دورهم ، اتفقوا على عدم ذكر شىء عن نوبة إغماء كلاوس .

وظلت مغامرة الفتيان الأربعة المستهترين حديث القرية لمدة أسابيع كثيرة تالية . وعلى ذلك شعر أولئك الفتيان بأنه ليس ثمة خوف كبير من أن ينالوا ما يستحقون من ضرب عند عودة الرجال إلى بيوتهم .

www.alkottob.com

الفصل الثانى

عندما أرسلوا بير ، وهو بعد صبي صغير جداً ... إلى تروين الهرم وزوجته ليعيش فى كنفهما ، كان قد سبق أن تنقل عدة مرات بين أسرة تبنته بعد أسرة ، على أنه لم يعد يذكر ذلك ؛ وهو الآن فتى من فتيان القرية الطائشين .

بيد أنه كان منذ وقت غير بعيد صبياً مختلياً بنفسه ، يجتر حزنه فى عزلة عن الآخرين ... لماذا اعتاد الناس أن يقولوا عنه ، وهم يتحدثون عن أمه الحقيقية « يا له من صبي مسكين ! » لماذا يقولون ذلك ؟ بل حتى بيتر روننجن كان وقت الغضب يصيح متلعثما « يا ابـ ... بـ ... ن الزنا ! » ولكن بيتر كان يدعو زوجة تروين الطيبة ، المملوءة الوجه بالبثور « أمه » ، وكان يدعو الزوج الممسوج الساقين « أباه » ، وكان يمد إليه يد العون كلما احتاج إليها سواء فى دكان الحدادة أم فى قوارب الصيد .

وقد أمضى عهد طفولته بين قوم يعدون الابتسام إثماً ... قوم عقولهم أظلمت إظلام ضباب البحر الأشهب من معاناة الفقر ، وترتيل الأدعية ، والخوف من الجحيم .

وفى أحد الأيام ، إذ عاد إلى بيته من عمله حيث كان يحتطب ، وجد الصبية الأكبر منه سناً يتنهدون ويتأوهون وهم يطعمون وجبة بعد الظهر . ومسح بير العرق من جبينه ، وسأل عن الأمر .

ودفع الابن الأكبر ملعقة ملأى حساء إلى فمه ، وجفف دمع عينيه ، وابتلع الحساء وقال :

— مسكين بير !

وتنهد الرجل الهرم ، وقال وهو يضع ملعقته المجوفة فى شق بالحائط اتخذه حاملا لها :

أى نعم صبي صغير مسكين .

www.alkottob.com

وولولت الابنة الكبرى قائلة وهى تنظر من النافذة :

— لم يبق له الآن لا أب ولا أم .

— أمى ؟ ... أهى ... ؟

وتنهدت المرأة العجوز :

— نعم ، يا عزيزى ، نعم . لقد ذهبت دون ريب ... ذهبت لتقابل الديان .

وفيما بعد ، والنهار ينسلخ ، حاول بير أن يبكى هو أيضاً . وأسوأ ما فى الأمر أن كل من فى المنزل بدا أنه يعلم علم اليقين مصير أمه . والأمر المؤكد أن الجنة لن تكون مصيرها . ولكن ، كيف استطاعوا التأكد من ذلك ؟

ولم يكن بير قد رآها إلا مرة واحدة ، وذلك فى يوم من أيام الصيف إذ جاءت ترى المكان . وكانت ترتدى ثوباً خفيفاً ، وقبعة كبيرة من قش ، وأدرك الفتى أنه لم ير شيئاً جميلا مثلها من قبل . ولم تكتم عن الجيرة أن « بير » ليس ابنها الوحيد ، فلها ابنة صغيرة أيضاً تدعى لوين ، وهى تعيش مع قوم فى إحدى الأبرشيات الداخلية البعيدة . وكانت منشرحة الصدر . وروت حكايات جريئة . وغنت أغانى ليست طاهرة بحال . وهز كبار السن رؤوسهم أمامها — وراقبها صغار السن ، ناظرين إليها بأطراف عيونهم . وقبلت بير عند انصرافها . ودارت أكثر من مرة لتعيد النظر إليه ، وتورد وجهها تحت قبعتها الكبيرة وهى تبتسم . وبدا لبير أنها لابد أن تكون دون ريب ألطف مخلوقة فى الوجود .

ولكنها ذهبت الآن ... ذهبت الآن إلى مكان يقيم فيه الكفرة ويكابدون عذاباً رهيباً ، ولا أمل لها فى النجاة إلى أبد الآبدين — ولم يستطع بير أن يذكرها قط إلا وهى ترتدى ثوبها الخفيف ، وقبعة القش الكبيرة ، وتستغرق فى الغناء والضحك السعيد .

ثم آن أوان السؤال : « من ذا الذى سيدفع الآن أجر إقامة الصبى ؟ » حقيقة إن شهادة ميلاده تنص على أن له أباً ... اسمه هولم ، يعيش فى كريستيانا ... ولكن كان من المعروف ، وفقاً لقول أم الصبى ، إنه اختفى منذ زمن بعيد . فماذا يصنعون بالصبى ؟

www.alkottob.com

وحتى الآن لم يدرك بير قط إدراكا حقيقياً أنه غريب هنا برغم أنه يدعو الزوجين المرمين أباه وأمه .

وظل يقضى الليلة بعد الليلة مستيقظاً فى الطابق العلوى ، منصتاً إلى الحديث الذى يجرى عنه فى الغرفة السفلى ... كانت الزوجة الطيبة تقول باكية : « لا ، لا ! » فى حين كان الباقون يتحدثون عن قسوة الأيام الحاضرة ، ويقولون إن بير بلغ الآن من سنه حداً يمكن معه أن يناط به رعى قطيع من الماعز فى مزرعة من مزارع شمال الريف .

وعندئذ كان بير يجر فوق رأسه غطاءه الجلدى . ولكن غالباً ماكان يسمع الكبار ، فيما إذا تصادف أن استيقظوا ليلا ، زفرات يرددها شخص وهو نائم فى الطابق العلوى . وفى أثناء النهار كان الفتى يحتل من المائدة أصغر مكان يستطيعه ، ويأكل أقل قدر يكفى آدمياً . ولكنه كان يستيقظ كل صباح وهو يخشى أن يكون ذلك اليوم ... أن يكون ذلك اليوم هو الذى سيودع فيه حاضنته ، ويذهب ليعيش بين غرباء .

ولكن شيئاً جديداً لم يسمع به من قبل دهم الكوخ الصغير القائم إلى جانب الفيورد .

جاءت رسالة موصى عليها ، مختومة من كل ناحية بأختام كبيرة على الشمع الأحمر وخطفها مهذب إلى حد أنه لا يكاد يقرأ . والتف الجميع حول الابن الأكبر ليروه وهو يفضها — وسقطت منها أوراق مالية بمبلغ خمسين « كراونا » . وصاح الجميع فى دهشة « رحماك يا رب ! » أيمكن أن يكون هذا المال مرسلا لنا ؟ » وكان الأمر التالى هو حل لغز ما فى الرسالة .

ومن ذا الذى لا بد أن تكون الرسالة وردت منه — اللهم أن يكون أبا بير ، وإن كان لم يذكر ذلك فى الكلام الكثير الذى كتبه . لقد جاء فى الرسالة : « عاملوا الفتى بالحسنى ، وسوف تتسلمون منى خمسين كرونا كل ستة أشهر ، واهتموا بأن توفروا له الطعام والملابس الجافة ، وأن تحافظوا على قدميه من البلل ... المخلص ب . هولم . كابتن » .

www.alkottob.com

وقالت الابنة الكبرى متلعثمة :

ـــ عجباً يا بير .. إنه ... إنه ... إن أباك « كابتن » ... إنه ضابط .

وتراجعت خطوة لتحدق فى الصبي .

وقال الابن وهو يشد بقبضته على الأوراق المالية ، ويحدق فى السقف كأنه يشهد السماء على ما حدث :

ـــ وسنحصل على ضعف المبلغ الذى كنا نحصل عليه من قبل .

ولكن الزوجة العجوز كانت تفكر فى شيء آخر وهى تبسط يديها حمداً لله ... فلم يعد الآن ما يدعو إلى فقد الصبي .

« إطعامه جيداً ! » لا حاجة إلى الخوف من ذلك . لقد أضيف العسل إلى حساء بير فى هذا المليوم بالذات ، على الرغم من أنه ليس يوم أحد ، وأعطاه الابن الأكبر جوربين ، وحمله على الجلوس ولبسهما من فوره . وفى نفس هذه الليلة صعدت الفتاة الكبرى إلى بير عندما أوى إلى فراشه ، وغطته بغطاء ليس خالياً تماما من الوبر كالغطاء السابق ... إن أباه « كابتن » ! هذا يبدو أعجب من أن يكون حقيقياً .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت الأحوال بالنسبة لبير ، فأصبح الناس ينظرون إليه نظرات جديدة . ولم يعد أحد يقول عنه الآن « صبي مسكين » . وأقلع سائر الصبية عن سبه . وقال عنه الكبار إن له مستقبلا زاهراً . وأكدوا له قولهم « سترى ، إن أباك هذا سينهض بك . وستصبح قسيساً ، نعم ، وقد تصبح أسقفاً . وفى عيد الميلاد جاءته ورقة مالية بمبلغ عشرة « كراونات » ليستحوذ عليها هو وحده ، ويصنع بها ما يشاء . واستبدل بها نقوداً فضية حتى كاد كيسه ينفجر يسراً . ولا عجب إذا بدأ يسير هنا وهناك فى شمم ، ويلعب دور الأمير والزعيم بين الغلمان . وقد تودد إليه حتى كلاوس بروك ، ابن الطبيب ، وعلمه لعب الورق . ولكنه كان يقول له : « إنك ولا شك لا تقصد أن ترحل وتصبح قسيساً » .

ولكن برغم هذا كله لم يكن أحد ليستطيع أن يقول عن بير إنه تعالى على المعاونة فى الصيد ، والقيام بعمل مفيد فى دكان الحدادة . ولكنه عند تطاير الشرر من الحديد

www.alkottob.com

المتوهج ، كان لا يستطيع إلا أن يرى رؤى خاصة به — رؤى تتطاير إلى المستقبل . نعم ، سيصبح قسيساً . وقد يكون آثماً الآن . قد يكون وغداً متوحشاً ، فهو يسب ويلعن أحياناً كما يفعل بعض الجنود ، وما ذلك إلا كي يبدى لسائر الصبية حماقة مايقال عن انشقاق الأرض وابتلاعك . ولكنه سيصبح قسيساً برغم ذلك كله ... قسيساً لا يشبه بحال قسيسيكم ذوى العوينات والبطون الكبيرة ... لا ، إنما سيكون أشبه برسول سماوى يرفل فى ثياب بيض كالثلوج ، وله وجه مجيد . ولعله يستطيع أن يصل حتى إلى حد تمكنه من النزول إلى مكان العذاب حيث ترقد أمه ، والصعود بها ثانية إلى الخلاص . وعندما يقف خارج قصره فى ليالى الخريف ، وهو أسقف يجلل شعره بياض المشيب ، قد يرفع إصبعه إلى أعلى فتسترسل النجوم جميعها فى الغناء .

وغنى السندان تحت ضربات المطرقة مردداً « كلانج ، كلانج ، كلانج » .

وفى أمسيات الصيف الساكنة يتسلق فريق من الصبية منحدرات التلال العارية متجهين إلى صفوف الأشجار العالية ليعودوا بالبقر ويحلبوها . وكانوا كلما ازدادوا علواً فى تسلقهم ازدادت قدرة أبصارهم على المضى أبعد فأبعد فوق متن البحر . وبعد أن تمر ساعة أو ساعتان ، وتميل الشمس للغروب ، يقبل شريط طويل من أبقار حمر الجوانب تتهادى هابطة من المنحدر ، وتحدث بخوارها ضوضاء خافتة تتردد فوق القمم البعيدة . وينادى الصبية صائحين « أو هو ... هو ... وو ! » ويهزون دفوفهم المستديرة ، ويبصقون عصيراً أحمر من قشر شجر الحور الذى يمضغونه كما يمضغ الرجال الطباق . وتقع عيونهم على أراضى المزارع التى تبدو تحتهم من بعيد شهباء بين الظلال ، وتلوح من ورائها مياه الفيورد صفراء فى ضوء الماء ، شبيهة بمرآة تسطع فيها السحب الحمر ، والقلاع البيض ، والتلال اللازوردية . وفى أقصى رأس الأرض ، على بعد شاسع يسطع فوق البحر الأشهب فنار الساحل المتفرد .

وفى يوم من هذه الأيام نزل بير من التلال فى الوقت المناسب ليقابل سيداً عرج فى عربته من الطريق العام ليسلك الطريق الجانبى المؤدى إلى بيت تروين . وتوقف الحصان فجأة أمام جسر صغير ، وعندما جذبه السائق من لجامه ، وضربه بالسوط ، شب الحيوان وتمايل ، وجعل العربة تتراقص بشدة فوق عجلاتها العالية . وصاح السيد غاضباً : « أوه ، حسناً ، سأضطر إذن إلى السير على قدمى » . ورمى اللجام

www.alkottob.com

إلى الغلام الجالس وراءه ، وقفز إلى الأرض . وفى هذه اللحظة بالذات أقبل بير.

وقال الزائر : « تعـال هنا ياغلام . احمل هذه الحقيبة ، أتسمح ؟ و . . . » ثم توقف عن القول فجأة ، وتراجع خطوة إلى الوراء ، وحدق فى الصبي : « ماذا . . . ؟ إن هذا غير ممكن بالتأكيد . . . أأنت بير ؟ »

وقال بير وقد فغرفاه قليلا ، ورفع قبعته : « . . . ن . . . مم » — حسناً . إن هذا لمضحك . أنا « هولم » . . . حسناً ، حسناً . . . حسنا ، حسناً ! .

وكان الغـلام الجالس فى العربة قد ابتعد بها ، ووقف السيد المقبل من المدينة ، والصبي الريفى الشاحب اللون ذو السروال المرقع . . . وقفا ينظران كل إلى الآخر .

كان القادم الجديد رجـلا فى الخمسين أو ما يقارب ذلك ، ولـكنه لم يزل منتصب القامة ، نشط الحركة برغم أن شعر رأسه ولحيته المنسقة كان مشوباً بالبياض . وكانت عيناه تومضـان تحت حافة قبعته السـوداء المصنوعة من لباد . وكان معطفه الطويل المفـكوك الأزرار يكشف سلسلة ذهبية ممتدة عبر صدريته . وبدا بقفازه ؛ ومظلته التى يمسكها بإحدى يديه ، وحقيبة السفر الخفيفة التى يمسكها باليدالأخرى ، وحذائه الحسن الدهان — بدا سيداً عظيما فى عينى بير ، لو أن هناك سيداًعظيما موجودا فعلا . . . وهذا السيد العظيم هو أبوه !

— أهكذا تبدو إذن ، يا ولدى ؟ أنت لست كبيراً جـداً بالنسبة لسنك — فقد كدت تبلغ الآن السادسة عشرة ، أليس كذلك ؟ أيقدمون لك طعاماً كافياً ؟

وقال بير عن اقتناع :

— نعم .

وانحدر كلاهما صوب الـكوخ الرمادى القائم إلى جوار الفيورد . وتوقف الرجل فجأة ، ونظر إلى الـكوخ بعينين مفتوحتين نصف فتحة .

— أهنا كنت تقيم طوال هذه السنوات ؟

— نعم .

www.alkottob.com

ـــ فى هذا الكوخ الصغير القائم هناك ؟

ـــ نعم . هـذا هو مكان إقامتى . ويطلقون عليه اسم تروين .

ـــ عجباً ، إن هـذا الحائط هناك شديد الانبعاج وأظن أن البناء كله سينهار عما قريب .

وحاول بير أن يضحك من هذا القول ، ولكنه شعر بشىء أشبه بكتلة فى حلقة . وآلمه أن يتحدث الناس المهذبون على هذا النحو عن بيت أبيه وأمه الصغير .

وحدث هرج ومرج شديدان عند ما ظهر السيد الغريب على عتبة الباب . كانت الزوجة بعيدة عند العجين تصنع كعكة ، وبدت من قبل معفرة بالعجين . وكان الرجل الهرم يرقع حذاء وهو يضع عويناته على عينيه ، وقفزت الفتاتان مبتعدتين عن آلات غزلها وقال الزائر وهو ينظر فيما حوله مبتسما :

ـــ حسناً ، ها أنذا ... أنا هولم .

وغمغمت العجوز وهى تمسح يديها فى ذيل ثوبها :

ـــ رحماك يارب ! إنه الكابتن نفسه .

كان سيداً لطيفاً ، ولم يلبث أن أعاد إليهم الطمأنينة . وجلس فى مكان الصدارة ، وأخذ ينقر بأصابعه على المائدة ، ويتحدث فى يسر كأنه يتحدث فى بيته تماماً . وكانت إحدى الفتاتين قد أمضت فترة من الزمن فى خدمة أسرة قنصل فى المدينة ، وعرفت أساليب علية القوم ، فجاءت بإبريق من اللبن ، وقدمته إلى السيد متجملة وقالت :

ـــ هل يتناول الكابتن بعضاً من اللبن ؟

وقال الزائر :

ـــ شكراً ، شكراً . وما اسمك ياعزيزتى ؟ دعى هذا ، فليس هناك ما يدعو إلى احمرار وجهك ... اسمك نيكولين ؟.. اسم ممتاز ! . . . وأنت ؟ اسمك لوزيانا ؟ هذا حسن .

www.alkottob.com

ونظر إلى الكأس الملون الحافة باللون الأحمر ، ورفعه إلى فمه ، وأفرغه فيه دفعة واحدة ، ثم التقط أنفاسه وهو يجفف فمه : «فو !.. لبن جديد . حسناً ، هاأنذا بينكم» وأجال بصره فى الغرفة ، وفى الموجودين كل بدوره ، وابتسم ، ونقر بأصابعه وقال :

ـــ حسناً ، حسناً ... حسناً حسناً .

وبدا عليه أنه وجد ترويحاً عن نفسه فى كل شىء على العموم ، وقال فجأة :

ـــ على فكرة يا نيكولين ، مادمت معنا بأمر الألقاب خير إلمام فإنى لم أعد مجرد « كابتن » بعد الآن لقد أرسلونى إلى هذه الناحية بحسبانى « كولونيلا » ، ولزوجتى منزل الآن فى بلدتكم هذه خلفه لها أهلها ، وعلى ذلك قد نأتى ونقيم فى هذه النواحى . ولعله من الأفضل أن تراسلونى من الآن فصاعداً عن طريق أحد أصدقائى . ولكننا نستطيع أن نتحدث عن هذا كله تدريجياً . حسناً ، حسناً ... حسناً ، حسناً .

وكان فى هذه الأثناء كلها ينقر بأصابعه على المائدة ويبتسم . ولاحظ بير أنه يصل أطراف كمى قميصه بمشبكين ذهبيين ، ويضع على صدر ذلك القميص الأبيض العريض دبوساً ذهبياً بديعاً .

ثم أخرج لفافة صغيرة وقال : « هيه يا بير ، تعال وانظر ، فهـا هو ذا شىء أحضرته لك . » ولم يكن هذا الشىء غير ساعة فضية حقيقية ـــ وشعر بير فى ذلك الوقت أنه تعس تماماً لأنه لم يكن يستطيع أن يندفع من فوره إلى جميع الصبية الآخرين ليريهم الهدية . وقالت الزوجة العجوز وهى تصفق بيديها ، وتكاد عيناها تغرورقان بالدموع :

ـــ ها هو ذا أب لك .

ولكن الزائر ربت على كتفها وقال :

ـــ أب ؟ أب ؟ هيم ... هذه ليست مسألة يستطيع أى إنسان أن يتيقن منها كل التيقن . ها ها ها !

وردد الرجل المرح هذه القهقهة . وهو لايزال يجلس والمنقب فى يده ، فهذا هو نوع النكتة الذى يستطيع تقديره .

www.alkottob.com

ثم خرج الزائر من البيت ، وتجول حول تلك الأرجاء ، واضعاً يديه خلف ذيل سترته ، ونظر إلى السماء، وإلى الفيورد وغمغم: « حسناً ، حسناً ... حسناً ، حسناً . » وظل بير يتبعه طوال الوقت ، وتطلع إليه كما لو كان يتطلع إلى نجم فى السماء . وكان سينام فى دار جار من الجيران بها غرفة ذات سرير مكسو بالأغطية ، وذهب بير معه عبر الطريق حاملا حقيبته . وكان أبوا «مارتن بروفولد » هما اللذان سيؤيان المسافر، ووقف الناس حول الدار يحدقون فيها . وكان مارتن نفسه ينتظر خارج الدار « أهذا صديق من أصدقائك يا بير ؟ ها هو ذا إذن ياولدى شىء يمكن أن تشترى به ضيعة كبيرة . » وكان المبلغ الذى نفحه هذه المرة ورقة مالية بخمسة كراونات . ووقف مارتن يتحسسها وهو لا يكاد يستطيع تصديق عينيه . كان أبو بير أشبه بأب فعلى .

وكان شيئاً بديعاً أيضاً أن يرى المرء سيداً عظيما يتجرد من ملابس النهار . وخطر لبير هذا الخاطر وهو يرقب كل عجب جديد يخرج من الحقيبة . « ستكون لى ، فى يوم ما ، مثل هذه الأشياء . » كانت هناك فرشاة مفضضة الظهر ، تناولها وفرش بها شعر رأسه ولحيته وهو يروح ويغدو فى ملابسه الداخلية ، ويهمهم لنفسه أغنية . ثم كان هناك قميص آخر مخطط الطوق بخطوط حمر تدور حوله . وهو مما لا يلبس إلا عند النوم . وأومأ بير لنفسه وهويلقى بالا إلى كل شىء . وعند ما أوى الغريب إلى فراشه أخرج زجاجة ذات غطاء من فضة يمكن نزعه بطريقة لولبية فيصبح قدحا ، وشرب الرجل منه جرعة خمر ليسكر سكرة الرقاد . ثم وصل بيده إلى غليون طويل ذى شريط مزركش ، وعند ماسلس دخان الغليون تمطى واستراح ، ثم ابتسم لبير :

ـــ والآن يا ولدى ، أأنت موفق فى الدراسة ؟

ووضع بير يديه خلف ظهره ، وقدم رجلا إلى الأمام :

ـــ نعم . إنه يقول ذلك ... المدرس يقول ذلك .

ـــ ما حاصل ضرب ١٢ × ١٢ ؟

وكان هذا السؤال الطامة الكبرى فهو لم يتجاوز حفظ حاصل ضرب عشرة فى عشرة .

www.alkottob.com

ـــ أيعلمونكم الألعاب الرياضية فى المدرسة ؟؟

ـــ ألعاب ريا . . . وما هى هذه الألعاب ؟

ـــ القفز والوثب ، وتسلق الحبل ، والتدرب على التحرك فى طوابير . . . ماذا ؟

ـــ ولكن أليست . . . أليست هذه أفعالا شريرة ؟

ـــ شريرة ! . . ها ها ها ! أقلت شريرة ؟ هذه إذن هى وجهة نظركم إلى الأمور هنا أليس كذلك ؟ حسناً ، حسناً . . . حسناً ، حسناً ! ها ها ها ! ناولنى علبة السكبريت هذه يا ولدى . . . هيم !

وقضى فترة من الزمن وهو ينفخ دخان غليونه فى صمت ، ثم قال فجأة :

ـــ اسمع يا ولدى . أتعلم أن لك أختاً صغيرة ؟

ـــ نعم أعلم ذلك .

ـــ أقصد أختاً غير شقيقة . وأنا نفسى لم أكن على علم تام بما هنالك . ولكن يمكننى مع ذلك أن أقول لك يا ولدى إنى كنت أدفع لك دائماً نفس المبلغ الذى كنت أدفعه الآن . إلا أننى كنت أرسل النقود لأمك ، وكانت . . . حسناً ، كانت لها . . . المسكينة . . . ابنة أخرى تعنى بها ، وليس لهذه الابنة أب ينفق عليها . وعلى هذا قسمت نقودى بينكما ، ها ها ها ! حسناً ، فتاة مسكينة ، إننا لانستطيع أن نلومها على ذلك . وأعتقد أن علينا الآن ، أياً كان الأمر ، أن نهتم بأختك الصغيرة غير الشقيقة حتى تكبر . . . ألا ترى ذلك أنت نفسك ؟

وشعر بير بالدموع تصعد إلى عينيه . . . يرى ذلك ؟ طبعاً يرى ذلك .

ورحل أبو بير فى اليوم الثانى . ووقف هناك فى غرفة الاستقبال بدار تروين ، مستعداً للرحيل ، مرتدياً قبعته الصوفية الجامدة ، ومعطفه ، وسائر لبسه ، وقال بلهجة أشبه بلهجة العمدة عند مايلقى بياناً عاماً عند باب الكنيسة :

ـــ وعلى فكرة ، عليكم أن تتولوا هذا العام أمر إقرار الكنيسة لتعميده .

www.alkottob.com

وأسرعت الأم العجوز إلى القول :

ـــ نعم ، سنفعل ذلك بالتأكيد .

ـــ ثم إنى أود له أن يرتدى الثياب اللائقة على نحو ما يرتدى أحسن الصبية الآخرين . وها هو ذا مبلغ خمسين « كراونا » أدفعه له بقصد تسليمه إلى كل من مدرسه وراعى الكنيسة هدية عند الفراق .

وأسلمهم مزيداً من الأوراق المالية . واستطرد يقول .

ـــ وإنى أنوى ، فيما بعد طبعاً ، أن أعنى بأمره حتى يستطيع أن يشق طريقه ويصل إلى مكانة محترمة . ولكن ينبغى لنا أولا أن نتبين العمل الذى يميل إليه ، وعلى أى نحو يريد بناء مستقبله . والأفضل أن يحضر إلى المدينة ويناقشنى فى هذا الأمر ... ولكنى سأراسلكم وأدبر هذا كله بعد أن يتم إقرار تعميده . ثم إنه فيما إذا وقع لى أمر غير متوقع ، فهناك قدر من المال مودع باسمه فى أحد مصارف التوفير ، وفى استطاعته أن يلجأ إلى صديق لى ملم بالأمر كله ... حسناً ، وداعاً ، وشكراً جزيلا !

وتبسم الرجل العظيم ملتفتاً إلى اليمين وإلى اليسار ، وصافحهم جميعاً ، ولوح لهم بقبعته وانصرف .

وفى الأيام القليلة التى تلت ذلك كان بير يخطر فى الهواء ، ويجد صعوبة فى أن يحافظ على مشيه فوق الأرض العادية . ولم يكف الناس قط عن ملء رأسه بالأحاديث عن المبلغ المودع لحسابه فى بنك التوفير ... إنه قد لا يتجاوز بضعة آلاف من الكراونات ، ولكنه قد يبلغ كذلك المليون ... مليون! ...

وها هو ذا هنا يأكل الزنجة فى الغداء ، ويحادث توم ديك ، وهارى ، كما لو كان أى شخص عادى ... مليون كراون !

وبعد ذلك فى الخريف حل موعد إقرار التعميد ، وأطلقت الكنيسة دقات أجراسها المتتالية فى فضاء الخريف الأزرق ، تلك الكنيسة الخشبية القديمة ، المطلية الحيطان بالقار ، المستقرة بين أعالى أشجارها الضخمة . وخيل إلى بير كأن جدة عجوزاً رؤوماً تنادى فى لطف أى لطف : « تعالوا ، تعالوا ... شيباً وشباناً ... شيباً وشباناً ...

www.alkottob.com

تعالوا من الفيورد ومن الوادى ... من الشمال ومن الجنوب ... تعالوا ، تعالوا ... فى هذا اليوم الذى يفضل سائر الأيام .. هذا اليوم الذى يفضل سائر الأيام ... تعالوا ، تعالوا ، تعالوا ! » . هكذا قامت هذه الكنيسة ، تدق أجراسها لجيل بعد جيل ، عبر مئات السنين ، وها هى ذى تنادينا الآن . والشبان هاهم أولاء ينظر بعضهم إلى بعض وهم يرتدون ثيابهم الجديدة ، ويتمخطون فى مناديل بيض نظيفة ، مطوية فى عناية . وهاهو ذا بيتر رونينجى مقبل . لقد نجح هذا العام لحسن حظه ، ولكنه اضطر أن يبدو فى سترة مستعارة من بير نظراً إلى أن الحائك لم يتم إعداد ملابسه الجديدة . وحيا الصبية بعضهم بعضاً وحاولوا الابتسام كما يفعل الكبار . ولعل واحداً ، أولعل إثنين منهم ينتظران تسوية حساب خاص بعراك قديم حدث خلال العام الدراسى ... ولكن ، لا بأس ، ومن الخير نسيان الخزازات القديمة الآن . ووقع نظر بير على جوهان كوجا الذى سرق منه قلماً فى الصيف الماضى . لكن حتى هذا الحادث لا يستحق ، على أية حال ، إثارة ضجة عنه الآن ... وكان يسأل بعضهم بعضاً وهم يتجهون جميعاً إلى السلم الحجرى المؤدى إلى باب الكنيسة الذى تتدفق منه نغمات الأرغن لتستقبلهم : « حسناً ، كيف كانت حالك منذ الصيف الماضى ؟ »

كم تبدو الكنيسة الصغيرة طيبة شفيقة حيث يرحب بك كل ما تقع عيناك عليه ! ويتساقط من نوافذها ذوات الألواح الزجاجية الملونة المحاطة بإطار من رصاص ، نور خفيف جداً إلى حد أنه حتى الوجوه القبيحة المسكينة تبدو فيه جميلة . وكانت ألحان الأرغن هى النور نفسه يتحول إلى نغم عذب ، وكنت تستطيع أن ترى من إحدى نواحى صحن الكنيسة رؤوس جميع الصبية لامعة وهى مبللة بالماء ، ومن الناحية الأخرى تبدو الأمهات الصغيرات وهن مرتديات اليوم لأول مرة ثيابهن الفضفاضة ، وعلى هاماتهن مناديل الرأس ، وفى أيديهن كتب الأناشيد ، فى حين بدا على وجوههن التفكير ... وأخذ الجميع يرددون الآن الغناء . واتخذ الكبار أماكنهم اليوم فى المؤخرة ، بيد أنهم اشتركوا فى الغناء وهم يرفعون بصرهم عن الكتاب بين حين وحين ، وينظرون إلى تلك الرؤوس الصغيرة البادية أمامهم ، ويتساءلون ماذا سيكون مصيرهم فى الحياة . على أن الصغار أنفسهم كانوا وهم يغنون ، يخطر ببالهم « هذا هو يوم بدء الأمور الجديدة . لقد مضى أوان اللهو واللعب إلى غير رجعة ، وأصبحنا منذ اليوم كباراً . » ولكن بدا كأن الكنيسة وما حوت . كانت تقول : « إذا صادفتم محنة شديدة يوماً ما فتعالوا

www.alkottob.com

هنا إلى . » ما عليك إلا أن تنظر إلى المذبح هناك ... إن نقوش خشبها هى فى ذاتها الإنجيل بأجمعه ... ولكن لوحة ناموس موسى تبدو فى مظهر لطيف اليوم ، وفى مقدورك أن ترى أنها لاتقصد شراً على أية حال . والقديس بطرس يبدو وهو يحمل المفاتيح ، وينظر إلى أعلى ، كأنه عم هرم يعود من السوق حاملا شيئاً طيباً . ثم إن الملائكة المرسومة على الحائط ، أو المنقوشة على خشبه ، تبدو كأنها استعارت صوت الأرغن ، ونغم التسبيح ، ووسعت قبة القاعة حتى أصبحت فى اتساع قبة السماء ، فى حين ذاب النور والغناء والمصلون بعضهم فى بعض ، وسموا جميعاً إلى الفضاء اللانهائى .

واستغرق بير فى التفكير طوال الوقت : أنا لا يهمنى أن أكون غنياً كما يقال ، فإنى سأكون قساً . ولعلى أستطيع عندئذ ، بما لدى من مال طائل ، أن أبنى كنيسة لم ير إنسان لها مثلا قط . وسيكون أول زوجين أعقد قرانهما مارتن بروفولد والأخت الصغيرة لويس ... لو أنه فقط رضى بها زوجة ... فلننتظر ونر !

وبعد مرور بضعة أيام كتب إلى أبيه يسأله أيستطيع الحضور إلى المدينة الآن والالتحاق بمدرسة . ومضى على ذلك ردح من الزمن ، ثم وصلت آخر الأمر رسالة مكتوبة بخط غريب . وتجمع كبار أسرة تروين ثمانية ليقرأوها . ولكن أية دهشة عرتهم عند ما قرأوا :

« من الممكن أن تكون علمت الآن من الصحف أن المحسن المتفضل عليك ، الكولونيل هولم ، لقى حتفه على أثر وقوعه من فوق ظهر حصان . ولذلك أرانى مضطراً أن أطلب حضورك إلى شخصياً فى أقرب وقت يناسبك ، فهناك مسائل من تسويتها معك ... المخلص ج . جرانت ، كبير المدرسين . »

ووقفوا ينظر بعضهم إلى بعض .

وكان بير يبكى . ولا بد من التسليم بأن بكاءه يرجع على الأخص إلى فكرة اضطراره لتوديع أسرة تروين جميعاً ، وكذلك توديع البقرتين والعجل والقط الأشهب . ولعله لا بد له من الرحيل إلى كريستيانا فى ميعاد لا يتجاوز غداً ... ومن الذهاب إلى المدرسة هناك ... وعند مايعود ، فأغلب الظن أنه قد لايجد الأم العجوز موجودة على قيد الحياة .

www.alkottob.com

وعلى ذلك كانوا ثلاثتهم مثقلى القلب بالهموم عند ما رافقه إلى رصيف الميناء كل من الزوجة الطيبة المصابة بالبثور ، والرجل العجوز المقوس الساقين . وبعد قليل كان يقف على ظهر سفينة الفيورد محدقا فى الشخصين اللذين ظلا يصفران شيئاً فشيئاً . ثم توارى كوخ بعد كوخ خلف لسان البحر ... وترون نفسها تبددت الآن . . . وكذلك التلال والغابات التى صنع من خشبها الدفوف ، واسترجع فيها السائمة الضالة . . . وابتعد كل شىء عرفه ، وتوارى فى سرعة ، حتى تبددت الأبرشية كلها فى آخر الأمر ، ومعها عهد طفولته .

www.alkottob.com

الفصل الثالث

بينما كان المساء ينشر ظلاله رأى أنواراً كثيرة تنتشر فى الظلام أمامه متجهة عن بعد فى كل اتجاه . ثم أخذ بعد ذلك يبحث بين الشوارع الممتدة إلى جانب الميناء ، عن طريقه إلى النزل الذى يقصده الريفيون ، والذى عرفه فى زياراته السابقة عند ما كان يحضر إلى المدينة فى قوارب لوفوتين .

وفى صباح اليوم التالى أخذ يجتاز « شارع النهر » وهو فى ثوبه الريفى الخشن النسيج ، ومر فوق جسر ، وصعد فى تل إلى حى البيوت المحاطة بالحدائق حيث كان عليه أن يسأل عن وجهته ووصل فى نهاية الأمر إلى بيت خشبى مدهون باللون الأبيض ، قائم فى الجهة الخلفية من حديقته . وهذا كان المكان المقصود ... المكان الذى سيتقرر فيه مصيره . ودخل كعادة أهل الريف من باب المطبخ .

وكانت هناك خادمة بدينة ملتفة بمئزر أبيض كبير تقعقع بحلقات « وابور » الطبخ وهى تثبتها فى مكانها . وتصاعدت من القهوة والمأكولات الطيبة رائحة شهية . وفتح أحد الأبواب فجأة ، وظهر شخص يرتدى جلباباً — رجل طويل ، شعره أحمر ، تغطى أنفه القرمزى الطويل عوينات ذهبية ، ويشوب شعره الغزير ، وشاربه الصغير الحقير ، مس من المشيب . وصعد نفسه بقوة مرة أو مرتين ، ثم بدأ يعطس ... « هوك ... هوك پوت ... پوتش ! » ونظف أنفه بمنديل جيب كبير ، وقال متأففاً : « أوخ ! ... أف لهذا البرد اللعين ... إنى لا أستطيع الخلاص منه . وماذا عن جوربى يا بيرتا ؟ يا فتاتى الطيبة ؟ أتظنين أنه جف الآن تماماً ؟ »

وقالت الفتاة وهى تهز رأسها :

— إنى نشرته منذ أوقدت النار صباحاً .

— ولكن ، هل لى أن أسأل من هذا السيد الصغير ؟

وتحولت عوينات الرجل تماماً إلى بير الذى وقف وانحنى .. وتدخلت الخادمة قائلة:

www.alkottob.com

ـــ يقول إنه يريد التحدث إليك يا سيدى .

ـــ آه . أنت من الريف كما أرى . هل لديك شيء تبيعه يافتاى ؟

وقال بير :

ـــ لا

كانت معه رسالة ...

وبدا عندئذ على الرجل ذى الرأس الأحمر أنه خاف فعلا ... وتهاوى بجلبابه إلى الوراء كأنه يلتمس سنداً يستند إليه . وألقى على الفتاة نظرة سريعة . ثم أشار إلى بير بسبابته .

ـــ نعم ، نعم . هو كذلك تماماً . اسمح أن تأتى من هنا يا ولدى .

ووجد بير نفسه فى غرفة تدور حول حيطانها صفوف من الكتب ، ويقوم فى وسطها مكتب كبير . « اجلس يا ولدى » . ومضى فالتقط غليوناً طويلا ، وحشاه طباقا ، وتنحنح فى عصبية ، مختلساً إلى الصبي نظرات عرضية : « هيم ... هذا هو أنت إذن . هذا هو بير ... هيم . » وأشعل غليونه ، ودخن قليلا . ثم وجد نفسه مضطراً إلى العطس ثانية ... ولكنه استقر آخر الأمر فى مقعد إلى جانب المكتب ، ومد ساقيه الطويلتين ، ودخن الغليون من جديد .

ـــ أهكذا أنت تبدو إذن ؟

وفى حركة سريعة امتدت يده إلى صورة فوتوغرافية فى إطار ، ورأى بير أباه فى لمحة مرتدياً كسوته الرسمية . ورفع المدرس عويناته ، وحدق فى الصورة ، ثم خفض عويناته ثانية ، وراح يفحص وجه بير بنظره . وساد الصمت فترة من الزمن ، ثم قال : « آه ، فعلا ... إنى أرى ذلك ... هيم » . ثم دار إلى الفتى :

ـــ حسناً ، يا ولدى . كانت نهاية المحسن إليك مفاجأة مباغتة ... غير متوقعة بحال . وسيتم دفنه اليوم .

وفكر بير فى هذا القول « المحسن ؟ ... لماذا لم يقل أبوك ؟ » وكان المدرس يشخص إلى النافذة :

www.alkottob.com

— لقد أخبرنى منذ مدة ... هيم ... عن كل ... كل النعم التى أسبغها عليك ... هيم ! وسألنى ، فى حالة إصابته بمكروه ، أن أسهر عليك بنفسى . والآن ...

ودارت العينات متجهة صوب بير :

— أنت الآن ستبدأ حياة تشق طريقها بنفسك ، أليس كذلك ؟

وقال بير وهو يتحرك فى مقعده :

— نعم .

— وعليك أن تقرر الآن أى طريق فى الحياة ... إرر ... ستكرس له نفسك

وقال بير ثانية ، وهو يجلس على نحو أكثر اعتدالا :

— نعم .

— لعلك تود أن تكون صياد سمك مثل القوم الطيبين الذين نشأت بينهم ؟

وهز بير رأسه فى ازدراء :

— لا .

أهذا الرجل يحاول أن يخدعه ؟

— لعلك تريد إذن نوعا من التجارة ؟

— لا .

— أوه ، أحسب إذن أنها أمريكا . حسناً ، إنك ستجد فى سهولة رفقاء ترحل معهم ، فهناك أناس كثيرون يرحلون إليها فى هذه الأيام ... ويؤسفنى أن أقول ...

واستجمع بير قواه :

— أوه ، لا ... ليس هذا قط .

من الأفضل أن يكشف عما يضمر من قوة ، وقال وهو يحرص على النطق بلهجة أهل المدينة .

— إنى أود أن أصبح قساً .

www.alkottob.com

ونهض المدرس من مقعده وهو يمسك غليونه المرتفع إلى أعلى بإحدى يديه ، ويدفع أذنه إلى الأمام باليد الأخرى كأنما يريد أن يزداد تمكناً من الإصغاء :

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

وأعاد بير قوله :

— أن أصبح قساً .

ولكنه دار خلف مقعده وهو يتكلم إذ بدا كأن المدرس يمكن أن يلقى بغليونه فى رأسه .

ولكن الوجه الأحمر انفرج فجأة عن ابتسامة ، وأبدى صفاً من الأسنان المخضرة لم ير بير نظيرها من قبل قط . ثم قال بصوت شبيه بنوع من الغناء وهو يومىء : « قس ؟ » أوه ، طبعاً ! مسألة بسيطة جداً ! » ونهض ودار فى الغرفة مرة أو مرتين رائحاً غادياً ، ثم توقف ، وأومأ ، وقال بلهجة أبويه وهو ينظر إلى أحد رفوف الكتب : « هيم ... حقاً ... حقاً ... نحن على شىء قليل من الطموح ، أليس كذلك ؟ »

ودار إلى بير فجأة .

— انظر يا صديقى الصغير ... ألا ترى أن السيد المحسن إليك أسبغ عليك حتى الآن قدراً كبيراً كافياً من كرمه ؟

وقال بير ، وقد بدأ صوته يرتجف قليلا :

— نعم ، إنه فعل ذلك بالتأكيد .

— هناك آلاف من الصبية فى مثل حالك ألقى بهم إلى عرض الحياة بعد إقرار تعميدهم ، وتركوا يتحايلون على معاشهم بأنفسهم دون أن يمد لهم إنسان يد المعونة .

وأجاب بير لاهثاً ، ملتفتاً إلى الباب قسراً عنه :

— نعم .

— لست أدرى ... من ذا الذى استطاع غرس هذه الآراء الطائشة فى ذهنك ؟

www.alkottob.com

واستطاع بير أن يقول بعد جهد :

ـــ هذا هو ما كنت أريده دائماً ... ثم إنه ... أى أبى ..

ـــ من ؟ أبوك ؟... أتقصد أن تقول المحسن إليك ؟

وانفجر بير :

ـــ حسناً ، إنه كان أبى ، أليس كذلك .

وترنح المدرس متراجعاً ، وتساقط على مقعد وهو يحدق فى بير وكأنه يراه شخصاً لا أمل فيه البتة . واستعاد آخر الأمر رشده إلى الحد الذى قال معه :

ـــ انظر يا ولدى ، ألا تظن أنه بوسعك أن ترضى عن تسميته ... الآن وفيما يستقبل من الزمان ... مجرد المحسن إليك ؟ ألا تظن أنه يستحق منك ذلك ؟

وهمس بير ، ودمعه يكاد ينهمر :

ـــ أوه ، نعم .

ـــ أنت تفكر بالطبع ... أنت وأولئك الذين شحنوا ذهنك بهذا الهراء ... فى المبلغ الذى ... هيم ...

ـــ نعم ، أليس هناك حساب جار خاص بى فى صندوق توفير ... ؟

ـــ آها ! ها نحن أولاء بصدد الموضوع !.. نعم ، بالتأكيد .

نعم ، هناك حساب لك فى صندوق توفير أتولى أنا العناية به . ونهض والتقط من أحد الأدراج دفتراً صغيراً ذا غلاف أخضر . ولم يستطع بير أن يتحول ببصره عنه

ـــ ها هو ذا . والمبلغ المرصود لحسابك يبلغ ألفاً وثمانمائة كراون .

تحطمت الآمال ، وأحس بير كأنه سقط مخترقاً أرض الغرفة إلى المخزن السفلى . وتبخرت أحلامه كلها وتحولت إلى هباء ... مبلغ المليون كراون ... القس والأسقف ... كريستيانا ... وما إلى ذلك .

ـــ عند ما يحل اليوم الذى توفق فيه إلى تهيئة مكانة لنفسك بنفسك ، وتصبح صانعاً أو مزارعا أو صائد سمك ... وعند ما يبدو لى ... وهذا متروك لحكمى السليم ... أنك تستحق مثل هذا العون ، فسأضع هذا الدفتر عندئذ ... وعندئذ فقط ... تحت تصرفك ... أتدرك ما أقول ؟

www.alkottob.com

— نعم:

— وأنا على ثقة تمة بأنى فيما قررته من ضرورة بقاء المـال كاملا غير منقوص ، مصوناً عندى حتى ذلك الوقت ، أتفق مع واهبه كل الاتفاق فى رغباته .

وهمس بير :

— نعم .

— ماذا ؟ ... أتبكى ؟

— لا ... لا ... عم صباحا ...

لا — ، أرجـو ألا تنصرف الآن . اجلس فإن هنـاك أمراً أو أمرين ينبغى البت فيهمـا على الفور ... ولا بد لك ، قبل كل شىء ، أن تثق بى يا ولدى الطيب ... أتعتقد أنى أريد بك خيراً ؟ .. أتعتقد ذلك أم لا ؟

— أعتقد ذلك يا سيدى .

— هـل اتفقنا إذن على أنه لابد لك أن تطرد من ذهنك إلى غير رجعة جميع الأوهام الخاصة بذهابك إلى الجامعة وما إلى ذلك ؟

— ف ... نعم ، يا سيدى .

— أنت تستطيع أن ترى بنفسك ، حتى فى حالة افتراض تمتعك بالمؤهلات العقلية ، أن هـذا المبلغ ، برغم كونه ينم عن الكرم فى ذاته ، لا يكفى لتمكينك من قطع شوط بعيد .

ل ... لا يا سيدى .

— ويسرنى من الناحية الأخرى ... إذا أنت رغبت فى ذلك ... أن أرتب لك أمر تدريبك هنا على الصناعة عنـد صانع ماهر ... وسيكون لك هنـاك مسكن مجانى ... وإذا احتجت إلى كسوة فى العام الأول أو ما أشبه ، فلعلى أستطيع أن أقول إنه بوسعى تدبير ذلك . والأفضـل ألا يكون لك مصروف خاص تبعثره هنا وهناك إلا حيثما تستطيع أن تكسبه بنفسك .

وتأوه بير ، وتساقط وهو واقف على قدميه ، وعند ما رأى الدفتر الأخضر الظهر

www.alkottob.com

يوضع فى الدرج ثانية ويغلق عليه ، وسمع صلصلة المفاتيح وهى تعاد إلى جيب الرجل تحت الجلباب ، أحس كأن شخصاً يشير إليه بإصبعه هازئا ويقول : ياه !

— ثم هنالك أمر آخر ... خاص باسمك . ما الاسم الذى خطر لك أن تتسمى به يا ولدى ؟ ... أقصد اللقب .

وأجاب الصبى بالسليقة وهو يعتدل فى وقفته كما فعل عندما ربت الأسقف على رأسه وهو يسأله عن اسمه يوم إقرار تعميده :

— اسمى بير هولم !

وزم المدرس شفتيه ، ونزع عويناته ومسحها وأعادها ، ودار إلى رفوف الكتب وهو يتنهد :

— آه بالتأكيد ! .. نعم ... نعم ... كدت أظن شيئاً يصل إلى هذا الحد .

ثم تقدم ووضع يده برفق على كتف بير :

— يا ولدى العزيز ... هذا مستحيل .

وسرت رعدة فى جسم بير . هل أخطأ ثانية ؟

— انظر يا ولدى ... هل قدرت أنه قد يكون فى هذا البلد ذاته أناس آخرون لهم هذا الاسم ؟

— نعم ... ولكن ...

— مهلك لحظة ... وأنك قد تصادف فى طريقك أولئك الناس ... الآخرين ... وهل قدرت أثر الآلام والأحزان التى ستصيبهم فيما إذا اتضحت ... حسناً ... إذا اتضحت حقيقة الأمر ؟ .. أنظر ؛ إنى أعاملك كما لو كنت رجلا ناضجا ... سيداً مهذبا . وأنا على يقين من أنك لاتريد أن تبتعث حزنا كبيرا ... أن تسدد ضربة قاصمة إلى أرملته ، وإلى أولادها الأبرياء . لا ، لا يا ولدى . ليس هناك شىء يدعو إلى البكاء . إن للحياة ياصديقى الصغير ... إن للحياة مكارها لا مفر من مواجهتها . ما اسم الضيعة أو الدار التى أقمت فيها حتى الآن ؟

— تـ ... ترين

www.alkottob.com

ـــ تروين ... إنه اسم لطيف فعلا ... ستدعو نفسك إذن ، من الآن فصاعداً ، بير تروين .

ـــ نـ ... نعم ، يا سيدى .

ـــ وإذا سألك أحد عن أبيك فلا تنس أن الشرف والضمير يفرضان عليك ألا تذكر اسم من أحسن إليك .

ـــ نـ ... نعم .

ـــ حسناً . عد إلى إذن بمجرد أن تستقر على رأى ، وأنبئنى بما عولت عليه . وسنكون مع ذلك صديقين حميمين ... سترى ... أأنت واثق من أنك لاتود محاولة السفر إلى أمريكا ؟ حسناً ، حسناً ، تعال معى إلى المطبخ لنرى هل نستطيع أن نجد لك طعاماً للفطور .

ووجد بير نفسه بعد لحظة جالساً على مقعد فى المطبخ حيث تصاعدت نكهة القهوة اللذيذة . وقال المدرس ملاطفاً :

ـــ يا بيرتا ، ستجدين طعاماً جيداً هنا الفطور صديقى الصغير ، أليس كذلك ؟

ولوح بيده مودعاً ، وأخذ جوربه المنشور على حبل فوق الموقد ، وتوارى ثانية خلف الباب .

www.alkottob.com

الفصل الرابع

إذا تجول فى شوارع المدينة ، على غير هدى ، فتى من الريف فى ثوبه الأزرق المنسوج محلياً ، وعلى رأسه الأشقر قبعته المستدقة ، فما من أحد يوليه اهتماماً خاصاً . فهو يمضى فى طريقه ، ويحدق فى نوافذ الدكاكين ، واضعاً يديه فى جيوبه ، مردداً صفيره ، ملتفتاً إلى كل شىء حوله ... أو ملتفتاً إلى لا شىء إطلاقاً . وبرغم ذلك قد يبدو كأن عالماً صغيراً تهدم كله فجأة فى ذلك الرأس الفابع تحت القبعة المستدقة. ولعل الفتى يصفر بقوة ليتحاشى البكاء فى الشوارع ويرى الناس دموعه وهو يخطو إلى أحد الجوانب ليتفادى عربة ، ، ويصطدم برجل يسقط سيجاره فى مجرى الماء فيقول غاضباً : «جلف ريفى مرتبك ! ولكنه يمر به ، وفى اللحظة التالية يكون قد نسيه ونسى ما كان منه. بيد أنه على مسافة أبعد قليلا يتدفع كلب كبير من فناء بيت ، ويصطدم لسوء الحظ بامرأة بدينة ، ويوقعها على الرصيف . وإذا الفتى ذو القبعة المستدقة لا يستطيع ، برغم متاعبه كلها ، أن يمنع نفسه من التلوى والقهقهة .

وفى عصر ذلك اليوم جلس بير على أحد الأسوار فى أسفل الحصن ، وأخذ يمضغ ساقا من الحشائش ، ويلوى أطراف أصابعه . ورقدت تحته المدينة والفيورد فى ضوء أكتوبر الرقيق . وتصاعدت إليه ، من خلال الضباب البنى المضيء ، جلبة صادرة من المصانع والميناء ... جلس هناك فى حين كان الديدبان يسير فوق السور الأعلى جيئة وذهاباً وهو يحمل بندقيته على كتفه ... شمالا ... يميناً ... شمالا .

قد تصعد بالتأكيد إلى علو شاهق ، وتسقط إلى هوة سحيقة ، ولا يصيبك برغم ذلك ، أذى شديد ، ما دمت لم تحطم عنقك تحطيما . وبدأ بير يدرك بالتدريج أنه فضلا عما جرى ، لا يزال على قيد الحياة . إذا تألبت الدنيا عليك فهذا أمر سيء حق فيما إذا أمكنك أن تعود إلى شخص تلتمس عنده النصيحة والعطف . ولكن إذا كان جميع الناس المحيطين بك غرباء عنك ، فلن يكون هناك شىء تصنعه إلا أن تجلس ، وتلوى عوداً من القش ، وتفكر قليلا فى أمورك بنفسك . وكانت خواطر بير تتعلق بشىء كريه فى جلباب طويل أخذ دفتر توفيره ، وأغلق عليه الدرج ، وصلصل مفاتيحه فى مواجهته وقال «باه»

www.alkottob.com

ونحاه عن كرسى الأستاذية ، وحاول أن يستهين به ، ويحشره فى حرفة ، ويفرض عليه أن يحمل مكواة طوال حياته ، ويصبح بير تروين « الترزى » . ولكنه لن يقبل ذلك ... وجلس هناك يستجمع قواه ، ويحاول أن يجمع شيئاً من مكان مالم يكن قط فى مسيس الحاجة إليه ، وهو أن يفطن عقله ، وأن تكون له إرادته الخاصة ... يريد شيئاً يجابه العالم الفسيح بأسره ... ماذا يمكن أن يصنع الآن ؟ أحس أنه قد يود العودة قبل كل شىء إلى تروين ، وأن يناقش الأمور مع أبيه وأمه العجوزين . إنهما سيشفقان عليه ويقولان « يا للصبى المسكين ، ويصليان من أجله ... ولكنه يعلم أنهما سيبدآن تصويب النظرات إليه وقت الأكل بعد مرور يوم أو يومين ، وسيتذكران أنه لم يعد هناك أحد الآن ينفق عليه ، والزمن شديد الوطأة هناك لا ، إن تروين ليس مأوى مناسباً له الآن . ولكن ماذا يستطيع أن يصنع إذن ؟ من الواضح أنه ليس بالأمر الهين أن يصبح المرء وحيداً فى العالم .

وبعد قليل وجد نفسه يجلس فى سفح تل إلى جانب جبانة الكاتدرائية ، تحت الأشجار المصفرة ، ويتساءل حالاً عن المكان الذى سيدفن فيه أبوه . ما أكبر الفرق بين أبيه وذلك المدرس ! إن أباه لا يعظ ، ولا يثير ضجة حول الاسم الذى قد يتسمى به ابنه أو لا يتسمى ... لماذا كان لا بد أن يرحل ويموت ؟

كان غريباً أن يفكر فى هذا الرجل الطريف القوى الذى كان يسوى شعر رأسه ولحيته فى عناية بالفرشاة الفضية السطح ... وأن يذكر أنه لا يزال يرقد فى نعشه الآن ، وأنه سيغطى عما قريب بالتراب .

كان الناس يقبلون من فوق التل الآن ، ويدخلون مقابر الكتدرائية ، وارتدى الرجال الثياب السود ، والقبعات العالية اللامعة ... بيد أنه كان هناك أيضاً بعض ضباط يتحلون بالريش والأوشحة . ثم جاءت فرقة الموسيقى العسكرية تحمل أبواقها النحاسية وتسلل بير إلى المقابر مع حشود الناس ، ولكنه ظل على حدة ، ووقف على مسافة غير بعيدة بالقرب من تمثال كبير . وقال لنفسه « لا بد أن تكون هذه جنازة أبى » وانتبه عندئذ من فوره .

واستنتج قائلا إن هؤلاء القادمين من كنيسة الجبانة ، المتجهين إلى المقبرة فى مشية عسكرية ، وهم منقسمون إلى صفين ، لا بد أن يكونوا طلبة المدرسة الحربية . وقد أصبح

www.alkottob.com

المكان الآن ممتلئاً بالناس تماماً . وهناك سيدات يرفعن المناديل إلى عيونهن ، وقد ذهبت سيدة غير صغيرة السن ، تلبس السواد ، إلى المعبد ؛ وكانت تستند إلى ذراع رجل طويل يلبس السترة العسكرية . وقال بير لنفسه « لا بد أن تكون هذه هى زوجة أبى ... وهؤلاء الفتيات اللواتى يلبسن السواد هن أخواتى من أبى ... وهذا الملازم الشاب أخى من أبى أيضاً » ... ما أغرب هذا كله ! وانبعث صوت غناء من الكنيسة . وبعد قليل خرج ستة «جاويشية» يحملون نعشاً تكونت فوقه الأزهار ... «ارفعوا السلاح ! » ووقف الجند فى طابور استعراض ، وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً عسكرياً بطيئاً ، ثم سارت أمام النعش بين صفى الجند ، وتبعها حشد كبير من المعزين . وعادت السيدة المتشحة بالسواد فخرجت من الكنيسة وهى تصعد الزفرات من وراء منديلها ، وتكاد تعجز عن متابعة النعش برغم تعلقها بذراع الضابط الطويل . بيد أنه كان يسير أمامهما ، وراء النعش مباشرة ، رجل مديد القامة يرتدى سترة عسكرية بديعة ، ويتحلى بشرط ذهبية على كتفيه ، وريشة فى قبعته ، وسيف ، ويحمل حشية فوقها نجمان مرصعان بالجواهر . وتحرك صف المعزين الطويل فى بطء وتؤدة ، وهناك ... وهناك إلى جانب القبر وقف الكاهن حاملا معولا .

وكان بير يتلهف على سماع ما قد يقوله الكاهن عن أبيه . واقترب قليلا قسرا عنه برغم شعوره ، على نحو ما ، بأنه لا يجوز له أن يقترب كل الاقتراب .

وعند حافة القبر رتلوا نشيداً صاحبه عزف الفرقة الموسيقية . ورفع بير قبعته عن رأسه ، وكان مشغول البال جداً إلى حد أنه لم يلاحظ وجود شخص بين المعزين يراقبه فى اهتمام . ولم يلبث هذا الشخص أن غادر المجتمعين وأقبل صوبه . كان الرجل يلبس نظارة ، وقبعة عالية لامعة . ولم يعرفه بير إلا عندما عطس . كان هو المدرس ، وقد أخذ يحدق فيه بوجه يفيض استبشاعاً وغضباً إلى حد أن بدا كأن نظارته تقذف لهباً . وهمس فى وجه بير وهو يقبض يديه المكسوتين بقفاز أسود : « أنت ... أنت ... أمجنون أنت ؟ ماذا تصنع هنا ؟ أتريد أن تسبب فاجعة فى هذا اليوم الخطير ؟ اذهب ... ابتعد فى التو ؟ اغرب من هنا ، بالله عليك ، قبل أن يراك أحد » ودار بير ، وهرب وهو يسمع خلفه فى أثناء هروبه ، تهديد الرجل : « إذا أنت تجرأت ثانية ... فى يوم من الأيام ... » وفى هذا الحين كان يبدو أن أصوات أفراد الفرقة التى كان نشيدها يزداد ارتفاعاً ، تجلد ظهره ، وتدفعه إلى الأمام .

www.alkottob.com

وكان قد قطع شوطاً بعيداً إلى قلب المدينة قبل أن يستطيع التوقف ، وتمالك جأشه وهناك أمر واضح له ... وهو أنه لن يستطيع أبداً ، بعد الذى حدث ، أن يواجه ذلك المدرس ... لقد ضاع كل شىء ، أيستطيع حتى أن يتأكد من أن ما ارتكبه ليس بالخطأ الجسيم الذى قد يستحق السجن بسببه ؟

وفى اليوم التالى كانت أسرة تروين تجلس للغداء عندما نظر الابن الأكبر من النافذة وقال : « ها هو ذا بير مقبل » .

وصاحت الزوجة الطيبة عند دخوله :

ـــ رحمة بنا ! ما الأمر يا بير ؟ أ أنت مريض ؟

آه ، لقد طاب له فى تلك الليلة أن يدلف مرة أخرى إلى فراشه تحت غطائه الجلدى الغليظ ... وجلست الأم العجوز إلى جانب فراشه ، وحدثته عن الخالق على سبيل مواساته . وشد بير قبضته تحت غطائه ، ورأى وقتئذ ، على نحو ما ، أن الله يقسو عليه . ومع ذلك وجد ، على أية حال ، بعض العزاء فى جلوس المرأة العجوز الطيبة هناك ، وفى تحدثها إليه .

وكان على بير أن يتحمل الكثير فى الأيام التالية ، فقد كثر الضحك عليه والهمس كلما مر بالصبية : « انظروا ، ها هو ذا القسيس . » وكان وهو جالس إلى مائدة الطعام يشعر بالخجل عند تناول كل لقمة . وراح يتصيد عملا كاشتغاله فى المزارع النائية أجيراً يومياً حتى يربح القليل الذى يساعد على دفع شىء نظير إقامته . وعندما حل الشتاء كان عليه أن يحذو حذو الآخرين ، ويؤجر نفسه للصيد فى لوفوتن ، وهو على ما هو عليه من صغر السن والحجم .

ولكن كلاوس بروك انتحى به فى أحد الأيام ناحية بعد الخروج من الكنيسة ، وحمله على الإفضاء بما حدث تفصيلا . وقال له أولا إنه سيرحل هو نفسه وسيبدأ العمل فى مصنع تكنيكى فى المدينة ، ثم ينتقل منه إلى كلية تكنيكية يتخرج فيها مهندساً ، وأراد ثانياً أن يعرف من بير الحقيقة الكاملة لما حدث له فى ذاك اليوم بالمدينة ذلك أن الناس عندما راحوا يضربون ركبهم بأكفهم ، ويهزأون من الصبى الذى أراد أن يصبح قساً فظهر أنه متسول ... شعر كلاوس بميل إلى أن يوسعهم جميعاً لطماً ولكماً .

www.alkottob.com

وعلى ذلك راح الغلامان اللذان لم يتجاوزا السادسة عشرة ... راحا يتجولان ذهاباً وإياباً وهما يتحدثان . وفيما تلا ذلك من العمر لم ينس بير قط كيف أيده الآن شريكه المتواطىء معه يوم صيد سمكة القرش . وألح كلاوس في سؤاله : « اصنع مثلي ... إنك الآن تكاد تكون جزءاً من حداد يا رجل ، التحق بمصنع ، وذاكر في أوقات فراغك استعداداً لتأدية امتحان القبول في الكلية التكنيكية . وبعد ذلك تقضي ثلاث سنوات في الجامعة — ومبلغ الألف والثمانمائة كروان يكفي لتغطية نفقات ذلك — ثم إذا بك تصبح مهندساً ... دون أن تحتاج حتى إلى اقتراض نصف قرش من أحد » .

وهز بير رأسه . كان متيقناً من أنه لن يجرؤ على مواجهة ذلك المدرس ثانية ، بله مطالبته بنقود صندوق التوفير ... لا ، لقد قضي الأمر ، وانتهى تماماً بالنسبة له .

« ولكن ، ليتول الأمر الشيطان ، يا رجل ... سترى ، دون ريب ، أن هذا المدرس القرد لن يجرؤ على صدك عن نقودك دعني أذهب معك . سنتوجه إليه معاً ، ونتمكن منه سوياً ، وعندئذ ... عندئذ سترى . »

وشد كلاوس على قبضته ، ودفع إحدى كتفيه إلى الأمام بعنف .

ولكن بير ، عندما حل شهر يناير ، كان يقف في معطفه المشمع ، على سطح مقدمة قارب من قوارب صيد لوفوتن ، يشق به طريق بحر الشمال الطويل إلى مناطق الصيد وسط الجليد والعواصف الثلجية ، وقضى الشتاء بطوله وهو يعيش عيشة الصيادين . فهو على اليابسة يعيش في كوخ من أكواخ الصيد الصغيرة ، حيث يحشر خمسة من الملاحين كالسردين في هواء تستطيع أن تقطعه بسكين لكثافته ... وفي البحر يعيش حيث يقضي المرء نصف يوم في مهب ريح عاتية ، ولا يصنع شيئاً في أثناء ذلك إلا أن يتجمد من البرد ... والريح العاتية تعني أن يخرج المرء المجاذيف ... وأنت يجذف ، ويجذف عبر سطح من قطع الثلج المتدحرجة لا نهاية له ... ويجذف ، ويجذف حتى تتحول يداه إلى قطع من اللحم الدامي . وعاش بير خلال ذلك كله ، وكان يفكر بين حين وحين ، إذا ما استطاع أن يفكر في شيء ما ... كيف أن علية القوم دفعوا به إلى هذه الحياة لأنه كان وقحاً إلى حد وجوده فيها . وعندما انقضت الأسابيع الأربعة

www.alkottob.com

عشرة ، ورست على شاطىء الفيورد من جـديد ، فى يوم معتدل من أيام الربيع ، قوارب صيد لوفوتن ، سهل على بير أن يحسب الأجر الذى كسبه ، وكان لاشىء فى حقيقة الأمر . فقد كان مضطراً إلى اقتراض لشراء زاده ومؤونته ، وإنه ليكون حسن الحظ إذا كان أجره — وهو أجر صبي — يكفى لسداد ما هو مدين به .

وبعد مرور بضعة أسابيع وقف صبي على باب فناء مصنع هندسى بالمدينة ، وكان الجرس وقتئذ يدق ، والعمال يخرجون متدفقين من المصنع . وسأل الصبي عن كلاوس بروك

« هالو ، يا بير ... أهذا أنت ؟ هل ذهبت إلى لوفوتن وكسبت المال الوفير ؟ »

ووقف الغلامان برهة يتبادلان الأخبار ... وكان كلاوس قذر الوجه فى ثياب العمل ، فى حين لوح الجو وجه بير ، ودبغته العواصف ورشاش ماء البحر .

وكان مدير المصنع هو عم كلاوس . وقد جاء إليه ابن أخيه فى مكتبه ، عصر ذلك اليوم نفسه ، ومعه عامل جديد مطلوب التحاقه بالمصنع تحت التمرين . وقال عنه إن له خبرة سابقة فى أعمال الحدادة . وألحق الصبي بالعمل من فوره نظير أجر قدره قرهان فى الساعة الواحدة .

« وما اسمك ؟ » .

« بـ ... بير » .

والتصق باقى الاسم بحلقه ... وأضاف كلاوس :

« هولم » .

« بير هولم ؟ حسناً جداً . يكفى . »

وخرج الغلامان وهما يحسان كأنهما أقدما على أمر أقرب أن يكون خطيراً . بيد أنه إذا نشأت عن ذلك متاعب فى المستقبل ، فسيكونان الآن اثنين يتصديان لمعالجته .

www.alkottob.com

وعلى ذلك راح الغلامان اللذان لم يتجاوزا السادسة عشرة ... راحا يتجولان ذهاباً وإياباً وهما يتحدثان . وفيما تلا ذلك من العمر لم ينس بير قط كيف أيده الآن شريكه المتواطىء معه يوم صيد سمكة القرش . وألح كلاوس في سؤاله : « اصنع مثلي ... إنك الآن تكاد تكون جزءاً من حداد يا رجل ، التحق بمصنع ، وذاكر في أوقات فراغك استعداداً لتأدية امتحان القبول في الكلية التكنيكية . وبعد ذلك تقضي ثلاث سنوات في الجامعة — ومبلغ الألف والثمانمائة كروان يكفي لتغطية نفقات ذلك — ثم إذا بك تصبح مهندساً ... دون أن تحتاج حتى إلى اقتراض نصف قرش من أحد » .

وهز بير رأسه . كان متيقناً من أنه لن يجرؤ على مواجهة ذلك المدرس ثانية ، بله مطالبته بنقود صندوق التوفير ... لا ، لقد قضي الأمر ، وانتهى تماماً بالنسبة له .

« ولكن ، ليتول الأمر الشيطان ، يا رجل ... سترى ، دون ريب ، أن هذا المدرس القرد لن يجرؤ على صدك عن نقودك دعني أذهب معك . سنتوجه إليه معاً ، ونتمكن منه سوياً ، وعندئذ ... عندئذ سترى . »

وشد كلاوس على قبضته ، ودفع إحدى كتفيه إلى الأمام بعنف .

ولكن بير ، عندما حل شهر يناير ، كان يقف في معطفه المشمع ، على سطح مقدمة قارب من قوارب صيد لوفوتن ، يشق به طريق بحر الشمال الطويل إلى مناطق الصيد وسط الجليد والعواصف الثلجية ، وقضى الشتاء بطوله وهو يعيش عيشة الصيادين . فهو على اليابسة يعيش في كوخ من أكواخ الصيد الصغيرة ، حيث يحشر خمسة من الملاحين كالسردين في هواء تستطيع أن تقطعه بسكين لكثافته ... وفي البحر يعيش حيث يقضي المرء نصف يوم في مهب ريح عاتية ، ولا يصنع شيئاً في أثناء ذلك إلا أن يتجمد من البرد ... والريح العاتية تعني أن يخرج المرء المجاذيف ... وأن يجذف ، ويجذف عبر سطح من قطع الثلج المتدحرجة لا نهاية له ... ويجذف ، ويجذف حتى تتحول يداه إلى قطع من اللحم الدامي . وعاش بير خلال ذلك كله ، وكان يفكر بين حين وحين ، إذا ما استطاع أن يفكر في شيء ما ... كيف أن علية القوم دفعوا به إلى هذه الحياة لأنه كان وقحاً إلى حد وجوده فيها . وعندما انقضت الأسابيع الأربعة

www.alkottob.com

عشرة ، ورست على شاطىء الفيورد من جديد ، فى يوم معتدل من أيام الربيع ، قوارب صيد لوفوتن ، سهل على بير أن يحسب الأجر الذى كسبه ، وكان لاشىء فى حقيقة الأمر . فقد كان مضطراً إلى اقتراض لشراء زاده ومؤونته ، وإنه ليكون حسن الحظ إذا كان أجره — وهو أجر صبى — يكفى لسداد ما هو مدين به .

وبعد مرور بضعة أسابيع وقف صبى على باب فناء مصنع هندسى بالمدينة ، وكان الجرس وقتئذ يدق ، والعمال يخرجون متدفقين من المصنع . وسأل الصبى عن كلاوس بروك

« هالو ، يا بير ... أهذا أنت ؟ هل ذهبت إلى لوفوتن وكسبت المال الوفير ؟ »

ووقف الغلامان برهة يتبادلان الأخبار ... وكان كلاوس قذر الوجه فى ثياب العمل ، فى حين لوح الجو وجه بير ، ودبغته العواصف ورشاش ماء البحر .

وكان مدير المصنع هو عم كلاوس . وقد جاء إليه ابن أخيه فى مكتبه ، عصر ذلك اليوم نفسه ، ومعه عامل جديد مطلوب التحاقه بالمصنع تحت التمرين . وقال عنه إن له خبرة سابقة فى أعمال الحدادة . وألحق الصبى بالعمل من فوره نظير أجر قدره قرهان فى الساعة الواحدة .

« وما اسمك ؟ » .

« بـ ... ـير » .

والتصق باقى الاسم بحلقه ... وأضاف كلاوس :

« هولم » .

« بير هولم ؟ حسناً جداً . يكفى . »

وخرج الغلامان وهما يحسان كأنهما أقدما على أمر أقرب أن يكون خطيراً . بيد أنه إذا نشأت عن ذلك متاعب فى المستقبل ، فسيكونان الآن اثنين يتصديان لمعالجته .

www.alkottob.com

الفصل الخامس

فى زقاق ضيق ، على مسافة من « شارع البحر » ، أقام « جورسيث » ، مؤجر العربات والجياد ، مع أسرة تتكون من زوجة نحيلة عجفاء ، وحصانين نصف ميتين جوعاً ، وعربات وزحافات أبلاها القدم . وكان هو نفسه سكيراً كسولا ، ذا أنف أحمر وعينين صفراوين فى لون الجعة ، ينفق لياليه فى الشراب ، ويعود إلى بيته فى الساعات الأولى من النهار عندما تكون زوجته قد أوشكت أن تستيقظ . وكانت الزوجة تتجول فى أنحاء البيت طوال الصباح وهى تعنفه ، وترغى فى وجهه وتزبد ، قائلة إن السكير لا يحسن عملا أبداً ، فى حين أنه كان يرقد مستريحاً وهو يغط فى نومه .

وعندما وصل بير إلى ساحة هذا المسرح ، حاملا صندوقه على كتفيه ، كان جورسيث يجثو على ركبتيه فى الحديقة ، ويشحم قطعتين من جلود العربات ، فى حين كانت زوجته تقف على باب المطبخ مدلاة الشفة ، عنيفة النظرة ، وتسبه ناعتة إياه بأنه سفيه خنزير ، وهباء من تراب . وكان جورسيث ينكفىء هناك على أربع ، والشمس تلمع فوق صلعته والشحم يلوثه . ولكنه كان يرفع رأسه كل حين وحين ويزمجر صائحاً :

« أطبق شدقيك أيتها العاهرة العجوز اللعينة ! »

وسأله بير :

ـ أعندك غرفة للإيجار ؟

ودار صوب الفتى أنف سكير ، ونهض الرجل متثاقلا ، ومسح يديه فى سرواله وقال :

نعم ، عندى .

وقاده عبر الفناء ، وصعد به بضع درجات إلى غرفة صغيرة لها نافذتان زجاجيتان تطلان على الشارع ، ونافذة ضيقة تطل على الفناء ، وكان بها فراش مغطى بأغطية تيلية ، وبضعة مقاعد ، ومنضدة قائمة أمام النافذة الضيقة : « قيمة الإيجار ستة وستة شهرياً . » « موافق . » واستأجرها بير من فوره ، ودفع قيمة إيجار الشهر الأول ،

www.alkottob.com

وبعد أن تخلص من الرجل جلس فوق صندوقه ، وجال ببصره فيما حوله . هناك أناس كثيرون لم تظلل رؤوسهم أسقف قط ، ولكن ها هو ذا يبر له هنا بيت خاص به وحده . وبدأت المرأة فى الفناء خارج الغرفة ، تنبح بسبابها من جديد ، وكان الحصانان فى « الاسطبل » ، تحت الغرفة ، يضربان فى الأرض بأرجلهما ويصهلان . ولكن بير سبق له أن أقام فى أكواخ صائدى السمك ، وفى دور الفلاحين ، وعلى ذلك لم يكن يدقق كثيراً فى مثل هذه الأمور . وهو ينزل هنا ، لأول مرة فى حياته ، بمكان خاص به وحده ، وهو بين جدرانه سيد البيت ، وسيد نفسه .

وكان الطعام هو الأمر الثانى . وخرج واشترى زاده ، وملأ صندوقه بأطعمة ريفية بسيطة . وكان وقت الغداء يجلس على غطاء الصندوق ، كما يفعل الصيادون ، ويأكل وجبة طيبة مشبعة من فطير مفطلح ولحم خنزير مقدد .

وانهمك الآن فى عمله الجديد . ولم يعد موضع سؤال أهذا العمل هو ما يرغب فيه أم لا . لقد أتيحت له هنا فرصة الصعود فى مدارج الحياة ، وذلك دون أن يستجدى الإذن من أحد . وقد اعتزم أن يمضى قدماً . ولم يمر عليه زمن طويل قبل أن تتخذ أحلامه شكلا جديداً مستمداً من حياته الجديدة . إنه يقف فى أسفل السلم بحسبانه صبى حداد ... ولكن هناك فى أعلى السلم يجلس رئيس المهندسين القدير لابساً نظارته وصدريريته البيضاء . هذا هو المكان الذى سيتربع فيه يوماً ما . وإذا جاءه أى مدرس ، وحاول فى هذه المرة أن يصده عن ذلك ، فدعه يحاول ... لقد أخرجوه مرة من جبانة الكنيسة ، وسيأخذ بثأره فى يوم من الأيام . وقد يستغرق منه ذلك سنوات وسنوات ، ولكنه سيصبح فى يوم مأمول مثل أفضل واحد فيهم ، وسيرد لهم عندئذ الصاع صاعين .

وفى الصباح المنتشر الضباب كان يمضى إلى عمله ، حاملا بيده سلة غدائه ، وتبدو قدماه وهما تطآن ألواح الجسر الخشبية كأنهما تطرقانها طرقاً بعزيمة مركزة : « اليوم سأتعلم شيئاً جديداً ... جديداً ... جديداً ! »

إن الصناعات الكبرى هناك فى الميناء — من ترسانات ومسابك وآلات صناعية — هى فى ذاتها مدينة بأسرها . وفى وسط هذا العالم — عالم النار والدخان ، والحديد

www.alkottob.com

المتوهج ، والمطارق البخارية ، والعجلات السريعة الدوران ، والضوضاء والجلبة . كان بير يشق طريقه ، مصمماً على شيء واحد هو أن يتعلم ويتعلم ، ولا يكف عن التعلم أبداً وكان هناك حواليه عمال كثيرون يقنعون بأن يصرفوا أمورهم في الركن الصغير الذي يقفون عنده ... ولكن هؤلاء لن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام أبداً، وسيختتمون حياتهم وهم عمال مضعضعو القوى ... في حين هو مصمم على شق طريقه حتى يقف في مصاف السادة . وكان عليه أول الأمر أن ينفق بضعة شهور في العمل بقسم الحدادة ثم ينتقل إلى المصانع، ثم يعمل مع النجارين والرسامين ، ثم يعمل آخر الأمر في ترسانة السفن . وسيستغرق الأمر كله بضع سنوات ، ولكن أقسام المصانع وما حوت أصبحت منذ الآن عنده الكتاب المقدس ، فهي الكتاب الأكبر الذي عليه أن يحفظه عن ظهر قلب ... وما عليك إلا أن تنتظر !

وياله من مكان يتسع للمغامرات الجديدة ! وكم من مرة وجد نفسه ينظر إلى أعجوبة جديدة ؛ مجرد معجزة أو رؤيا سماوية ... بيد أنها ليست إلا من اختراع الإنسان ... اضغط زراً وانظر تجد معجزة تحققت ، وإنه كان يحدق في الأشياء ، وتحمله سلسلة تعلم أسرارها على البقاء في بعض الأحيان ساهراً طوال الليل . إن هناك شيئاً وراء ذلك ، شيئاً لا بد أن يكون موجوداً ... هو روح ، وإن لم يكن روحاً دينياً . إن هؤلاء المهندسين كهنة من نوع ما ، وإن كانوا لا يعظون أو يصلون ... إن هذا العالم جديد .

وفي أحد الأيام نيط به أن « يبرشم » المسامير في مرجل هائل . ووجد نفسه ، لأول مرة ، مدفوعاً إلى العمل بقوة غير قوة يديه . كانت هذه القوة أنبوبة ملأى بهواء مضغوط يدفع المسامير إلى مواضعها في تتابع سريع ، وتنبعث من المرجل ولولة مقعقعة تتردد أصداؤها في أرجاء المدينة . وأوجعت الضوضاء رأس بير وأذنيه ، ولكنه كان يبتسم برغم ذلك . لقد اعتاد أن يتعب نفسه وهو منهوك الجسد ، إنه يقف هنا أستاذاً ... إنه عبارة عن عقل وروح وإرادة موجودة . لقد شعر بذلك الآن لأول مرة فأجرى هذا الشعور في كل عرق من عروقه رجفة الانتصار .

ولكنه كان يقضي الليالي الطويلة وحده وهو يقرأ ويقرأ ، ويسمع ضرب الخيول بأقدامهم في الاسطبل تحته . ولم يكن يزعجه هنالك، عندما يتسلل إلى فراشة بعد منتصف

www.alkottob.com

الليل بكثير ، إلا شيئا واحداً هو شعوره بالوحدة التامة ، فإن كلاوس بروك يعيش مع عمه في بيت جميل ، ويحضر الحفلات ، في حين يرقد هو هنا منفرداً . ولو حدث أن مات في هذه الليلة نفسها ، فمن الصعب أن يحضر إنسان يهتم به . كان وحيداً تماماً . . . في عالم غريب غير مكترث .

وكان يخفف ما به قليلا في بعض الأحيان تذكره لأمه العجوز في بيت تروين ، ولكنيسة بلدته حيث يعلو سقفها المكور الذي حلق عالياً فوق نغمات الأرغن المرتفعة إليه ، وحيث بدت الوجوه جميعها رائعة الجمال . ولكن صلاته المسائية لم تعد كسابق عهده بها . فليس ثمة أسقف أشيب يجلس في أعلى السلم الذي ما اعتزم أن يصعد فيه . إن رئيس المهندسين الذي يجلس هناك الآن لا شأن له بالسماء وبالحياة الآخرة . ولن يذهب بير الآن بعيداً إلى الحد الذي يستطيع عنده النزول إلى موطن العذاب حيث ترقد أمه ، والصعود بها ثانية إلى موطن الخلاص . ومهما تكن القوة والقدرة اللتان سيحققهما فهو لن يستطيع أبداً أن يقف في أمسيات الخريف ، ويرفع إصبعه إلى أعلى . ويجعل النجوم جميعها تسترسل في الغناء .

هناك شيء مضى وانقضى بالنسبة لبير . فهو كأنه يجذف مبتعداً عن شاطىء تتعلق فوق سمائه سحب حمر ، ويمتلىء جوه برؤى كرؤى الأحلام . . . يجذف مبتعداً مبتعداً صوب شيء جديد كل الجدة . إن قوة أشد من قوته شاءت ذلك .

وفي يوم أحد انفتح عليه الباب وهو يقرأ ، ودخل كلاوس مصفراً واضعاً قبعته في مؤخرة رأسه .

— هالوا يا صديقي ! أهذا إذن هو المكان الذي تقيم فيه ؟

— نعم هو ذاك . وهاك مقعداً لك هناك .

ولكن كلاوس ظل واقفاً ، واضعاً يديه في جيوبه ، محتفظاً بقبعته فوق رأسه ، محدقاً في أرجاء الغرفة . ثم قال آخر الأمر :

— إني كنت أسر لو لم تضع صورتك الفوتوغرافية على المنضدة !

— عجباً ، ألم تر صورة فوتوغرافية من قبل ؟ ألا تعلم أن الناس جميعاً لهم مثل هذه الصور ؟

www.alkottob.com

— ولـكنهم لا يعرضون صورهم يا حيوان ! . . لو أن أحداً رآك تفعل ذلك لما عرفت ماذا يكون مصيرك .

وأخذ بير الصورة وألقى بها تحت الفراش ، فمن الواضح أنه ارتكب خطأ . . . وقال مغمغما :

— حسناً ، إنها كانت من سقط المتاع . ولـكن ، ما رأيك فى هذه ؟

وأشار إلى صورة ملونة كان قد سمرها فى الحائط .

واتخذ كلاوس هيئة بلغت غاية الجد ، وعض على قطعة من الطباق حشا بها فمه ، وقال وهو يحاول ألا يسارع إلى الضحك :

— آه ! هذه !

— نعم ، إنها متقنة الرسم ، أليس كذلك ؟ إنى اشتريتها بأربعة قروش .

— رسم ! ها ها ! هذا حسن ! ما هذا يا أبله ! ألا ترى أنهـا ليست إلا نسخة مطبوعة من صورة زيتية ؟

— أوه ، أنت تعرف كل شىء عن ذلك بالطبع . وكنت تلم بمثل ذلك دائماً .

وقال كلاوس :

— سأصطحبك يوماً إلى متحف الفن ، وستستطيع عنـدئذ أن ترى كيف يبدو الفن الحقيقى . وماذا عندك هناك ؟ . . كتاب المطالعة الإنجليزية ؟

وقال بير فى لهفة :

— نعم : دعنى أسمعك قصيدة .

وبدأ إلقاء القصيدة قبل أن يتمكن كلاوس من الاعتراض .

وعندما أتم إلقاءها جلس كلاوس فترة من الزمن صامتاً يمضغ قطعة التبغ . وقال أخيراً :

— هيم ! إذا تيسر لفروكن زيبلين ، آخر مدرساتنا ، أن تسمع لغتك الإنجليزية هذه ، لاضطررنا أن نأتى لها بممرضة ، وويل لنا إن لم نفعل .

www.alkottob.com

لقد زاد الأمر عن الحد ... وألقى بير بالكتاب عرض الحائط وطلب إلى صاحبه أن ينصرف ويذهب إلى الشيطان . وقال كلاوس عندما استطاع أن يجد فرصة للكلام :

— إذا كنت ستؤدى امتحان القبول للكلية التكنيكية فلا بد أن تتلقى دروساً خصوصية ... وهذا لا يخفى عليك بالتأكيد ... لا بد لك أن تظفر بمدرس .

— يسهل عليك أن تتحدث عن المدرسين ! دعنى أقل لك إن مرتبى يبلغ قرشين فى الساعة .

— سأجد لك مدرساً يعطيك كل أسبوع درسين فى اللغات والتاريخ والحساب . ولعل تلميذاً مفلساً سكيراً يرضى أن يتقاضى سبعة قروش عن كل حصة . وفى وسعك بالتأكيد أن تتمكن من دفع هذا المبلغ .

وهدأ بير الآن ، وفكر قليلا :

— حسناً ... إذا أقلعت عن أكل الزبد ، وشربت الماء بدل القهوة ...

وضحك كلاوس ، ولكن دمعت عيناه . فمن سوء الحظ أنه لا يستطيع إقراض رفيقه إلا بضعة شلنات ، ولكن هذا المبلغ لا يغنى . وعلى هذا النحو انسلخ الصيف . وكان بير يرقب الشباب وهم فى طريقهم صباحاً إلى الريف ليقضوا هناك نهارهم متجولين بين الحقول والغابات فى حين هو منكب فى غرفته على المكتب . وكان فى المساء يلصق وجهه بنافذته ذات اللوحين الزجاجيين المطلين على الشارع ، ويرى الفتيان والفتيات وهم يعودون متوردى الوجوه صائحين ، وقد تزينت قبعاتهم بالأزهار والأغصان الخضر وسلبت لبهم أشعة الشمس والهواء الطلق فى حين عليه هو أن يظل جالساً ، ويواصل القراءة . ولكنه فى الخريف ، عندما تحل الليالى الطويلة ، كان يخرج ليتمشى فى الشوارع قبل أن يأوى إلى فراشه . ولم يكن يواصل السير ، فى الغالب ، حتى البيت الخشبى الأبيض الذى يقطن فيه مدير المصنع ... كان هذا هو بيت كلاوس ... نوافذه مضاءة ، والموسيقى تتردد فيه غالباً . والسعداء الذين يعيشون هنا يعرفون ويستطيعون ممارسة مختلف أنواع الأمور التى لا يتيسر تعلمها من الكتب أبداً .

www.alkottob.com

ولا مراء في أن أمامه طريقاً طيباً عليه أن يسلكه . . . طريقاً طويلا طويلا . ولكنه مصمم على الوصول .

وحدث ذات يوم أن ذكر كلاوس عرضاً أين تقيم أرملة الكولونيل هولم . وفي ساعة متأخرة من إحدى الأمسيات اتخذ بير طريقه إلى هناك ، واقترب من المنزل على حذر . وكان ذلك البيت يقع في شارع البحر ، ويكاد يختفي بين مجموعة من الأشجار الكبيرة . ووقف بير هناك متكئاً على سور الحديقة ، مرتجفاً بتأثير عاطفة غامضة . وكانت صفوف النوافذ في كلا الدورين مضاءة . واستطاع أن يسمع في الداخل ضحكات يرددها الشباب . ثم صوت فتاة تغني . . . لا شك أنهم يقيمون حفلة . ورفع بير طوق سترته ليتقي البرد ، ومضى على قدميه خلال المدينة إلى مسكنه فوق اسطبل سائق العربات .

إن ليلة السبت أشبه بليلة عيد عند الفتى العامل الذي يكابد الوحدة ، فهو يسمح لنفسه باغتسال إضافي ، ويخرج ملابسه الداخلية النظيفة من صندوقه ، ويستبدل بها ملابسه المتسخة . وكانت رائحة تلك الملابس الداخلية ، المغسولة حديثاً ، تبعث بقوة ذكرى امرأة عجوز ، مملوءة الوجه بالبشر ، اعتادت أن تحوكها وترفوها ، وتحفظها مطوية في عناية . . . كان يلبسها عندئذ باهتمام وهو يكاد يحس كأن يوم الأحد قد حل فعلا .

وعندما يبدو له يوم الأحد ، بين حين وحين ، طويلا جداً ، كان بير يسرع إلى أقرب كنيسة . ولا شك أن كل ما يقوله الكاهن طيب جداً ، ولكن بير لم يكن ينصت إليه ، فليس لشيء وجود في نظره إلا الأناشيد والأرغن ، والسقف العالي المكور ، والنوافذ الملونة . والوجوه هنا أيضاً تبدو مختلفة عما تبدو عليه في الشارع خارج الكنيسة ، فهي كأنما مسها شيء مما تطمح خواطر أصحابها إلى بلوغه . ما أشبه هذا المكان بموطنه ، بل لقد شعر بير حتى بنوع من القرابة تربط بهم جميعاً ، برغم أن كل فرد هناك كان غريباً عنه تماماً .

ولكن حدث لدهشته في يوم ما ، آخر الأمر ، أن همس صوت في صدره يقول ، والنشيد في منتصفه : « عليك أن تكتب لأختك ؛ فهي تعاني في الحياة وحدة كوحدتك » .

www.alkottob.com

وجلس بير ذات ليلة وكتب . . . واتخذ لهجة متعالية تماماً قائلا إنها إذا كانت فى حاجة لأى عون فما عليها إلا أن تنبئه بذلك . وإذا كان يهمها أن تأتى وتسكن فى المدينة ففى وسعها أن تحضر وتقيم معه . وهو يعد أخوها الودود ، بير هولم ، المهندس تحت التمرين .

وورد خطاب بعد بضعة أيام مكتوب بخط جميل مائل . لقد تم إقرار تعميد لويز توآ . والفلاح الذى تقيم عنده يرغب فى بقائها معه لتعمل حلابة خلال فصل الشتاء . ولكنها تخشى أن يكون هذا العمل مرهقاً جداً لها ، وعلى هذا ستحضر إلى المدينة على ظهر السفينة التى تصل ليلة الأحد . ودمت لأختك لويز هاجن .

وجزع بير نوعاً ، وبدا أنه وضع حملا ثقيلا على كتفيه .

وفى ليلة الأحد ارتدى سترته الزرقاء ، وقبعته القوقاة ، وانحدر إلى رصيف الميناء . ولأول مرة فى حياته كان له شخص آخر يرعاه — وعليه من الآن فصاعداً أن يكون أباً ومحسناً لمن هو أسوأ منه حالا . إن هذا شىء جديد وعاودته ذكرى السيد المهذب الظريف الذى جاء فى عربته إلى تروين فى يوم من الأيام ليرعى أمر ابنه نعم هذه هى طريقة معالجة الأمور ؛ وهذا هو الرجل الذى لا بد أن يكون مثيله . . واتخذ بير ، من حيث لا يقصد ، شيئاً من نظرة أبيه ومشيته وابتسامته ، وهيئته المندفعة غير المبالية ، وبدا كأنه يقول لنفسه : « حسناً ، حسناً . . . حسناً ، حسناً . . . حسناً ، حسناً . » ولعله كاد يتصور أن له لحية رمادية أنيقة تكسو ذقنه .

ودارت السفينة البخارية الخضراء الصغيرة حول رأس الأرض ، وألقت مراسيها عند الرصيف ، ومدت معابرها ، وقفز اليها الحمالون ، وخرج المسافرون إلى الشط يحملون صررهم ، وتساءل بير كيف يتاح له أن يعرف تلك الأخت التى لم يرها قط .

ولم يلبث الحشد المجتمع على ظهر السفينة أن خف زحامه ، وأخذ الناس ينصرفون من رصيف الميناء إلى المدينة .

ثم قطن بير إلى فتاة قروية صغيرة تحمل صندوقاً بإحدى يديها ، وغلافا باليد الأخرى . كانت ترتدى ثوباً رمادياً ، وتغطى شعرها الأصفر بمنديل رأس أسود وكان وجهها شاحباً جميل القسمات . . . كوجه أمه إذ هى فى السادسة عشرة . وإذا الفتاة

www.alkottob.com

تلتفت الآن فيما حولها ، وإذا عيناها تستقران الآن عليه فى شىء من الخوف ، وشىء من التساؤل :

— أهذا أنت يا لويز ؟

— أهذا أنت يا بير ؟

ووقفا كلاهما لحظة يبتسمان ، ويفحص كل منهما الآخر بعينيه ، ثم تصافحا .

وحملا معاً الصندوق ، واخترقا به المدينة . وكان بير قد أصبح الآن شبيهاً جداً بسكان المدن إلى حد أنه شعر بشىء قليل من الخجل حينما وجد نفسه يجتاز الشوارع حاملا صندوقاً من أحد طرفيه فى حين تحمل فتاة قروية طرفه الآخر ... وأية قمقمة أحدثها حذاؤها الغليظ وهو يصطدم ببلاط الشارع ! ولكنه كان يشعر طوال الوقت بخجل من خجله . ماذا كانت تقول عيناها الزرقاوان الماكرتان اللتان لم تكفا عن النظر إليه ؟ إنهما كانتا تقولان : « نعم ، لقد جئت . » وظلتا تقولان : « وليس لى أحد فى هذه الدنيا سواك ... وهأنذا هنا . »

وسألها وهو يلقى نظرة على علبة الكمان :

— أتستطيعين العزف على هذه الآلة ؟

وضحكت الفتاة :

— أوه ، حسناً ... ليس عزفى إلا عبثاً .

وأخبرته كيف أن خادم الكنيسة الهرم الذى كانت تعيش عنده أخيراً لم يستطع أن يهبها ثوباً جديداً فى يوم إقرار تعميدها فأعطاها الكمان بدلا عنه .

— ألم يكن لديك إذن ثوب جديد يوم إقرار تعميدك ؟

— لا .

— ولكن ، ألم يكن ذلك ... ألم تشعرى بأنك بشعة بين سائر الفتيات الواقفات إلى جوارك وهن فى لباس حسن ؟

وأغمضت عينيها لحظة ، ثم قالت :

www.alkottob.com

ـــ أوه ، نعم ... كان ذلك بشعا :

وسألته بعد قليل :

ـــ هل سكنت عند أناس عديدين؟

ـــ سكنت فى خمسة بيوت على ما أظن .

ـــ يوه ... إن هـذا لا يعد شيئاً ... فأنا نزلت فى تسعة بيوت ، تسعة بيوت ، وكانت الفتاة قد عادت إلى الابتسام .

وعنـد ما وصلا إلى غرفته وقفت الفتاة لحظة تنظر فيما حولهـا . وكانت الغرفة لا تكاد تشبه ما توقعته ... وهى لم تنزل من قبل قط فى بيت بالمدينة ، فالتوى أنفها إلى أعلى قليلا عند ما استنشقت هواء الغرفة المحتبس . وبدا لها الجو مكتوماً جداً ، ومظلماً جداً ... وقالت :

ـــ سنضيء مصباحاً .

ولم تلبث أن ابتسمت فى شيء من الخجل ، وسألته أين تنام .

وحك بير رأسه وقال :

ليتداركنا الله برحمتـه ... فى وسعك أن تسألى ! بيد أنك ترين أن ليس هنا إلا سرير واحد .

وما قال ذلك حتى انفجرا كلاهما ضاحـكين ... واقترحت الفتاة :

ـــ على واحد منا أن يفترش الأرض .

وقال بير مسروراً :

ـــ تماماً . هـذا هو الرأى الصحيح . لدى وسادتان تستطيعين أن تأخـذى إحداها . ولدى غطاءان صوفيان ... إنك لن تبردى على أية حال .

وقالت الفتاة :

ـــ ثم إنى أستطيع أن ألبس ثوبى الآخر فوق ثوبى هـذا . وقد يكون لديك معطف قديم ...

www.alkottob.com

— هذا رائع !.. ولن نحتاج بعد ذلك إلى شغل بالنا بهذا الأمر .

— ولكن من أين تحصل على طعامك ؟

إنها تقصد ، كما هو واضح ، أن تستجلى كل شىء من فورها .

وشعر بير بالخجل لأنه لا يملك نقوداً تكفى لدعوتها إلى تناول العشاء . فى أحد المطاعم ، فهو مضطر إلى سداد أجر مدرسه فى اليوم التالى ، وصندوقه زاده فى حاجة أيضاً إلى ملئه من جديد .

— وقال الفتى :

— إنى أضع القهوة على الموقد هناك لتغلى طوال الليل ، ومن ثم أجدها معدة فى الصباح . وإنى أضع فى هذا الصندوق الطعام الجاف . ولنبحث الآن عن شىء من الطعام للعشاء .

وفتح الصندوق ، وأخرج منه رغيفاً وشيئاً من الزبد ، ووضع إبريق القهوى على للموقد . وقامت الفتاة بمعاونته على رفع الأوراق عن المائدة ، ووضع الطعام عليها . ولم يكن ثمة غير سكين واحد ، ولكن هذا كان فى الحق أدعى إلى التلهى من وجود سكينين . ولم يلبثا أن جلسا فى مقعديهما — كان لكل منهما مقعد — وقد توفر لهما تناول وجبتهما الأولى وهما معاً فى المنزل الخاص بهما .

واستقر الرأى على أن ينام لويز على الأرض . وضحكا كلاهما كثيراً عند ما دثرها بعناية حتى لا تشعر ببرد . ولم يلاحظا إلا فيما بعد ، عند انطفاء المصباح ، أن زوابع الخريف هب هبوبها ، وأن هناك ريحاً شمالية غربية شديدة تزمجر فى أعالى البيت . وقد رقدا هناك يتسامران فى الظلام قبل أن يغلبهما النعاس . .

وبدا شيئاً غريباً جديداً لبير أن يكون معه أحد أقربائه — وأن يكون هذا القريب بنتاً أيضاً ... فتاة . وهى ترقد هناك على الأرض بالقرب منه . وقد أصبح من الآن فصاعداً مسئولا عما عسى أن يحدث لها فى هذه الحياة الدنيا ... على أى نحو سيضطلع بهذه المهمة ؟

كان فى وسعه أن يسمعها وهى تتقلب على جنبيها ... أغلب الظن أن الأرض صلبة :

www.alkottob.com

— لويز

— نعم .

— هل رأيت أمنا أبدا ؟

— لا

— وأباك ؟

— أبى ؟

وضحكت ضحكة قصيرة .

— نعم. ألم تريه قط هو أيضا؟

— ومن أين لى العلم بذلك يا أبله ؟ ومن ذا يستطيع أن يقول إن أمى نفسها تعرف من هو أبى ؟

وتوقفنا عن الكلام قليلا . ثم جاهر بيير بقوله وهو مرتبك نوعا :

— نحن وحيدان إذن ، أنا وأنت .

— نعم ، نحن كذلك .

— لويز ! أى عمل تفكرين فى الاضطلاع به ؟

— وفيما تفكر أنت ؟

وعندئذ حدثها بيير عن كل خططه . ولزمت الصمت مدة قصيرة ... لا شك أنها كانت تفكر ، وهى راقدة ، فى الأعمال العظيمة التى تنتظره .

وقالت آخر الأمر :

— أتظن ... أيتكلف تعلمى لأصبح قابلة نفقات كثيرة ؟

— قابلة ؟ ... أهذا ما تريدينه يا فتاة ؟

ولم يتمالك بيير نفسه من الضحك . هذا إذن هو ماكانت ترسمه لنفسها فى هذه الأيام ... منذ عرض عليها أن يمد لها يد العون فى هذه الدنيا .

ولم تلبث أن تجرأت على القول :

www.alkottob.com

— أتظن أن يدى كبيرتان جداً ؟

ولم يستطع أن يسمع همستها إلا بصعوبة .

وشعر بير بغصة الحسرة ، فقد سبق له أن لاحظ كيف أن هاتين اليدين الحمراوين الوارمتين لاتناسبان وجه الفتاة الشاحب المشرق القسمات . وكان يعلم أن الناس فى الريف ، عندما تكون لأية فتاة يدان صغيرتان جميلتان ، يقولان عنهما .

« هاتان يدا قابلة »

وقال بير وهو يدور ناحية الحائط .

— لعلنا ندبر الأمر على نحو ما .

وكان قد سمع أن نفقات الدراسة فى مدرسة القبالة تبلغ بضع مئات من الكراونات. وقد تمر سنوات قبل أن يستطيع توفير مثل هذا المبلغ . إنها لفتاة مسكينة ، فالأمر يبدو كما لو أن عليها أن تنتظر مدة طويلة من الزمان .

واستغرقا بعد ذلك فى الصمت ، وزمجرت الريح الشمالية الغربية فوق الأسطح ، ولم يلبث الأخ وأخته أن غلبهما النعاس .

وعندما استيقظ بير صباح اليوم التالى وجد لويز مستيقظة تغلى القهوة فوق الموقد الصغير . ثم فتحت صندوقها وأخرجت منه تنورة صفراء ، وعلقتها على مسمار ، ووضعت حذاء جديدا تجاه الحائط ، وأخرجت كذلك ملابس داخلية وجوارب صوفية ، وتطلعت إليها ثم أرجعتها إلى موضعها ثانية . كان هذا الصندوق الصغير يحوى كل ما تملك من متاع الدنيا .

وبينما كان بير ينهض من فراشه صاحت الفتاة فجأة :

« رحماك يا إلهى ! ما هذا الصوت الشنيع المنبعث من الفناء ؟ »

وأجاب بير :

— أوه ، ليس هناك شىء يستحق الانزعاج ، فما هما إلا مؤجر العربات وزوجته . إنهما يعضيان على هذا النحو فى كل صباح مبارك ، وعما قريب ستعتادين الأمر .

ولم يلبثا أن جلسا مرة ثانية إلى المائدة الصغيرة ، وأخذ يحتسيان القهوة ويضحكان ،

www.alkottob.com

ويتبادلان النظرات . وكانت لويز قد وجدت مندوحة من الوقت لتمشيط شعرها ، وتدلت الضفيرتان الصفراوان من فوق كتفيها .

وحان وقت انصراف بير ، ونزل على السلم ركضا بعد أن حذر أخته من الابتعاد عن المنزل حتى لا تضل الطريق .

وقابل كلاوس بروك فى المصنع ، وأخبره بمجيء أخته إلى المدينة .

وسأله كلاوس .

— ولكن ، ما ذا ستصنع بها ؟

— أوه ، ستقيم معى فى الوقت الحاضر .

— تقيم معك ؟ ولكنك لا تملك إلا غرفة واحدة ، وفراشاً واحداً يارجل !

— حسناً ... إنها تستطيع الرقاد على الأرض .

وشهق كلاوس :

— هى ؟ أختك ؟ ... عليها أن تنام على الأرض ... وأنت تنام على السرير !

وأدرك بير أنه ارتكب خطأ من جديد ، وسارع إلى القول :

— أنا لم أقصد بالطبع إلا المزاح ... إن لويز هى التى تنام بالطبع على السرير .

وعند ما عاد إلى البيت وجد أنها اقترضت مقلاة من « معلم العربات » ، وقلت فيها شيئاً من لحم الخنزير والبطاطس المسلوق . وعلى هذا جلسا ليطعما غداء جديراً بأمير .

ولكن عند ما وقع نظر الفتاة على الصورة الملونة المعلقة فى الحائط وسألت أخاها أهى لوحة مرسومة تعاظم الفتى من فوره :

— أهذه ... لوحة مرسومة ؟ إنها ليست إلا نسخة مطبوعة بالزيت من لوحة أصلية يا بلهاء ! لا ، إنى سأصطحبك يوماً إلى معرض الفن ، وأريك كيف تكون اللوحات الأصلية .

www.alkottob.com

وجلس ينقر بأصابعه على المائدة ويردد قوله :

ـــ حسنا ، حسنا ... حسنا ، حسنا ، حسنا .

واتفقا على أنه يحسن أن تشرع لويز فورا فى البحث عن عمل للمعاونة على المعيشة . وفى أول مطعم قصداه ألحقوها فى التو بالمعمل فى المطبخ لتغسل الأرض وتقشر البطاطس .

وعندما حل أوان الرقاد ألح على لويز أن تحتل السرير . وشرح لها الأمر قائلا :

ـــ إن كل ماجرى فى الليلة الماضية لم يكن بالطبع إلا مزاحا ، فالنساء هنا فى المدينة ينلن دائما أفضل الأشياء ... وهذا ما يسمونه أدب السلوك .

وتملكه شعور غريب جديد وهو يتمدد على الأرض اليابسة . وبدا له أن غرفته الضيقة الصغيرة القاتمة تحت سقف البيت اتسعت الآن إلى حد أن وجد فيها مكانا لزائر . وكان هناك شىء غير كريه حتى فى الرقاد على الأرض اليابسة ما دام قد اختار ذلك فى سبيل شخص آخر .

وبعد انطفاء المصباح رقد ينصت لفترة من الزمن إلى صوت تنفسها . ثم قال آخر الأمر :

ـــ لويز .

ـــ نعم ؟

ـــ هل أبوك ... أكان اسمه هاجن ؟

ـــ نعم . هكذا ذكر فى شهادة الميلاد .

ـــ اسمك إذن الآنسة هاجن . إن له رنينا حسنا ، أليس كذلك ؟

ـــ أف ... أنت الآن تسخر منى .

ـــ وعند ما تصبحين قابلة فاعلمى أن الآنسة هاجن قد تتوفر لها تماما فرصة الزواج بطبيب .

www.alkottob.com

ـــ إنك لأبله ... ليست ثمة أية فرصة لتحقق ذلك ما دامت لى مثل يدى .

ـــ أتظنين أن يديك كبيرتان إلى حد يحول دون زواجك بطبيب ؟

ـــ أف ! إنك مخبول العقل . ها هاها !

ـــ ها ها ها !

واستكنا كلاهما تحت أغطيتهما وهما يشعران بالراحة والسلام المتولدين من شعور كل منهما بأنه يقتسم غرفته مع صديق مرح المزاج .

ـــ حسنا ، طبت مساء يا لويز .

ـــ طبت مساء يا بير .

www.alkottob.com

الفصل السادس

وانقضت الأمور على هـذا النحو حتى انقضى الشطر الأكبر من الشتاء . وما دامت لويز تحصـل الآن على أجر أيضا ، وتستطيع المساهمة فى دفع النفقات ، فقد أصبح فى وسعهما أن يذهبا إلى مطعم عمومى كل يوم ، إذا طاب لهما ذلك ، ويتغديا فطيراً محشواً باللحم ثمن الوجبـة منه أربعة قروش ، واستطاعا أن يدبرا أمرهما ، ويشتريا لبيرسريراً يمكن طيه فى أثناء النهـار . ولم يلبثا أن تعلما أن أدب السلوك يتطلب منهما أن يسدلا شال لويز الصوفى الـكبير ، ويجعلا منه ستارا متواضعا يحجب كلا منهما عن الآخر عنـد خلع ملابسهما وارتدائها . وبدأت لويز تتخلى عن لهجتها الريفية ، وتتحدث بلهجة أهل المدينة كأختها .

وكانت هناك فـكرة تخطر ببال بير كثيرا وهو يرقد مستيقظا :

« إن الفتاة صورة طبق الأصل من أمها ، هذا لا شك فيه ... فـكيف تـكون الحال لو أنها سارت على منوالها ؟ لا ، لا . إنها لن تصبح كذلك . وأنت رجل إلى الحد الذى تستطيع معه أن تتكفل بهذا الأمر ... لن يحدث شىء من هـذا القبيل يا آنستى العزيزة هاجن . »

على أن كلا منهما لم يكن يرى الآخر إلا لـماما فى أثناء النهار ، ذلك أنهما يفترقان منذ الصباح الباكر حتى يعود بير فى المساء . وكانت لويز لا تجيب أخاها إلا بالاسترسال فى الضحك إذا ما وعظها ، ونبه عليهـا أن تـكون حذرة ، وألا تعير الرجال الذين يحاولون محادثتها اهتماما . وفى أحد الأيام ، عند ما زارهما كلاوس بروك ، وتراقصت عينـاه وهو يحادثها ، شعر بير بميل شديد إلى الامساك به من قفـاه ورميه إلى أسفل البيت .

وعند ما اقترب عيد الميلاد أخذ يقضيان الأمسيات الطويلة وهما يتجولان خـلال الشوارع ، ويتطلعان إلى معارض الدكاكين المضاءة التى تخطف الأبصار بمعروضاتها المتلألئة الذهب والزخرف . وظلت لويز تسأل أخاها دون انقطاع كم ترى ثمن هذه السلعة أو تلك — قطعة « الدنتلة » هذه ، أو تلك العباءة ، أو الجورب ، أو هـذه المشابك الذهبية . . وكان بير يقول : « انتظرى حتى تتزوجى ذلك الطبيب ، وعندئذ

www.alkottob.com

تستطيعين شراء كل هذه الأشياء . ولم يكن لأى منهما معطف حتى الآن، ولكن بير كان يرفع « ياقة » سترته إلى أعلى كلما شعر ببرد ، وكانت لويز تفيد أكبر فائدة من ثيابها الصوفية السميكة ، ومن قفازها الريفى الجيد ، ويدفئها ذلك تماما . وجازفت الآن بشراء قبعة استبدلت بها منديل رأسها . ولم تستطع أن تمنع نفسها من التلفت حولها ظانة أن أغلب الناس لاحظوا كم تبدو رائعة .

وفى ليلة عيد الميلاد حمل الماء فى دلو من فناء البيت ، وكنس أرض الغرفة كلها به . ثم اغتسلا هما أيضاً بدورهما ، وساعد كل منهما الآخر بحك كتفيه وظهره على طريقة أهل الريف .

وكان بير قد صار أشبه بمكان المدينة إلى حد أنه احتفظ جانبا ببعض الهدايا لتقديمها إلى أخته بمناسبة العيد ، ولكن لم يكن لدى الفتاة التى لم تعتد مثل هذه الأمور شىء تقدمه له ، وعندما أدركت الأمر أغرقت فى بكاء طويل . وأكلا فطائر مشربة بالسكر المذاب اشتريا ها من بائع الحلوى ، وشربا شكولاتة مغلية ، ثم عزفت لويز على كمانها لحنا أجادته على قدر ما استطاعت ، وقرأ بير فصولا من كتاب الصلوات ... وجرى كل شىء طبقا لما اعتادوا أن يقوموا به فى ترورين عند حلول عيد الميلاد . وبعد أن أطفآ المصباح فى تلك الليلة استلقيا على فراشهما وظلا مستيقظين يناقشان خطط مستقبلهما . وتواعدا كلاهما على أن يعملا ، عند ما تستقيم لهما الحال فى الدنيا ، هو من ناحيته وهى من ناحيتها ، على أن يسكن كل منهما إلى جوار الآخر حتى يتمكن أطفالهما من اللعب سويا ، ويشبوا أصدقاء ... ألم ترهى أن هذه فكرة طيبة ؟ نعم ، لقد رأتها كذلك قطعا . وهل عنى هو ذلك ؟ نعم ، لقد عناه حقا دون مراء

ولكن حدث بعد ذلك فى الشتاء أن الخوف كان يكاد يساورها وهى تجلس فى الغرفة مساء فى انتظاره — وكان يقضى غالبا وقتا إضافيا فى العمل ... ها هى ذى خطواته على السلم ! فإذا كانت مسرعة متلهفة ارتجفت الفتاة قليلا . فهو لا يكاد يدخل الغرفة حتى تنفجر صيحته : « مرحى ، يافتاتى . اعلمى أنى تعلمت اليوم شيئاً جديداً ! » « أهذا صحيح يابير ؟ » وعندئذ يتدفق حديثه عن « الموتورات » والقوة الكهربية ، والآلات الضاغطة ، و « السلندرات » والآلات الرافعة والمسامير اللولبية وما إلى ذلك . وكانت تجلس منصتة باسمة ، ولكنها لم تكن تدرك بالطبع شيئاً مما تسمع . وكان بير

www.alkottob.com

يثور ثورة جامحة على أثر فطنته إلى ذلك ، وينعتها بالصغيرة البلهاء

ثم هناك الليالى الطويلة التى كان يقضيها وهو جالس يقرأ فى غرفته ، بمفرده أو مع مدرسه ، فى حين كان عليها أن تجلس فى سكون يحمل على اليأس إلى حد أنها لم تكد تجرؤ على استعمال إبرة الحياكة . ولكنه فى يوم من الأيام نبتت فى ذهنه فكرة أن أخته ينبغى أن تعكف هى أيضاً على الدراسة ، وعلى ذلك عين لها نبذة تاريخية لتحفظها فى اليوم التالى ... ولكن لا بد من وقت لحفظها ! ... ومن أين لها هذا الوقت ؟ ثم إنه جعلها تكتب ما عليه عليها ليتحسن هجاؤها للحروف — وكانت تستسلم دائماً للنعاس ، فقد غسلت أرض حجر كثيرة فى أثناء النهار ، وقشرت عدداً كبير من حبات البطاطس إلى حد أنها كانت تشعر بجسمها ثقيلا كالرصاص .

وكان يهب فيها صارخا ، هائجا فى الغرفة رائحا غاديا :

— أنصتى لى هنا يا فتاتى الطيبة ! .. إذا ظننت أنك تستطيعين إدراك الفلاح فى هذه الدنيا دون أن تتعلمى فأنت مخطئة خطأ شيطانيا .

ووفق فى حملها على البكاء :.. ولكن لم يطل بها الوقت كثيراً حتى حال رأسها ثانية إلى الأمام على المائدة ، واستغرقت فى النوم . وعلى ذلك أدرك أن ليس أمامه إلا أن يعينها على بلوغ فراشها ... وأن يتوخى فى ذلك ما استطاع من هوادة حتى لا يوقظها .

وعلى نحو ما أصيب بير فى أثناء الربيع بمرض ، وعند ماجاء الطبيب داربعيليه فى الغرفة ، وتشمم هواءها وقطب :

— أتسميان هذا مكانا يسكنه آدميون ؟

وسأل لويز التى تغيبت عن عملها فى ذلك اليوم :

— كيف تتوقعين أن تحتفظا بصحتكما هنا ؟

وخص بير الذى كان يسعل وهو راقد ، ووجهه يلتهب احمرارا :

— نعم ، نعم : إن به ما توقعت تماماً ... التهابا فى الرئة .

www.alkottob.com

وجال بطرفه فى الغرفة مرة أخرى وقال :

ـــ من الأفضل نقله حالا إلى المستشفى .

وجلست لويز هناك مرتعبة من فكرة إبعاد بير . ثم إن الطبيب نظر إليها عند انصرافه مدققاً وقال :

ـــ خير لك أنت أيضاً أن تحرصى على نفسك قليلا يا فتاتى الطيبة ، فيبدو عليك كأنك فى حاجة ملحة إلى الانتقال لغرفة لائقة يدخلها قدر أكبر من النور والهواء .

وبعد رحيله بقليل وصلت عربة المستشفى ، وأنزلوا بير من السلم على محفة ، وإذا الصندوق الأخضر القائم على أربع عجلات يفتح بابه ويبتلع المريض . وقد أبوا حتى أن يدعوها تذهب معه . وجلست فى غرفتها تصعد الزفرات طوال الليل .

وكان المستشفى من النوع العتيق الطراز الذى لايقترب الناس منه مادامو ا يستطيعون ذلك ، فإن حيطانه تبدو كأنها تنضح بالمضايقة والتعاسة اللتين تسودانه فى الداخل ، فأقسامه العمومية ـــ حيث ينزل فقراء القوم ـــ تزدحم دائماً ازدحاماً خانقاً الى حد أن المرضى المصابين بأمراض مختلفة كانوا يحشرون فى غرفة واحدة ، وتنتقل العدوى غالباً من بعضهم إلى بعض . وعند إجراء العمليات الجراحية كانوا يرتبون الأمور عرضاً على أفكه وجه ... كان المريض يمدد على محفة ، وينقل عبر فناء المستشفى المكشوف ـــ وهذا يحدث كثيراً فى صميم الشتاء ـــ ونظراً إلى تغطيته دائماً بغطاء صوفى فإن الآخرين كانوا يحسبون عادة أن حامليه ينقلونه إلى دار للموتى .

وعند ما فتح بير عينيه فطن إلى وجود رجل فى قميص أبيض يقف إلى جوار قدم فراشه . وقال ذلك الرجل الذى يبدو أنه طبيب :

ـــ حسن ، أعتقد أنه أخذ يفيق .

وعلم بير بعد ذلك من إحدى الممرضات أنه ظل فاقداً وعليه مدة أربع وعشرين ساعة .

وظل يوما بعد يوم راقداً هناك دون أن يشعر بشىء إلا وخز قضيب حديدى ، محمى إلى حد الاحمرار ، يخترق صدره ، ويقطع أنفاسه . وبين حين وحين كان يحضر شخص ما ، ويصب فى فمه شيئاً من النبيذ الحلو ، ومن سائل النفط . وكانت هناك أيد

www.alkottob.com

رفيقة تغسله كل صباح ومساء بماء دافىء . ولكن الغرفة بدأت تبدو شيئاً فشيئاً أشد نوراً . وأخذ يستطعم الثريد بعض الشىء . ثم بدأ آخر الأمر يميز الراقدين إلى جواره فى الأسرة ومحادثهم .

وكان يرقد على يمينه شاب أسود الشعر ، أصفر الوجه يشتغل عاملا فى رصيف الميناء ، وله أنف مكسور . ولم يخف أن مرضه — أياً كان هذا المرض — يختلف عن داء بير ، وكان ينهال على الممرضة بشكاوى بذيئة العبارات مقسما أن يبلغ الأمر للرؤساء ... وعلى الشمال من بير رقد إسكافى هزيل ، لحيته شهباء ناعمة شبيهة باللحية التى تبدو فى صور المسيح ، ووجنتاه تتوهجان من الحمى . وكان يموت بداء السرطان ... وفى الركن الواقع على يمينه رقد رجل له وجه كوجه صور الأنبياء ، وهيئة كهيئتهم ، ويغطى رأسه وذقنه شعر أبيض كثيف . كان يكابد آخر مراحل داء السل ، وأصبح سعاله يشبه صوت آلة دق المسامير . وكان يزحر قائلا : « هوه ! لو أنى أستطيع الرحيل إلى ألمانيا لبقى لى ثمة أمل . » وكان إلى جانبه فتى له لحية قصيرة ، وعينان نفاذتان . وقد فقد شيئاً من عقله ، فهو يتصور أنه « أنباشى » فى فرقة الحرس . وكثيراً ما كان سائر المرضى يستيقظون مساء على صوت هبوبه منتصب القامة فى فراشه ، وصياحه : « انتباه ! »

وكان هناك رجل يئن ويتأوه طوال الوقت ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال بجسمه المغطى بالقروح . ولكنه توصل فى يوم من الأيام إلى ابتلاع كمية من الكحول الذى يستعمل غسولا ، ومنذ ذلك اليوم رقد يغنى ويبكى على التعاقب ، وهناك أيضاً رجل أحمر اللحية ذو عوينات كان تاجراً متجولا ، وأودع رأسه رصاصة ، ولكن الأطباء توصلوا إلى إخراجها ثانية ... وهو يرقد الآن ويحمد الله على نجاته التى تعد معجزة .

وكان غريباً فى نظر بير أن يرقد مساء وهو مستيقظ وسطه هذه القاعة الكبيرة الاتساع ، المضاءة بنور المصباح الليلى الخافت ، وخيل إليه كأن أناساً من عالم الأموات يتحركون فى تلك الأسرة المحيطة به ، ولكن بير كان لا يكاد يمنع نفسه عن البكاء فى النهار عند ما يحضر أصدقاء المرضى وأقاربهم لزيارتهم . كان للاسكافى زوجة وابنة تحضران وتجلسان إلى جانبه ، ويحدقان فيه وكأنهما لا يستطيعان أبداً أن يتركاه

www.alkottob.com

يموت . وكان « للنبي » أيضاً زوجة تبكي دون أن تقبل عزاء — وبدا كأن لكل واحد من سائر المرضى أحدا ما يسأل عنه . ولكن أين هي لويز — لماذا لا تأتي لويز أبداً ؟

وكان للرجل الراقد على يمين بير أخت جاءت تجر ذيلها في أبهة وهي في ثوبها الحريري المتسخ المتهدل وراءها . وكان حذاؤها من النوع الرخيص ، ولكن قبعتها كانت أعجوبة بريشها الهائل ... قالت : « هالو ، ياقبيح ! كيف حالك ؟ » وجلست ووضعت ساقاً على ساق . ثم أخذا كلاهما يتحدثان في غموض عن أناس يطلقون عليهم أسماء غريبة مثل « البرغوث » و« الصرصور » و« السفينة » و« خاتم الملك » وما إلى ذلك . ومن الجلي أن أصحاب هذه الأسماء كانوا أصدقاءهم . وتوصلت في أحد الأيام إلى إحضار زجاجة صغيرة من الخمر ، استطاعت تهريبها بإخفائها تحت أغطية الفراش التي جاءت بها ، وكانت الزجاجة هدية من « الخنزير » . وما غادرت القاعة ، وخلا الجو حتى سحب جار بير الزجاجة ، وعمل على رفع سدادها ، وعرض على جاره أن يشرب منها : « هذا توفيق يا ولدي ... سيفيدك . » لا ، إن بير أميل إلى الامتناع عن الشرب . ثم أعقب ذلك صوت انبعث من فراش عامل الرصيف . ولم يلبث أن رقد يغني هو أيضاً بأعلى صوته .

وأخيراً جاءت لويز في أحد الأيام . وكانت تلبس قبعتها الدقيقة ، وتحمل بيدها حزمة ، ونظرت فيما حولها وهي تدخل الغرفة ، وبدا أن الهواء الخانق في قاعة المرضى أدار رأسها قليلا . ولكن بصرها وقع عندئذ على بير فابتسمت وجاءت إليه على حذر ، باسطة يدها . وعجبت إذ رأته متغيراً إلى هذا الحد . ولكنها عند ما جلست إلى جوار وسادته وظلت تبتسم برغم أن عينيها كانتا تشرقان بالدمع ، وقال بير :

— ها قد جئت أخيراً إذن ؟

وقالت وهي تتنهد :

— لم يسمحوا لي قبل اليوم بالدخول .

وعلم بير عندئذ أنها كانت تحضر كل يوم ليقولوا لها فقط إن مرضه شديد إلى حد لا يسمح له برؤية زائريه .

ورفع الرجل ذو الأنف المكسور رأسه إلى الأمام ليزداد تمكناً من رؤية الفتاة

www.alkottob.com

الصغيرة المتواضعة . وفى أثناء ذلك كانت لويز تخرج من الحزمة هديتها التى جاءت بها — زجاجة من عصير الليمون ، وشىء من حبات البرتقال .

ولكن لم يمر على ذلك يوم أو يومان حتى حدث أمر ظل بيير يذكره كثيراً فيما توالى عليه من أيام .

كان النهار قد تمكن منه فى أثناء العصر ، وعند ما استيقظ وجد المصباح مضاء ، والبقية الباقية من نور النهار تجثم على قاعة المرضى صفراء ثقلة .. وبدا أن سائر المرضى كانوا نائمين . وسكن كل شىء إلا الرجل المثخن بالجراح الذى كان ينتحب فى هدوء . ثم فتح الباب ، ورأى بيير أخته تدخل منسلة فى هوادة وحذر ، حاملة صندوق كأنها تحت إبطها . ولم يقبل إلى حيث يرقد أخوها ، ولكنها وقفت فى وسط القاعة ، وأخرجت كمثها ، وبدأت تعزف لحن عيد القيامة : « الضيف الجبار متدرعاً بعدته البيضاء . »

وكف الرجل المصاب بالجروح عن البكاء ، وفتح المرضى الراقدون فى الأسرة حول المكان أعينهم . وجلس عامل الرصيف المكسور الأنف فى فراشه . وصحا الإسكافى من منامه المحموم ، ورفع جسمه مستنداً على مرفقه وهمس : « إنه المخلص ... كنت أعلم أنك ستعود إلى الأرض . » ثم ساد الصمت . ووقفت لويز هناك وهى تركز عينيها على كمانها ، وتعزف باذلة قصارى جهدها البسيط . ورفع المصاب بالسل رأسه ، ونسى سعاله ، وشد الأنباشى عضلات جسده فى بطء ليقف وقفة انتباه ، وبسط البائع المتجول يديه وشخص إلى الأمام . وبدا كأن أنغام اللحن البسيط بعثت فى هؤلاء الأشقياء حياة ، فقد شع نورها على وجوههم . ولكن بدا لبيير وهو يراقب أخته الواقفة هناك فى النور الضئيل ، أنها تحولت حتى أصبحت هى واللحن شيئاً واحداً ، وأنها منحت أجنحة تحلق بها .

وبعد أن أتمت عزفها جاءت إلى فراشه فى رفق ، وربتت جبينه بيدها المنتفخة ، ثم انسلت إلى الخارج ، وتوارت فى سكون على نحو ماجاءت .

وسكن كل شىء فى قاعة المرضى الموحشة مدة طويلة إلى أن غمغم الإسكافى المحتضر أخيرا : « أشكر ذاتك العلية ... كنت أعلم أنك لست بعيداً عنا .

www.alkottob.com

وعنـد ما غادر بير المستشفى أخبره الطبيب بأنه من الخير له ألا يعود إلى العمل تواً ، فعليه أن يحصـل على عطلة يقضيها فى الريف ، ومن ثم يسترجع عافيته . وقال بير لنفسه : « يسهل عليك أنت أن تقول هذا » وبعد بضعة أيام عاد إلى مصنعه ثانية.

ولـكنه فى معاملة لأخته أصبح أكثر رعاية لها من ذى قبل ، وبحث هنا وهناك حتى وجد لها وظيفة « حائـكة » ووفر عليها مشقة مسح البلاط .

ولفرحة لويز سرعان ما بدأت تلاحظ أن احمرار يديها وانتفاخهما خفا كثيراً عن ذى قبل . وهما فى حقيقة الأمر يزدادان نعومة وحسنا بالتدريج .

وفى الشتاء التـالى كانت تجلس فى الغرفة إلى جوار أخيها فى أثناء قراءته ، وقد حاكت لنفسها ثوباً ومعطفـاً ، وصنعت قبعة ، وعلى ذلك لم يلبث بير أن أصبحت له سيدة صغيرة أنيقة تخرج معه للنزهة . ولـكن عند مادرج الرجال على التلفت والنظر إليها فى أثناء مرورها كان يكشر عن نابه ، ويشد قبضته . وحدث أخيراً أن وصل الأمر إلى أبعد مما تحتمله لويز ، فتمردت قائلة :

ـــ اسمـع يا بير ... أقول لك فى صراحـة إنك إذا داومت على هـذه الحال فأنا لن أخرج معك .

وزمجر بير :

ـــ لا تخافى أبداً ، فأنا مع ذلك سأتعهدك برعايتى . اننا لن ندع قصة أمنا تتكرر معك ثانية .

ـــ حسناً ، ولـكنى فتاة غير صغيرة على أية حال . وأنت لاتستطيع منع النـاس من النظر الى يا أبله !

وفى هـذا الخريف التحق كلاوس بروك بالـكلية التـكنيـكية ، وراح الآن يجول هنا وهناك بقبعة عليها شارة الـكلية ، ويتباهى بحمـل عصى يمشى بها ، ولفافة تبغ يدخنها . وقد نما حتى أصبح فتى ضخم الهيـكل ، عريض الـكتفين ، وأخذ يمشى وهو يتمايل قليـلا فى خطواته ، وتدلت خصلة كثيفة من الشعر فوق جبينه . وكانت له طريقة خاصة فى التلفت ، وكأنما يقول : « أيما كانت أهمية الأمر ، فإنى له متأدبا ! »

www.alkottob.com

وجاء اليهما ذات ليلة ، وطلب الى لويز أن تصحبه الى المسرح ، واصطبغ وجه الفتاة بالإحمرار فرحاً ، ولم يستطع بير أن يرفض الطلب . ولكنه كان ينتظرها خارج باب الفناء عند عودتهما . وجاءهما كلاوس مرة أخرى عصر يوم أحد ، وطلب إليها أن تخرج معه فى نزهة بالعربة . وفى هذه المرة لم تستأذن بير فى الخروج حتى بنظرة ، بل قالت « نعم » من فورها . وقال بير لنفسه : « انتظرى لترى » وعند ما عادت أخته فى ذلك المساء ألقى عليها درساً قاسياً .

وبعد مدة وجيزة لم يستطع إلا أن يرى أخته تسير فى تجوالها ، مغمضة العينين قليلا ، مترسلة فى أحلام لاتحدثه عنها أبداً . وعلى توالى الأيام ازدادت يداها ابيضاضاً ، وازدادت خطواتها خفة حتى لكأنها تسير على وقع موسيقى غير مسموعة . ودرجت على الترنم بالأغانى وهى تضطلع بالواجبات المنزلية ، وبدا كأن ثمة فى داخل نفسها فرحة لا بد أن تجد لها مخرجاً .

وفى يوم سبت من أيام الربيع الماضى ، دخل عليها بير الغرفة مرتديا أحسن ثيابه ، حاملا لفافة ، وكانت قد عادت توآ إلى البيت ، وبدأت تتناول عشاءها .

— هيه يا فتاة ! هاك هذه اللفافة ! سنوم الليلة وليمة من الولائم السالفة النادرة .

— ماذا ... علام كل هذا ؟

— نجحت فى امتحان القبول بالكلية التكنيكية ... هورا ! فى الخريف المقبل ... فى الخريف المقبل أصبح طالباً !

— أوه ، هذا رائع ! كم أنا مسرورة !

ومسحت يدها ، وصافحته .

— ها هو ذا ... سجق وأنشوجة ... وها هى ذى زجاجة براندى ... إنها أول زجاجة خمر اشترتها فى حياتى كلها ... وسيحضر كلاوس فيما بعد ليشرب معنا كأساً . وهناك جبنا ... سنجعل كل شىء يترنم هذه الليلة .

وجاء كلاوس ، وشرب الشابان خمراً ، ودخنا لفافات تبغ ، وألقيا خطباً ، وعزفت لويز على كيانها أغانى وطنية . وتطلع كلاوس إليها . وطلب « المزيد » .... « والمزيد » .

www.alkottob.com

وخرج بير معه عند انصرافه . وبينما الصديقان يسيران فى الشارع تأبط كلاوس ذراع صديقه ، وأشار إلى القمر الشاحب الذى يعتلى الفيورد ، موغلا فى الارتفاع ، وقطع على نفسه عهداً لصديقه بألا يتخلى عنه أبداً حتى يصل إلى أعلى الشجرة ... لن يتخلى عنه أبداً ... أبداً ! وقال بالإضافة إلى ذلك إنه أصبح الآن اشتراكيا ، واعتزم أن يثير ثورة على جميع الفوارق الطبقية ... ولويز ... لويز هى أروع فتاة فى العالم أجمع ... والآن ... الآن يمكن لبير أن يعلم ... وسيان علمه الآن وعلمه فيما بعد ... أنهما ، هو ولويز ، فى حكم من تمت بينهما خطبة الزواج .

ودفعه بير بعيداً ، ووقف يحدق فيه ، ثم قال :

— عد إلى دارك الآن ... اذهب لتنام .

— ها ! أنت تظن أنى لم أستكمل رجولتى إلى الحد الذى أستطيع معه أن أتحدى أهلى ... أتحدى العالم بأسره !

وقال بير :

— طبت مساء .

وبينما كانت لويز ترقد فى فراشها صباح اليوم التالى ... طلبت أن تفطر حيث هى على نحو ما تفعل أحيانا قليلة ... ثم بدأت تضحك على حين فجأة ، وسألته بقصد إغاظته :

— وماذا تصنع الآن ؟

وقال بير :

— أحلق ذقنى .

وكان قد شرع فى الحلاقة .

— تحلق ذقنك ! أأنت متلهف على أن تكون عظيما إلى حد لم تجد معه بدا من سلخ جلدك كله ؟ أنت تعلم أن ليس هناك ما تحلقه غير جلدك .

— أمسكى لسانك ، فأنت لا تكادين تعرفين شيئا عما ينتظرنى اليوم .

www.alkottob.com

يحين موعد التحاقه بالكلية فى الخريف ، فهو لايستطيع منذ الآن أن يتيح لنفسه التمتع بعطلة عن العمل .

وبينما هو يبدأ العمل ذات صباح مع جماعة من زملائه فى «ستينكار» حيث كانوا يصلحون عطلا أصاب آلة سفينة حبوب روسية كبيرة ، جاءت إليه لويز ، وطلبت إليه أن يتطلع إلى حلقها وقالت :

ـــ أشعر بألم شديد هنا .

وتناول بير ملعقة وضغط لسانها إلى أسفل ، ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً غير طبيعى وقال :

ـــ من الأفضل أن نذهب ونستشير طبيباً حتى نطمئن .

ولكن الفتاة استخفت الأمر وقالت :

ـــ أوه ، هذا أمر لا قيمة له ، ولا يستحق أن نشغل بالنا به .

وتغيب بير عن البيت مدة تزيد على أسبوع حيث كان يبيت على ظهر السفينة مع سائر زملائه . وعند ماعاد من مهمته أسرع إلى غرفته وهو يفكر فى لويز وحلقها الوجيع . ورأى « معلم العربات » يقوم بتشحيم عجلات عربة ، فى حين اتكأت زوجته على حافة نافذة ، وأطلت وهى تقرعه . .

وقال « معلم العربات » وهو يلتفت بوجهه ذى الأنف الاحمر الكبير :

ـــ أختك ، إنها ذهبت إلى المستشفى . . . ذهبت إلى مستشفى الدفتريا . كان الطبيب هنا منذ أكثر من أسبوع ، ومضى بها . ومنذ هذا الحين ظلوا يواصلون تحرياتهم هنا ، ويسألون عنها ، ومن عسى أن تكون ، وإلى من تنتمى . . . ولكننا لم نعلم عن ذلك شيئاً . وسألوا أيضاً عن مكان وجودك . . . ولم نعلم ذلك أيضاً . . . كانت حالتها سيئة جداً . . . إذا ما أردت أن تسأل عن ذلك . . .

وانصرف بير مسرعا . وكان اليوم حاراً ، والهواء راكداً ثقيلا . وظل يواصل المسير ، مجتازاً شارع البحر بطوله ، مخترقاً حى الصيادين ، قاطعاً مسافة طويلة أخرى حول الخليج ، ثم رأى عربة مقبلة صوبه . . . عربة نقل عادية عليها نعش .

www.alkottob.com

وكان سائقها بجلس فوقها ، فى حين يسير خلفها رجـــل آخر يحمل قبعته بيده . وواصــل بير ركضه ، وتراءى له أخيراً البناء الأصفر الطويل القائم فى آخر الميناء . وتذكر جميع الحـكايات البشعة التى سمعها عن سوء معاملة المرضى بالدفتريا ... وكيف أنهم كانوا يقطعون حلقوم المريض ليمكنوه من التنفس ، أو يحرقون أجزاء منه بقضبان من حديد محمى إلى حد الاحمرار — أوه ! وعند ما وصل أخيراً إلى السياج العالى ، ودق الجرس ، وقف هناك منقطع الأنفاس ، يتصبب عرقا ، وعيل متكئاً على الباب .

وكان صوت وقع أقدام يتردد داخل المـكان ، ودار مفتاح ، وأطل البواب برأسه ، وكان أحمر الشارب ، يحيط نمش بعينيه الزرقاوين القاسيتين .

— ماذا تريد حتى تظل تدق الجرس على هذا النحو ؟

— الآنســة هاجن ... لويز هاجن ... أتحسنت حالتها ؟ ... كيف ... كيف حالها ؟

— لو ... لويز هاجن ؟ فتاة تدعى لويز هاجن ؟ أهى التى جئت تسأل عنها ؟

— نعم ، إنها أختى . خبرنى عنها ... أو ... دعنى أدخل لأراها .

— انتظر قليلا ... ألا تقصد الفتاة التى جاءوا بها إلى هنا منذ حوالى أسبوع ؟

نعم ، نعم ... ولـكن دعنى أدخل .

— إننا احتملنا متاعب ومضايقات لاحد لها بسبب هذه الفتاة ونحن نبحث عن موطنها ، وهل لها أقرباء هنا ... ولـكننا لم نستطع بالطبع ، فى هذه الحالة السيئة ، أن نبقى على رمقها مدة أطول . ألم تقابل ، وأنت فى طريقك إلينا نعشاً محمولا على عربة نقل ؟

— ماذا ... ماذا ... أنت لا تقصد ... ؟

— نعم . كان عليك أن تأتى قبل ذلك . لقد أكثرت من السؤال عن شخص يدعى بير ، وطلبت من مديرة المستشفى أن ترسل لها خطاباً إلى مكان ما ... أليس هو ليفنجر ؟ أأنت الشخص الذى كانت تسأل عنــه ؟ إنك جئت أخيراً إذن ! أوه ، حسناً ... إنها قضت نحبها منذ أربعة أيام أو خمسة أيام مضت . وقد ذهبوا بها تواً ليدفنوها فى جبانة سانت مارتن .

www.alkottob.com

ودار بير ، وتطلع من فوق الخليج إلى المدينة الراقدة من ورائه ، المضاءة بنور الشمس ، المحاطة بالدخان . وبدأ يسلك الطريق صوب المدينة ، ولكن خطواته أخذت تتلاحق على نحو أسرع فأسرع ، ثم رفع قبعته أخيراً ، وجرى وهو يلهث وينشج ... وكان الخاطر الذى يدور فى ذهنه هو : أكنت أعاقر الخمر ؟ . . ولماذا لا أفيق ؟ ما الأمر ؟ ما الأمر ؟ ... وظل يواصل جريه . ولم تبد لناظره عربة النقل إلى الآن . وكانت الشوارع الصغيرة فى حى الصيادين تتعرج دائماً وتلتف . وأخيراً وصل إلى شارع البحر مرة أخرى ... وهناك ... هناك أمامه عن بعد ظهرت عربة النقل المنهلة فى مسيرها . ودارت إلى اليمين دورة تكاد تكون مفاجئة ، وتوارت ، وعند ما وصل بير إلى منفرج الشارع لم يكن لها هناك أثر . بيد أنه ظل يجرى حيثما اتفق . ويبدو أنه كان فى الشوارع أناس آخرون ... أطفال يطيرون « بالونات » حمراء ، ونسوة يحملن سلالا ، ورجال يلبسون قبعات من خوص ، ويمسكون بعصى يتكئون عليها — ولكن بير حدد طريقه ، وجرى قدما وهو يدفع الناس جانباً ، ويوقع من يقف فى سبيله ، ويندفع فى جريه من جديد . وفى شارع الملك وقع بصره على العربة مرة أخرى ، وبدت أقرب إليه فى هذه المرة وكان للرجل الذى يسير خلفها ، ممسكا قبعته بيده ، شعر أحمر ملفوف الحصل ، وقد التزم فى مشيته هيئة الوقار ، غامزا ركبتيه فى خطوه ، دافعاً طرف حذائه إلى الأمام . ولا شك أنه يكسب قوت يومه من النواح وراء الجنازات التى لا يحضرها نائح سواه . وعند ماعرجت العربة على الجبانة لحق بير بها ، وحاول أن يسايرها ، ولكنه تعثر ولم يستطع الخطو إلا بصعوبة . ونظر إليه الرجل السائر وراء العربة وسأله :

— ماذا دهاك ؟

والتفت إليه السائق ، ولكنه عاد فساق العربة ثانية من فوره :

وتوقفت العربة . ووقف بير إلى جوارها ، متكئاً على شجرة ليستعين على الوقوف . وجاء رجل ثالث — ويبدو أنه كان « التربى » — وسمع بير ثلاثتهم يتجادلون عن المدة التى قد يضطرون إلى قضائها فى انتظار القسيس . وقال سائق العربة وهو يخرج ساعة جيبه :

— هذا هو الميعاد على وجه التحديد ، أليس كذلك ؟

www.alkottob.com

وأجاب « التربى » موافقاً :

ـــ نعم . لقد قال الموظف إنه سيحضر حوالى الآن .

وتمخط ... ولم يمض غير وقت قصير حتى بدا القسيس للعيان ، مرتدياً ثوبه الأسود ، و« ياقته » البيضاء ، وهذا يدل دون شك على وجود جنازات أخرى فى هذا اليوم . وارتمى بير على مقعده ! وتتبع بنظره فى بلاهة رفع النعش عن العربة ، وحمله إلى القبر ، وإنزاله إليه ... وجاء رجل له نظارة ، وأنف أحمر ، ومعه كتاب صلوات ، وأخذ يرتل شيئاً فوق القبر . ورفع القسيس المعول ... وما سمع بير صوت أول رمية تراب من المعول حتى جفل كما لو أصيب بصدمة ، وكاد يسقط من مقعده .

وعند ما رفع بصره ثانية وجد المكان مهجوراً ... كان الناقوس يدق ، وحشد من الناس يتجمع فى ناحية أخرى من الجبانة . وجلس بير حيث كان ، مستسلماً للسكون التام .

وفى المساء إذ جاء « التربى » ليغلق باب الجبانة اضطر إلى أن يمسك الفتى من كتفه ، ويهزه ليعيده إلى صوابه ، وقال له :

ـــ هذا أوان إغلاق الجبانة . لابد من انصرافك الآن .

ونهض بير ، وحاول المشى . وبعد قليل خرج من الباب ، وانحدر إلى الشارع ، متعثراً دون أن يتبين ما أمامه . ثم وجد نفسه ، بعد مدة ، يصعد فى درجات سلم يعلو « اسطبلا » . وما دخل غرفته حتى ارتمى على فراشه بكامل ملابسه ، ورقد هناك بلا حراك .

وتمخضت حرارة النهار المطبقة عن وابل من المطر أخذ ينقر على السطح فوق رأس بير ، ويتدفق فى سيول من خلال الميازيب .

وجفل بير دون وعى ... إن لويز فى الخارج تحت وابل المطر ... لابد أنها فى حاجة إلى معطفها ... وهب واقفاً على قدميه فى لحظة ، وكأنه أراد أن يبحث عن المعطف ... ثم توقف متراجعاً ، وعاد فاستلقى على فراشه فى بطء .

www.alkottob.com

وطوى رجليه تحته ، ودفن رأسه بين ذراعيه . وازدحم ذهنه برؤى متغيرة متعجلة ، بالعاصفة وبالموت ، بآدميين يحيون دون حول أو قوة فى عالم يحكمه القدر الذى لا يعرف الرحمة حكما جافياً غير مكترث .

ولأول مرة بدا كأنه يرفع رأسه إلى أعلى ... وصاح : « لامعنى لهذا كله ... أنا لن أحتمله . »

وعند ما حل المساء بعد ذلك ، وجد نفسه يبسط ذراعيه فى حركة آلية ليردد صلوات العشاء التى حفظها وهو طفل .. انفجر على حين فجأة ضاحكا ، وضم قبضتيه وصاح : « لا ، لا ، لا ... أبداً ... أبداً . »

وخطر له مرة أخرى أن القدر يتصف بشىء يشبه ما يتصف به ذلك المدرس .. فهو يناصر الذين هم أصلا فى خفض من العيش : « نعم ... إن الذين لهم أهل ومأوى وإخوة وأخوات ، ووفرة من متاع الدنيا ... أولئك هم الذين أحميهم وأعنى بهم ، ولكن ها هو ذا صبى وحيد فى هذه الدنيا ، يناضل ويقاتل ما أمكنه ليشق طريقه ... سآخذ منه الشىء الوحيد الذى يمتلكه ... إن هذا الصبى لا يعد شيئاً فى نظر الناس ، فلينزل به العقاب إذن لأنه فقير ، ليلق به إلى الحضيض مادام أن ليس هناك أحد يهتم به . إنه لا يعد شيئاً فى نظر أى إنسان ... لا يعد شيئاً ، » أوه ... أوه ... أوه ! ... وضم قبضتيه ، وأخذ يضرب بهما الحائط .

لقد تحطم عالمه الصغير كله ، وتناثر أجزاء . وكفر بربه وهو فى سورة يأسه . وتبدد عالمه السماوى ، وتحول إلى سحاب ، وذهب بددا ، ولم يبق فى السماء إلا فراغ ... لا تظل ترفع يديك متضرعاً ، ولكن سر على الأرض ، وتحد الأقدار كما تحديت ذلك المدرس . إن أمك ليست فى حاجة اليك لإنقاذها ... إنها لم تعد تحيى فى أى مكان ، فقد ماتت ، وتحولت إلى تراب . والأدهى من ذلك أن هذا هو مصيرها ومصيرك ومصير كل مخلوق فى هذا الوجود .

وظل راقداً هناك ، وود لو أدركه النعاس ، ولكنه ، بدلا من ذلك ، بدا كأنه غاص فى غسق مبهم بعيد ... غسق أخذ يهدده — يهدهده فوق أمواجه السوداء الذهبية ... وسمع الآن صوتاً — ماهو هذا الصوت ؟ صوت كمان ... « الزائر الجبار

www.alkottob.com

فى حلته البيضاء . » أوين — أهذا أنت ... تعزفين ؟ إنه يستطيع رؤيتها الآن هناك غـلالة الغسق ، ما كان أشد شحوبها ! ولـكنها ظلت تعزف ... والآن أدرك ماهو ذلك الغسق .

إنه عالم قائم وراء وعى الحيـاة اليومية ... وهذا العالم خاص به : « يا بير ، دعنى أبق هنا » وأجاب وشىء داخل نفسه : « نعم ، ستبقين يالوين ... ستبقين هنا يالوين، حتى وإن لم يكن ثمة خـلود . » وعندئذ ابتسمت لوين ... وظلت تعزف ... أما هو فـكان كأنه يبنى لها كنيسة صغيرة ذات قبة يتحدى بها سائر الـكنائس . . . وكأنه يقرع بيديه ، فى سبيلها ، ناقوساً أبدياً هائلا .. ماذا يحدث داخل نفسه ؟.. ليس ثمة أحد يواسيه ، وانتهى به الأمر مع ذلك ، وهو راقد هناك ، إلى صب شىء من قرارة نفسه قرباناً لجميع من هم على قيد الحيـاة . . إلى صبه قرباناً للأرض والنجوم حتى بدا كل شىء يتأرجح معه ، ويتأرجح فوق أمواج النشيد الهائلة . . رقد هناك وهو يغمض عينيه بقوة ، ويمـد يديه كأنه يخشى أن يستيقظ ويجد كل هـذا لا يعدو أن يكون حلماً جميلا .

www.alkottob.com

الفصل السابع

ما بدأ جرس الكلية التكنيكية يدق معلناً حلول الساعة الثانية حتى ظهر من الأبنية المستطيلة المترامية فيض من الطلبة ، وأخذ يتدفق من الباب ، ويتفرق إلى حلقات صغيرة وجماعات اتخذت إلى المدينة طرقها المتعددة .

كان حشداً متنوعاً من شبان اختلفت أعمارهم وتراوحت بين السابعة عشرة والثلاثين . . طلبة من الطراز الذى لا ينقرض ، أرسلهم أهلهم إلى هذه الكلية بحسبانها الملاذ الأخير ، ذلك أن الطالب منهم .. « يمكن دائماً أن يصبح مهندساً . » .. شبان أغرار يعنون بزيتهم أكثر مما يعنون بكتبهم ، ويؤملون « أن ينجحوا على نحو ما » دون أن يشقوا أنفسهم بالعمل .. وشبان آخرون أمتداء ذوو هيئة عسكرية ، دربوا ليلتحقوا بالجيش ، ولكنهم أيضاً يمكن دائماً أن يصبحوا مهندسين . وهناك صبيان من الريف حشروا أنفسهم فى السيل المنحبس من المدارس الإعدادية ، ولبسوا الآن قبعة الكلية فوق ثيابهم الريفية الرمادية الخشنة ، وراحوا يحلمون بأن ينتهوا من دراستهم فى لمحة عين ، ويصبحوا رجالا عظاما يلبسون قمصاناً مفشاة الأكمام ، وعويمات ذات زنبرك من ذهب .. وهناك أيضاً شبان متحمسون ، كالحو الوجوه ، أكبر الظن أن ستنتهى بهم الحال إلى أن يصبحوا ملحدين .. وهناك أيضاً ممثلون سابقون قتلهم النقاد ، ولكن يبدو أنه لا يزال بهم رمق كاف « ليصبحوا مهندسين . » وبينما يسرع أولئك الشبان وهم يجتازون المدينة على طريقتهم المرحة غير المبالية . قد يتلفت رجل أكبر سناً هنا أوهناك ، ويشيعهم بنظره ، مبتسما ابتسامة تنم على شىء من الحزن ، فمن السهل أن يتبين المرء مايخبئه لهم القدر فبعد انتهاء دراستهم سيتشتتون فى الحياة الواسعة كأسراب الطيور المتنقلة حيث يسقط بعضهم مصابين بضربة شمس فى إفريقيا ، ويقتل بعضهم بأيدى الوطنيين فى الصين ، ويصبح آخرون ملوك المناجم فى جبال « بيرو » ، أو مديرى المصانع الكبرى فى سيبيريا على بعد آلاف الأميال من وطنهم وأصدقائهم . إن وطنهم هو الكرة الأرضية بأسرها . وقليل منهم — وهؤلاء القليل ليسوا المبرزين دائماً — يبقون فى بلادهم ، ويشغلون وظيفة فى مصلحة السكك

www.alkottob.com

الحديدية ، ويجلسون إلى مكتب ، ويرقبون ازدياد مرتباتهم بما يتقاضون من علاوة تبلغ اثنى عشر جنيهاً كل خمس سنوات .

قال كلاوس لبير فى أحد الأيام وهما يسيران معاً صوب المدينة ، ويحملان كتبهما تحت إبطيهما :

ـــ إن أخاك الموجود هنا ما هو إلا شيطان .

ـــ اسمع هنا يا كلاوس ، إنى أقولها للمرة الأولى والأخيرة : كن لطيفاً ولا تدع هذا الفتى أخى ، وهناك شىء آخر .. لاتقل أبداً لأى مخلوق كلة واحدة عن أبى إلا أنه كان مجرد مزارع .. واسمى هرلم . وقد دعيت به تسميا باسم مزرعة أبى . تذكر ذلك جيداً ، أسمعت ؟

ـــ أوه حسناً . لا تنفعل هكذا .

ـــ أتحسبنى سأتيح لهذا الغر أن يقتصر إذ يظن أنى أريد التودد إليه ؟

وهز كلاوس كتفيه :

لا ، لا .. بالطبع لا .

وواصل مسيره وهو يصفر .

ـــ أو تظن أنى أريد إثارة القلاقل فى سبيل الانتساب إلى أسرته الكريمة تلك ؟ .. لا ، فقد أجد طريقة انتزع بها حقى منه ، ولكنها لن تكون هذه الطريقة .

ـــ حسناً ، ولكن سحقاً لهذا ، يا رجل ! أنت تستطيع دون شك أن تسمع ما يقوله الناس عنه .

وراح كلاوس يسرد قصته . إن فرديناند هولم تسبب على مايبدو فى يأس أسرته ، فقد كف عن مواصلة دراسته فى الكلية العسكرية على زعم أن الجنود والجندية أشياء تضحكه .. ثم كانت له تجربة قصيرة فى دراسة اللاهوت ، ولكنه وجد تلك الدراسة أشد سوءاً ، وإذ وجد أخيراً أن الهندسة حرفة شريفة على أية حال ألقى مراسيه عند الكلية التكنيكية .. وسأل كلاوس صاحبه :

www.alkottob.com

— مارأيك فى هذا ؟

— لا أرى شيئاً فيه جديراً بالنظر .

— انتظر قليلا ، فزبدة القول سوف تأتى . لقد ضرب أحد رجال الشرطة فى الطريق العام منذ بضعة أسابيع .. وزعم أن الرجل أهان طفلا .. أو شيئاً من هـذا القبيل . وحدثت فضيحة رهيبة .. اعتقال ، ومحاكمة أمام المحـكمة المركزية ، وحكم بغرامة مالية ، وما إلى ذلك . وماذا كان عليه أن يصنع ، فى الشتاء الماضى ، إلا أن يخطب .. أن يخطب ، رسمياً وعلانية ، إحدى خادمات أمه . وعنـد ماطردت الأم الفتاة خفية عنه رفع راية العصيان ، وغادر البيت إلى غير رجعة . وأصبح لا يتنفس إلا ليتوعد الطبقة العليا وما حققته من أعمال بالويل والدمار .. فما رأيك فى هذا ؟

— يا صديقى الطيب ، ما شأنى أنا ، وحق الشيطان ، بهذا كله ؟

وقال كلاوس :

— حسناً ، الرأى عندى أن هذه جرأة مخزية منه على أية حال . بيد أنى سأعمل من ناحيتى على توثيق معرفتى به ، إن كان ذلك فى المستطاع ... ويقولون إنه قرأ كثيراً جداً ، وعلى كتفيه رأس ألمعى .

ومنذ أول يوم دخل فيه بير الـكلية عرف من هو « فردناند هولم » ، وأخـذ يدرسه فى اهتمام . كان ذلك الفتى فارع الطول ، منتصب القامة ، شعره أشقر يميـل إلى الاحمرار ، ووجهه منقوط بالنمش ، وله عوينات إطـارها من عظم السلحفاة . وهو لا يلبس قبعة الـكلية المعتادة ، ولـكن قبعة رمادية من لباد مقوى . ويبدو فى حوالى عامه الرابع والعشرين ، أو الخامس والعشرين .

وقال لبير لنفسه :

— انتظر ... انتظر ياصاحبى الرفيع القدر! .. نعم ، إنك كنت هناك دون ريب عند ما طردونى من الجبانة فى ذلك اليوم ، ولـكن هذا كله لن يغنى عنك هنا . وقد يكون لك السبق على فى البداية ، ولعلك تعلمت هذا وذاك وغيرهما ، ولـكن ... انتظر وحسب .

www.alkottob.com

ولكنه لا حظ ذات صباح ، وهو فى ساحة الكلية المربعة ، أن « فرناند هولم » يتطلع إليه بدوره ، وكان فى الواقع يثبت عوينات ليزداد تمكنا من رؤيته .. فدار بير من فوره وابتعد .

وفضلا عن ذلك نقل فردناند . من فوره تقريباً ، الى فصل أعلى ، بفضل حصوله على شهادة الثانوية العامة . ثم إنه التحق بفرع آخر فى الكلية غير فرع بير — وهو فرع إنشاء الطرق والسكك الحديدية — وعلى ذلك لم يكن يتم بينهما لقاء قط إلا فى فناء الكلية أو ممراتها .

ولكن حدث فى عصر أحد الأيام أن سمع بير وقع خطوات وراءه وهو يقوم بعمله فى غرفة الرسم الكبيرة ، وإذ تلفت رأى كلاوس بروك . . وفردناند هولم .

قال هولم :

— كنت أريد أن نتعارف .

وعند ما قدمه كلاوس له مد الفتى يدا عريضة بيضاء فى إبهامها خاتم ذو فص أحمر ، وأردف :

— علمت أنك سمي ، وأخبرنى بروك أن اسمك مستمد من ضيعة فى الريف تسمى « هولم » :

وقال بير :

— نعم . وأبى كان مزارعاً ريفياً بسيطاً .

وتضايق على الفور من نفسه بسبب نبرات المسكنة التى بدا أنها شابت صوته .

وقال الآخر :

— حسناً ، والأصلح هو المناسب دائماً . ولكن اسمع ، أوصلت فرقة السنة الأولى الى هذا الحد من مقرر « التصميمات الهندسية » ؟ عفوا عن سؤالي ، ولكن

www.alkottob.com

اعلم أننا حصلنا فى الأكاديمية العسكرية على قسط كبير من هـذا النوع من الدراسة ، ولذلك تراني ملماً ببعض الشيء عنها .

وقال بير لنفسه : « أوه ، أنت تريد أن تعدني بقليل من إرشادك النافع إن كانت لديك الجرأة الكافية ، أليس كذلك ؟ » ثم قال بصوت عال :

ـــ لا ، فهذا التصميم كان مرسوماً على السبورة ـــ وقد تركته هناك فرقة السنة الثانية ـــ فوددت أن أرى هل أستطيع استخلاص شيء منه .

ونظر إليه الآخر بطرف عينه ، ثم أومأ وقال :

ـــ وداعاً ، وأرجو أن نلتقي ثانية .

ومضى إلى سبيله ، وأحـدث حذاؤه صريراً خافتاً وهو يغادر الغرفة ، وبدا أن خلقه الطبيعي السهل ، ومشيته ، ونبرات صوته .. بدا أن هذا كله آثار بير وأشعره بالمذلة . ولـكن ، ما علينا .. دعه فقط ينتظر !

ومرت الأيام والأسابيع . ولم يلبث بير أن وجـد موضوعاً يشغل نفسه به ، غير محاولة التغلب على فردناند هولم . وكانت ملابس لويز لاتزال معلقة فى الغرفة دون أن تمسسها يد ، وكان حذاؤها لا يزال موضوعا تحت الفراش . وقد ظل يبدو له أنها ستفتح باب الغرفة يوما ، دون مراء ، وستدخـل عليه . وفى المساء وهو راقد هناك وحده ، لم تكن الأحجية تفارقه أبداً : أين هى الآن ؟ .. لـماذا كان لابد أن تموت؟ .. أهوان يلتقي بها أبداً ؟ .. إنه لا يكف عن رؤيتهـا واقفة على نحو ما وقفت فى اليوم الذى عزفت فيه للمرضى على الـكمان فى جناحهم بالمستشفى . غير أنها تلبس الآن البياض ، وبدا من الطبيعى جـداً أن تـكون لها اليوم أجنحة . وهو يسمع غناءها أيضاً ... وهذا الغناء يهزه ويهدهده . وقد أصبح هذا كله عالما صغيرا منفصلا يستطيع أن يتخذ منه نجعة للهدوء والتعبد يوم الأحد . ولم يكن لهذا العالم صلة بالعقيدة والدين . ولـكنه كان موجوداهناك .. وفى أثناء عمله نهاراً ، كان يستطيع أن يستشف ـــ بوعى منفصل كل الانفصال ـــ الحـان كمان تجرى على الأوتار ، وكأنها أمواج مائلة الى الاحمرار تقبل عليه من بعيد ، وتـملأ نفسه نغما متناسقاً إلى حـد يحمله على الابتسام دون أن يدري .

www.alkottob.com

ومع ذلك كان يحدث غالباً أن يصاب بنوع من الجوع يجمل كيانه كله ينكشف عن موجة هائلة من نعم أرغن الـكنيسة . ولـكنه لم يعد يذهب الى الـكنيسة قط . بل إنه ليمر ببابها فى شىء من التحدى . ولعل الإرادة العليا هى التى انتزعت لويز منه ، وهو لن يشكرها على ذلك، ويطأطىء رأسه .. وكأنما أصبح نصب عينيه حساب منتظر .. حسابه مع شىء بعيد ، خارج نطاق هذه الحياة — وعند مايحين ذلك الأول ، لا بد له من أن يعمل على التمكن من شعوره بأنه حر .. حر .

وفى صباح كل يوم أحد ، عند ما تدق أجراس الـكنيسة ، كان يجنح الى كتبه ، وكأنما يريد أن يجد عندها الأمان .. المعرفة .. هل تستطيع المعرفة أن تشبع جوعه الى ترانيم الصلاة؟ .. كم من مرة وقف مشدوها أمام بعض المعجزات الصناعية فى أول عهده بالعمل فى المصانع ، وهو اليوم يستجمع القوة ليصنع المعجزات بنفسه . وعلى ذلك راح يقرأ ويقرأ ، ونهل كل ما استطاع نهله من مدرس أو كتاب. وفـكر ، وفـكر مستخلصاً المعارف لنفسه . وكانت الدروس المقررة ، والواجبات المفروضة : كافية فى ذاتها ، ولـكن بير لم يكف قط عن النظر الى أبعد من ذلك ، وكانت هناك بالنسبة له مسائل ومسائل متزايدة ، ومعضلات ثم معضلات جديدة .. كان هناك الجديد دائماً ، والتقدم ثم التقدم دون انقطاع صوب المجهول . إنه لم يخط حتى الآن إلا خطوة واحدة فى علوم الطبيعة والرياضة والـكيمياء .. وتـكهن بأنه لاتزال أمامه عوالم من المعرفة، ولا بد له أن يتقدم ويتقدم ويتقدم دون إبطاء . وهل يمكن أن يحين ذلك اليوم الذى ينبغى أن يبلغ فيه النهـاية . ماهى المعرفة ؟ .. وماذا أفاد الناس من كـل ما تعلموه ؟ أنظر الى المدرسين الذين عرفوا أشياء كثيرة ؟ .. هـل أصبحوا أعظم من غيرهم ، وأوفر مالا ونباهة ؟ أيمكن لطول الدرس أن يبلغ بالإنسان حدا يستطيع معه فى ليلة من الليالى أن يرفع إصبعاً ويجعل النجوم تنفجر غناء؟ من الأفضل أن يسير المرء قدما على أية حال . ولـكننا نتساءل مرة أخرى : أتستطيع الدراسة أن تتيح للإنسان نشوة صلاة الأحد ، تلك النشوة التى تلقى الضوء على جميع المشكلات ، وتسمو بالإنسان الى سعادة لا توصف حيث تمتد روحه حتى تستطيع احتضان العوالم الأبدية ؟.. حسناً .. إن الأفضل ، على أية حال ، هو أن يسير المرء قدما .. يسير قدما ، مبكرا وغير مبكر .

وفى يوم من أيام ذلك الربيع ، إذ بدأت أشجار شوارع المدينة تزهر، كان كلاوس بروك ، وفردناند هولم ، يجلسان فى مقهى بشارع الشمال .. وقال فردناند :

www.alkottob.com

ها هو ذا صديقك يسلك طريقه .

وشاهدا بير هولم ، وهما يتطلعان من النافذة ، ماراً بمكتب البريد فى الناحية المقابلة من الشارع . وكان رث الملابس ، متسخ الحذاء ، يسير الهوينى وقبعته المدرسية مائلة الى الأمام ، ويبدو أنه ، برغم ذلك ، مدرك لكل ما يحدث فى الطريق ... وقال كلاوس :

— ترى ما الذى يمضى فى تدبيره الآن !

— انظر هناك .. أعتقد أن هذه العربة من طراز لم يره من قبل قط . عجباً . إنه أوقف سائقها ...

وقال كلاوس ضاحكا وهو يتراجع عن النافذة حتى لا تقع عليه عين :

— أراهن وأنا مطمئن على أنه قمين أن يتسلل الى مابين عجلاتها ليقف على أى شىء يريد الوقوف عليه .

وقال فردناند وهو يزحزح نظارته :

— إنه يبدو شاحباً مكدوداً ، وأحسب أن أهله ليسوا ميسورى الحال ، أليس كذلك ؟

وفتح كلاوس عينيه محملقاً فى جليسه :

— يخيل الى أنه لا ينوء بأكداس المال .

وشربا جعتهما ، وجلسا يدخنان ويتحدثان فى شتى الموضوعات الى أن لاحظ فردناند عرضا :

— على فكرة ... فيما يتعلق بصديقك ... هل أبواه على قيد الحياة ؟

ولم يكن كلاوس يميل ، بحال من الأحوال ، الى الخوض فى شئون بير العائلية ، وأجاب فى اقتضاب ... لا ، انه لايظن ذلك .

— أخشى أنى أضايقك بأسئلتى ، ولكن هذا الفتى يثير فى الواقع اهتمامى نوعا . ففى وجهه شىء ... شىء ... يستوقف النظر ... حتى طريقته فى المشى ... أين رأيت

www.alkottob.com

من يخشى مثله ؟ وقد سمعت أنه يعمل كأنه آلة بخارية ، أليس كذلك .

وكرر كلاوس القول :

ـ يعمل !... إن الطريقة التي يعمل بها ستدمر صحته عما قريب . وهو يحسب ، على ما أعتقد ، أنه بالدرس الوفير سيستطيع آخر الأمر أن يعرف . ها ها ها !

ـ يعرف ماذا ؟

ـ يعرف كيف يدرك الله !

وقال فرناند وهو ينظر متفرساً من النافذة :

ـ إنه مضحك إلى حد كبير .

ـ لقد صادفته بين التلال يوم الجمعة الماضى . كان هناك يدرس الجيولوجيا ... إن كان ذلك يرضيك ... ولو كانت هناك أية محاضرة ، فى أى مكان ... سواء كانت خاصة بعلم الفلك ، أو بشاعر فرنسى ، فإنك تستطيع أن تقسم مطمئنا بأنه جالس هناك يدون مذكرات عنها . إنك لاتستطيع أن تجارى فتى كهذا ! .. وقد تقع عينه على اسم جديد فى مكان ما .. على أرسطو مثلا .. إن ذلك شىء جديد ، فلا بد له إذن من الذهاب الى دار الكتب ليبحث عنه ، ثم انه يقضى الليالى بعد ذلك ساهراً مالئاً ذهنه بترجمات إغريقية بحق الشيطان قل لى كيف يمكن للمرء أن يجارى رجلا يقتحم سبل المعارف على هذا النحو .. بيد أن هناك أمراً لا يعرف عنه شيئاً .

ـ وما هو هذا الأمر ؟

ـ حسنا .. لنقل الخمر والنساء .. والمزاح عموماً .. والله إن شيئاً واحداً ينقصه .. وهو « الشباب » .

وقال فرناند وهو يصعد شيئاً أشبه بزفرة :

لعله لم يستطع أن يوفر لنفسه مثل هذا الرغد

www.alkottob.com

واستمرت جلستهما بعض الوقت . وكان فرناند يدس بين حين وآخر ، كلاوجه كلاوس غير حذر ، سؤالا صغيراً آخر عن بير . وعند ما فرغا من شرب الكأس الثانية سلم كلاوس بأن الناس قالوا عن أم بير إنها لم تكن .. حسنا .. لم تكن خيراً مما هو حرى بها أن تكون

وألقى فردناند بهذا السؤال عرضا :

— وماذا عن أبيه ؟

وعند ذلك احمر وجه كلاوس خجلا ، وتلعثم شاعراً بالضيق :

— ما من أحـــد .. ما من أحد يعرف عنه شيئاً يذكر ولو أنى عرفت شيئاً لأفضيت به إليك .. ولينزل بي العقاب إن لم أفعل .. ليست لأحد أية فكرة عمن يكون . وأغلب الظن هو .. هو فى أمريكا .

وقال فرناند ضاحكا :

— لقد لاحظت أنك تبدو دائماً شديد الغموض عند ما تعرض لموضوع أسرته .

ولكن خطر لكلاوس أن شيئاً من الشحوب بدا على صاحبه .

وبعد بضعة أيام ، بينما كان بير جالسا وحده فى غرفته فوق « الاسطبل » ، سمع وقع خطوات على السلم ، وفتح الباب ، ودخل فردناند هولم .

ونهض بير مكرها ، وأمسك بظهر كرسيه كأنما أراد أن يحفظ توازنه . إذا كان هذا الغر قد أتى — موفداً مثلا من قبل ذلك المدرس — أو ليسلبه لقبه — فهو سيلقيه إذن فوق السلم .. هذا كل ما هنالك .

وبدأ الزائر يقول وهو يضع قبعته جانباً ، ويجلس فى أحد المقاعد :

— فكرت فى أن أزورك وأرى أين تقيم .. يبدو لى أنى جئتك على غرة يؤسفني أني أزعجتك ولكن الواقع أن هناك أمراً أردت أن أحدثك في شأنه .

www.alkottob.com

— وجلس بير بعيداً عن زميله إلى أقصى حد يمكن أن يعد لائقا ..

— أوه ، أهكذا الأمر ؟

— أنا لاحظت، حتى فى المرات القليلة التى تقابلنا فيها ، أنك لاتميل إلى . حسنا ، ولكن اعلم أن هذا أمر لن أصبر عليه .

وسأله بير وهو لا يكاد يعرف أيضحك أم لا :

— ما ذا تقصد ؟

— أريد أن نصبح أصدقاء .هذا كل ما فى الأمر . ولعلك تعرف عنى أشياء كثيرة تزيد على ما أعرفه عنك ، ولكن هذا لا يهم . عجبا .. أأنت تنقر دائماً بأصابعك على المائدة هكذا ؟ ها .. ها .. ها ! ماذا ، لقد كانت هذه عادة أبى أيضا .

وحملق بير فى جليسه ملتزما الصمت ، ولكن أصابعه توقفت عن النقر .

— اعلم أنى حرى أن أحسدك على الحياة التى تحياها . وعند ما تصبح مليونيراً سيكون لك ماض لائق بملايينك . ولا بد أنك ستعرف عندئذ عن الحياة أكثر كثيراً مما نعرف نحن .. ولا بد أن يكون العلم الذى تستخلصه أنت من الكتب ذا قيمة روحية تختلف كل الاختلاف عن القيمة التى نستخلصها نحن جميعاً .. نحن الذين زودونا على نحو آلى بالدروس والتعليم وما أشبه منذ كنا أطفالا .. وهل أنت تزمع الآن دراسة الهندسة ؟

وقال بير :

— نعم .

وأضافت هيئة وجهه هذه العبارة فى وضوح :

— وما شأنك أنت بهذا ؟

— حسنا . يخيل إلى أن « التكنيكى » المعاصر كاهن « على طريقته » ...

www.alkottob.com

أو لعله حرى أن أدعوه خلفا لبرومثيوس[1] القديم الذى هو أيضاً سلف جدير بالاحترام الكامل ، ألا تظن ذلك ؟ ولكن ألم يطرق ذهنك قط أن كل انتصار تحرزه فطنة الإنسان على الطبيعة يستخلص من يد الأقدار جزءا من القدرة الإنسانية ؟ .. إنى أشعر دائماً كما لو كنا نستعمل النار والصلب والقوى الميكانيكية ، والفكر الإنسانى، أسلحة تمرد على استبداد الأقدار . وسيحل اليوم الذى لن يحتاج فيه الإنسان إلى الاستعانة بالصلاة[2]، ستدق الساعة التى تضطر فيها قوى الأقدار أن تستسلم وتخضع بدورها .. إن الله لا يحب المهندسين .. هذا رأيى .

وقال بير فى إيجاز :

— هذا القول يبدو حسن الوقع .

ولكنه أقر لنفسه أن صاحبه عبر عن شىء كان يناضل فى ذهنه التماسا للتعبير .

واستطرد فردنا ند يقول :

— فى الوقت الحاضر ينبغى لنا نحن الاثنين بالطبع أن نقنع بأمور أصغر شيئاً . ولست أجد بأسا فى الاعتراف بأن تمهيد جزء من طريق ، أو مد جزء من سكة حديدية، أو إقامة جسر على خندق ، ليست بالأعمال التى تستميلنى أشد الاستمالة . ولكن إذا استطاع الإنسان أن يخرج إلى العلم الفسيح فهناك أشياء كثيرة واجبة التحقيق تتيح له فرصا كثيرة لتطوير ما بنفسه . لو حدث وكان بنفسه شىء ما . وقد اعتدت أن أحسد العسكريين العظام الذين رحلوا إلى أقاصى الأرض ، وقهروا القبائل المتوحشة ،

---

(١) برومثيوس فى الأساطير الأغريقية هو الذى وهب الإنسان النار فأغضب ذلك جوبيتر الذى قيده بصخرة فى القوقاز وسلط عليه نسراً يأكل كل يوم كبده التى كانت تتجدد وظل الأمر كذلك حتى أنقذ هرقل الأسير .

(٢) يقصد المؤلف أن هذه هى خواطر الشباب المتمرد ، ولكن سيتضح فى سياق القصة ، بعد أن يجرب أولئك الشباب ، أن الإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن خالقه .

www.alkottob.com

وأسسوا الامبراطوريات ، وأشاعوا النظام والحضارة أينما حلوا[١]. ولكن المهندس في أيامنا الراهنة يستطيع هو أيضا أن يجد مهاما يستطيع القيام بها فيما إذاخرج إلى العالم .. إنه يستطيع أن يحفر المصارف لمستنقعات تبلغ آلاف الأميال المربعة ، وأن يتحكم في مياه النيل ، أو يصل مابين أوقيانوسين .. هذا هو نوع الأعمال التي سأضطلع بها يوما ما .. إني سأرحل على أثر إتمام دراستي هنا . وسوف نترك للمهندسين المقبلين .. ولنقل إن ذلك سيتم في مائتي عام أو مايقارب ذلك .. سوف نترك لهم بدء إقامة خطوط جوية للسائحين بين النجوم .. أتسمح لي أن أدخن سيجارة ؟

وقال بير :

— لا .. تفضل ودخن .. ولكن يؤسفني ألا تكون لدي سجائر ..

— أنا عندي .. شكراً على أية حال .

وأخرج فردناند علبة سجائره ، وأشعل لنفسه سيجارة عندما اعتذر بير عن أخذ واحدة .. وقال :

— اسمع . ألا تود أن تخرج معي ، ونتغدى في مكان ما ؟

وحملق بير في زائره .. ما القصد من هذا كله ؟

أنا اسبارطي من حيث المبدأ ، ولكنهم انتهوا أخيراً من تقسيم تركة أبي ، وأصبحت بذلك أملك نقوداً في الوقت الحاضر ، فلماذا لا أقيم لك وليمة غداء صغيرة احتفالا بهذا ؟ وإذا أردت استبدال ملابسك فإني أستطيع انتظارك في الخارج .. ولكن تعال كما أنت .. هذا إذا آثرت ذلك بالطبع .

وازدادت حيرة بير شيئاً فشيئاً . أهناك أمر مقصود من وراء هذا كله أم أن

---

(١) لم تقصد الدول الاستعمارية من غزواتها إلا استغلال الشعوب ، ولكنها تتستر دائماً وراء ادعاء نشر الحضارة ، ودعواها هذه أصبحت اليوم مفضوحة لايجهل حقيقتها أحد .

www.alkottob.com

الفتى ببساطة من صنف طيب الى حد يثير الدهشة ؟ وأذعن له آخر الأمر فبدل « ياقة » قميصه ، وارتدى أحسن ثيابه ومضى معه .

ولأول مرة وجد نفسه فى مطعم من الطراز الأول يضم موائد صغيرة مغطاة بأغطية ناصعة البياض ، وأزهاراً فى آنية زجرفية ، ومناشف ملفوفة على هيئة أقماع السكر ، وكؤوساً زجاجية مزركشة ، وأقداح نبيذ ملونة . وبدا على فردناند أنه معتاد على مثل هذه الجلسة تماماً ، وعامل رفيقه بمجاملة ودية . وعمل خلال تناول الطعام على إدارة الحديث ، فى معظمه حول طفولة بير وأيام صباه .

وعند ماانتهيا من تناول القهوة والتدخين مال فردناند فوق المائدة صوب رفيقه وقال :

— اسمع ألا تظن أنه ينبغى لنا أن نسقط الكلفة بيننا ، ولا نتنادى بالألقاب ؟

وقال بير ، وقد تأثر الآن فعلا :

— أوه ، نعم !

— كلانا يدعى هولم كما تعلم .

— نعم . هذا صحيح .

— وفضلا عن ذلك من يدرى ألا تكون بيننا صلة من نوع ما ؟ دع عنك هذا الآن ، ولا تبد هكذا ! أنا لا أريد منك إلا أن تنظر إلى على أنى صديقك الحميم ، وأن تلجأ إلى فيما إذا كانت هناك أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك . وليس هناك مايدعونا بالطبع إلى أن يعتمد كل منا على الآخر عند ما يكون الناس على مقربة منا ، ولكن يجب أن نضم كلاوس إلينا ، ألا ترى ذلك ؟

وشعر بير بدافع قوى يدفعه إلى الهروب . أيعرف رفيقه الأمر كله ؟... إن كان الأمر كذلك فلماذا لا يجاهر فى صراحة .

وبينما هما يسيران عائدين إلى دارهما تحت الضوء الصافى فى ليلة من ليالى الربيع تأبط فردناند ذراع رفيقه وقال :

www.alkottob.com

ـــ لست أدرى هل بلغك أنى على غير وفاق مع أهل بيتى ... ولكننى فى نفس المرة الأولى التى رأيتك فيها خالجنى شعور بأن كلا منا ينتمى إلى الآخر . ويبدو على نحو ما أنك تذكرنى بـ ... حسناً ، أقول لك حقاً إنك تذكرنى بأبى ... ودعنى أقل لك إنه كان سيداً نبيلا ...

ولم يحر بير جواباً . وتوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن الأيام القليلة التالية كانت مثيرة لبير . وهو لم يستطع أن يتبين مدى مايعرفه فردناند عنه . وليس ثمة شىء فى الدنيا يمكن أن يحمله على أن يفضى هو نفسه بأى شىء جديد . ولم يسأله صاحبه أية أسئلة أخرى ، بل كان مجرد صديق من الطراز الأول يعامله كما لو أن صداقتهما ترجع إلى سنوات خلت . ولم يعاود حتى سؤاله عن طفولته ، ولم يشر مرة أخرى قط إلى أسرته هو . وظل بير يذكر لنفسه دائماً أنه لابد من بقائه على حذر ، ولكنه لم يستطع ، على أية حال ، أنه يجد مهربا من الشعور بالغبطة كلما قدر لهما أن يتقابلا .

وقد دعى ذات مساء ، هو وكلاوس ، الى حفلة شراب فى بيت فردناند ، ووجد نفسه فى غرفة بديعة الأثاث ذات لوحات معلقة بالحيطان ، وصور فوتوغرافية لأفراد أسرة المضيف من بينها صورة لأبيه وهو بعد شاب يرتدى السترة العسكرية ، وصورة أخرى لجده الذى كان قاضياً من قضاة المحكمة العليا ... وقال فردناند مبتسما :

ـــ يا له من لطف بالغ منك أن تهتم بأهلى كل هذا الاهتمام .

وتنقل لحظ كلاوس من أحدهما الى الآخر ، وتساءل فى سره عن حقيقة الأمور القائمة بينهما .

وحلت عطلة الصيف ، واستعد الطلبة للتفرق وانصراف كل الى سبيله . وأقبل فردناند يوما على بير وقال له :

ـــ اسمع يا صديقى ، إنى أرجوك أن تسدى لى معروفا كبيراً ... لقد رتبت أمرى على قضاء هذا الصيف على شاطىء البحر ، ولكن لدى فرصة أيضاً للاصطياف فوق التلال . وأنا لا أستطيع أن أحضر بمكانين مختلفين فى وقت واحد ... فهل

www.alkottob.com

بوسعك الذهاب الى أحدهما نيابة عنى ؟وسأدفع بالطبع جميع النفقات .

وقال بير ضاحكا :

— لا ... شكراً م

ولكن عند ما أقبل كلاوس بروك فى اللحظة السابقة على افتراق الصديقين قال :

— اسمع يا بير ، ألا تظن أنه يمكن أن أشترك معك فى وضع لوحة مرمرية على ... قبر لويز ؟

وتأثر بير ، ورأيت كتفه وقال :

— يا لك من صديق طيب يا كلاوس .

وفى أواخر الصيف قام بير وحده بجولة فى أنحاء الريف ، وكان يذهب إلى إحدى الضياع ، كلما وجد الفرصة متاحة ، ويقول لأهلها : « أترغبون فى الحصول على خريطة جيدة لضيعتكم ؟ إن ذلك يكلفكم عشرة « كراونات » بالإضافة إلى نفقات إقامتى فى خلال قيامى برسمها » وجعله ذلك يقضى عطلة ممتعة حقاً ، وعاد إلى بيته وفى جيبه مبلغ قليل من المال ينفعه .

وكانت سنته الدراسية الثانية فى الكلية شديدة الشبه بسنته الأولى . وبذل جهده فى العمل . وكان صديقاه يحضران بين الحين والحين ، ويدفعانه إلى قضاء ليلة لهو وأنس . ولكنه بعد أن يصبح مرحا مع الآخرين، ويغنى ويصيح وسط المدينة المستسلمة للنوم .. وبعد أن يخلو آخر الأمر الى نفسه ، راقداً فى فراشه تحت ستر الظلام ، كانت حياة جديدة مختلفة أشد الاختلاف تبدأ بالنسبة له وهو ينفرد وجها لوجه بأعماق نفسه . الى أين أنت سائر يا بير ؟ وأى هدف تستهدفه من وراء جهودك ؟ .. ويحاول الفتى أن يجيب متورعاً كما يفعل فى قيامه بصلوات المساء .. أين؟ ولم السؤال.. إنى سأصبح بالطبع مهندساً عظيم القدر . . وماذا بعد ؟ . . سأصبح واحداً من أبناء بروميثيوس الذى رأس الثورة على آلهة الأساطير . وماذا بعد؟.. سأساعد على رفع السلم الهائل الذى يستطيع الناس أن يتسلقوه ، ويرتفعوا الى قمم أعلى وأعلى صوب النور والروحانية والتسلط على الطبيعة .. وما ذا بعد ؟ . . أعيش سعيداً وأتزوج

www.alkottob.com

وأرزق أطفالا ، وأهيىء بيتاً فخماً جميلا ... وماذا بعد ! أوه حسناً ، لابد أن أهرم بالطبع فى يوم من الأيام وأموت ... وما ذا بعد ؟.. نعم ، ما ذا بعد؟

وفى هذه الآناء كان يجد راحة غامضة عند ما يلوذ بالعالم الذى وقفت فيه لويز.. مسترسلة فى العزف على نحو ما كان يراها دائماً ... ويتأرجح على أمواج موسيقاها الناعمة القرمزية ... ولكن لماذ كان يشعر هنا ، على الأخص ، بذلك الجوع الى ... الى شىء يزيد على الواقع ؟

وأتم فردناند دراسته فى الكلية ، وخرج ، كما قال فيما مضى ، الى العالم الفسيح ، ورحل كلاوس معه . وعلى ذلك كان بير يرى بمفرده غالباً فى أثناء سنته الدراسية الثالثة ، وكان يتأبط كتبه دائماً ، ويبدو منحنياً الى الأمام .

وفى نفس الآونة التى كان يستعد فيها لامتحان آخر العام وردت إليه رسالة من فردناند مرسلة إليه من مصر . وقد جاء فيها « تعال إلينا هنا أيها الصديق . لقد التحقنا أخيرا بوظيفتين طيبتين فى شركة بريطانية ... شركة براون بروس اللندنية — وهى تقيم سككا حديدية فى كندا ، وجسوراً فى الهند ، وتبنى موانىء فى الأرجنتين ، وتحفر قناة وتقيم سدوداً هنا فى مصر ... ونحن نستطيع أن نلحقك بوظيفة صغيرة لطيفة ... وظيفة رسام تبدأ حياتك العملية بها .. وإنى أرفق بهذا الخطاب مبلغاً من المال لنفقات سفرك ، فتعال إذن »

ولكن بير لم يرحل الى صديقيه على الأثر ، بل قضى عاماً آخر فى الكلية عمل خلاله مساعداً للأستاذ الحاضر فى الميكانيكا ، وواصل فى الوقت نفسه دراسة هندسة الطرق والسكك الحديدية كما فعل أخوه من أبيه . فقد كان هناك دافع غريزى ما يلح عليه ألا يتخلف عنه حتى فى هذا .

وبينما العام يمر ازدادت رسائل صديقيه إلحاحاً وإغراء على التوالى ، وكتب له كلاوس يقول : « إن المهندس فى الخارج هنا رسول لايبشر بالله ولكن بقدرة أوربا وثقافتها . وعليك ياصديقى أن تشترك فى هذا .. هنا عمل ينتظرك جدير بقائد عظيم . »

وأخيراً ، فى يوم من أيام الخريف ، عند ما امتدت أشجار الغابات صفراء اللون حول المدينة ، غادر بير بيته مستقلا عربة ، حاملا حقيبة سفر كبيرة جديدة ، ربطها

www.alkottob.com

الى جانب السائق . وكان قد عرج على الجبانة قبل بدء رحيله ، وحمل معه باقة أزهار صغيرة ليضعها على قبر لويز . ومن ذا يستطيع أن يعرف هل يرى ذلك القبر ثانية ؟

ووقف فى محطة القطار لحظة وهو يدور بعينيه الى المدينة القديمة وكاتدرائيتها ، وقلعتها القديمة ، حيث يروح ديدبانها ويغدو تجاه خط الأفق ... أهـذه هى نهاية صباه ؟... نهاية لويز ... والغرفة القائمة فوق الأسطبل ... والمستشفى ، والمصحة والكلية ... وهناك ينبسط الفيورد ... وفى مكان ما على الشاطىء ، بعيـد كل البعد ، يقع دون شك كوخ من أكواخ الصيادين ؛ صغير أشهب ، به زوج طيبة تملأ وجهها البشور ، ورجل طيب مقوس الساقين ، لعله تسلم الآن « طرد » البن والقهوة المرسل إليه هدية وداع

وهـكذا رحل بير الى العاصمة ؛ ومن ثم الى العالم الفسيح .

www.alkottob.com

الكتاب الثانى

الفصل الأول

مضت سنوات ... سنوات كثيرة العدد ... وحل الصيف مرة أخرى ، وحل شهر يونيو . وكانت باخرة ركاب ، آتية من « أنتويرب » الى كريستيانا ، تشق ذات مساء بحراً بلغ من هدوئه التام أن بدا كأنه مرآة كبرى ملآى بسحب شهباء ، وأخرى ملونة باللون الأحمر . وكان على ظهر الباخرة ركاب عديدون لم يشعر أى واحد منهم بميل إلى النوم ، فالجو دافىء كل الدفء ، جميل كل الجمال . وكان بعض الفنانين العائدين الى وطنهم من باريس أو ميونخ ينطلقون هنا وهنا باحثين عن متع يزجون بها الوقت . وهناك آخرون طلبوا نبيذاً ، واكتشف غيرهم من يعزف لحنا موسيقيا . ولم يلبث الرقص أن حمى وطيسه دون أن يعلم أحد كيف حدث هذا . وقالت واحدة من الأمهات الحذرات ... أو اثنتان منهن ... قالت هذه وتلك لابنتها : « لا ، يا عزيزتى ، لا بالتأكيد . » ولكن لم يمض على اعتراض الأمهات وقت طويل حتى أخذن يرقصن هن أيضاً . ثم ظهر هناك طبيب ذو عوينات يقف على برميل ، ويلقى كلمة . ولم يلبث أن أمسك اثنان من الفنانين بالربان ذى اللحية الشهباء وطافوا منوهين به فى أرجاء ظهر الباخرة . ولكم كان الليل صافياً ، والسماء بديعة الحمرة ، والهواء ناعماً ! .. وكانت جميع القلوب هنا فى عرض البحر تشعر بخفة الطرب والسعادة .

وسأل الرسام ستوريكر صديقه المثال براآس :

— من هذا الثقيل ذو الوجه الجامد الذى يبدو هناك شديد التعاظم والتعالى على الفكاهة الخفيفة اللطيفة ؟

— هذا الرجل ؟.. أوه ، إنه هو الذى أثار أذهاننا على نحو خارق للعادة عند ما كنا نتحدث وقت الغداء عن الآنية المصرية .

— هذا صحيح والله ! . . أظن أنه يشتغل بالتدريس فى الخارج وعند ما أخذنا

www.alkottob.com

نتحدث عن أثينا ، وعن النحت الإغريقي تفضل علينا وصوب معلوماتنا عن هـذا الموضوع أيضاً

— إني سمعته هذا الصباح ينوه للطبيب بعلم الآثار الآشورية ، فلا عجب إذا هو لم يرقص مع الراقصين !

وكان الراكب الذى يتحدثون عنه رجلا ربعة القامة تتراوح سنه بين الثلاثين والأربعين على ما يبدو ، يضطجع متمدداً على مقعد من مقاعد الباخرة ، متباعداً قليلا عن سائر الركاب . وكانت ثيابه كلها رمادية اللون ابتداء من قبعة سفره الى غطاءى حذائه الأسمر وكان وجهه شاحباً ، ولحيته السوداء يخطها الشيب . ولكن عينيه لم تخل من ومضات سرور طفيفة وهما تتابعان الراقصين . كان هذا الرجل هو بير هولم.

وبينما هو جالس هناك يرقب ما يحدث ضايقه أن يشعر بعجزه عن ترك نفسه تنطلق مثل الآخرين . ولكن وقتاً طويلا جدا كان قد مضى على اختلاطه بأبناء وطنه الى حد أنه يشعر الآن بعدم ثبات قدميه ، وبأنه يكاد يكون غريباً بينهم . وفضلا عن ذلك فإنهم سيشاهدون بعد بضع ساعات جزائر الصخر على شاطىء النرويج . وأثارت هذه الفكرة فى نفسه انفعالا غريبا ... كانت هـذه لحظة حلم بها مراراً وتكراراً هناك فى العالم الخارجى الفسيح.

وبعد فترة من الوقت خيم السكون على ظهر الباخرة ، ونزل إلى أسفل ولكنه تمدد على فراشه دون أن يخلع ملابسه ، وفكر فى تلك الآونة التى قطع خلالها ذلك الطريق راحلا الى العالم الخارجى ، فقيراً مغموراً وأخذ يرقب آخر جزيرة من جزائر وطنه وهى تغوص وراء الأفق . وكم من أحداث وقعت منذ ذاك الوقت ... وأية حياة تنتظره الآن هنا وقد عاد أخيراً الى وطنه !

وصعد الى ظهر المركب ثانية بعيد الساعة الثانية صباحا ، ولكنه وقف ساكناً ذاهلا إذ وجد الباخرة تشق طريقها بين سديل صوفى كثيف من الضباب وقال لنفسه « يا للشيطان ! » وبدأ يذرع ظهر السفينة رائحاً غادياً : قد الصبر ، وبدا أن اللحظة

www.alkottob.com

العظيمة المرتقبة أضاعها الضباب وأفسدها ! ولكنه توقف فجأة عند حاجز السفينة ، وبقى هناك يحدق فى الناحية الشرقيه .

ما هـذا ؟ هناك بقعة متألقة بدت عن بعد فى أعماق الضباب الشبيه بالصوف . وأخذت الكتلة الرمادية المحيطة به تنتعش ، وبدأت تتحرك وتحمر ، وتقل كثافتها حتى لكأنها تنساب متحولة الى لهب ... آه ! لقد عرف الآن الأمر ! إنه قرص الشمس يصعد من ماء البحر . وأخذت كل بقعة على ظهر الباخرة مبللة بأنداء السماء تسطع فى لون الذهب . وأخـذ الجو يزداد فى كل لحظة وضوحا وخفة ، وازداد مرمى النظر ابتعادا . وقبل أن يستطيع التنبه الى مايحدث تكورت الشهبة المظلمة متحولة الى ربى وجبال أخـذت تزداد خفة وتسبح الى أعلى وتتبدد . وانبسط هناك الصباح الساطع بعد أن انكشف كل خفى ، وخيمت على البحر سماؤه الصافية الطافحة بأضواء الشمس .

وحان الآن وقت إخراج منظـاره المكبر . ووقف هناك بلا حراك مدة طويلة محدقا من خلال عوينات المنظار فى اهتمام .

هناك ! . . أهذا وهم منه ؟ .. لا ، إنه يستطيع الآن أن يرى أمامه عن بعد ، فى وضوح ، شقا أشد سوادا بين السماء والبحر ... إنها الجزيرة الصخرية الأولى ... إنها النرويج ظهرت أخيراً !

وشعر بير فجـأة بصعوبة التنفس ، ولم يستطع الوقوف دون حراك إلا بصعوبة ، ولكنه كان يتوقف عن مسيره المرة تلو المرة لينظر ثانية الى الشق الأشهب البعيد كل البعد . والآن ظهرت أيضاً طيور البحر بأعناقها الطويلة ، وأجنحتهـا التى تخفق فى سرعة ... مرحباً بك فى وطنك !

إن الباخرة تشق الآن طريقها بين الجزائر الصخرية ، ومن كل ناحية يتـكشف عالم من الصخور والجزائر الصغيرة . وهناك بدا أول كوخ أحمر من أكواخ صيادى السمك . ثم الطريق المؤدى الى رمال كوستيانا بين التـلال المغطاة بالغابات ، وبين الجزائر التى تسطع فيها الأكواخ البيض التى تقع أمام كل منهـا بقعتها الخضراء المكسوة بالحشائش ، وسارية علمها .

وراقب بير ذلك كله ، وتمـلى منه وكأنه يجد فيه غذاء . ما أطيب مذاق هـذا

www.alkottob.com

جميعه ... وشعر بأنه سيمر وقت طويل قبل أن يرتوى منه إلى حد الشبع .

ثم سارت الباخرة إلى جانب الشاطىء في يوم ساطع الشمس دون انقطاع ، وليل مضيء دائماً . ثم رأى الخلجان الزرق مع أسراب طيور الماء التي ترفرف فوقها ، ورأى الثغور الصغيرة مع بيوتها الخشبية المستطيلة البيضاء ، ونوافذها المزدانة بالأزهار . إنه لم ير من هذه الجهة قبل اليوم قط ، ولكن شيئاً في أعماق نفسه بدا كأنه يومىء إليه ويقول : « إني أعرف نفسي ثانية هنا . » وانتشرت على طول الطريق إلى فيورد كريستيانا رائحة أوراق الشجر والمروج . وقامت المزارع الكبيرة إلى جانب الشاطىء ساطعة تحت أضواء الشمس . . هكذا تبدو المزرعة الكبيرة إذن . وأومأ ثانية . كم كان كل شيء دافئاً مثمراً عزيزاً عليه بحسبانه جزءاً من وطنه . . ولكنه لم يجهل ، على الرغم من كل شيء ، أن حاله لن يكون أحسن كثيراً ، وهو في وطنه ، من حال سائح عابر . لم يكن هناك أحد ينتظره ، ويضمه إليه . بيد أن الأمور قد تتغير كل التغير في يوم من الأيام .

وبينما كانت الباخرة تقترب من رصيف ميناء كريستيانا اصطف سائر الركاب عند حاجز ظهر المركب ، وصعد إليهم الأصدقاء والأقرباء ، وكانت هناك دموع وضحكات وضم وتقبيل . ورفع بير قبعته وهو يهبط من ممر الباخرة ، ولكن لم تتح لأحد ، في هذه الآونة ، مندوحة من الوقت ليفطن إليه . وعند ما وجد حمالا من حمالي الفنادق عهد إليه الاهتمام بأمتعته ، سار وحده خلال المدينة وكأنه أحد الغرباء .

وكانت أضواء المساء قد جعلت النوم عسيراً — فهو قد نسي فعلا أن المدينة تظل مضاءة طوال الليل . وهذه المدينة من عواصم المدن . . ولكنها مع ذلك صغيرة إلى حد مؤثر ، فهو أينما سار يبدو له أنه لم يقطع إلا خطوات قليلة . وهؤلاء هم مواطنوه ، ولكنه لا يعرف من بينهم أحداً . . ليس ثمة فرد واحد يحييه . وعاد مع ذلك فقال لنفسه إن هذا كله قد يتغير كل التغير في يوم من الأيام .

وحدث أخيراً أن سمع صوتاً يقول وراءه وهو واقف يتأمل « فترينة » أحد الحوانيت :

— ماذا ! ليتداركني الله برحمته ! إنه بير هولم دون أدنى ريب !

www.alkottob.com

كان المتكلم أحد زملائه الطلبة فى الكلية التكنيكية اسمه « رايدر لوجبرج » ، وهو فتى شاحب الوجه ، نحيل كما كان دائماً ، وكان نجماً لامعاً فى الكلية ، ولكنه الآن .. لكنه يبدو الآن رث الهيئة .. مضعضعاً ، متقدم السن .

وقال بير وهو يشد على يد زميله :

— أنا لم أكد أعرفك .

— وأنت مليونير .. هكذا يقولون .. ومشهور فى العالم المترامى الأطراف ؟

— لم يبلغ الأمر هذا الحد من السوء ياصديقى العزيز .. ولكن ما حالك أنت ؟

— أنا ؟ أوه ، لا تتحدث عنى أنا .

وبينما هما يسيران معاً فى الشارع أفاض لانجبرج فى الحديث عن قصته ، وعن الحال كيف بلغت من السوء حد اليأس ، وعن ظروف المعيشة هنا فى وطنه كيف أنها باختصار تكتم الأنفاس . فهو منذ عشرة أعوام أو اثنى عشر عاما بدأ يعمل رساما فى مصلحة السكك الحديدية ، وهو لا يزال يعمل هناك كما كان مع أن له أسرة يتزايد عدد أفرادها .. وأى مرتب .. أى مرتب أتقاضاه أيها الصديق العزيز ! » .. ورفع عينيه إلى السماء ، وضم قبضتيه فى يأس . وقاطعه بير قائلا :

— أنصت إلى ، أين خير مكان فى كريستيانا نذهب إليه لنقضى وقتا طيباً فى المساء ؟

— حسناً .. هناك « سانت هانزهيل » مثلا ، وبه فرقة موسيقية .

— عظيم — أتأتى وتتعشى معى الليلة هناك ... وهل توافق على اللقاء فى الثامنة ؟

— شكراً ... أحسب أنى سأحضر !

ووصل بير فى ميعاد مبكر ، واحتل منضدة قائمة فى شرفة . وظهر لانجبرج بعد ذلك بقليل ، مرتديا ثياب يوم الأحد المعتنى على قدر الإمكان بصيانتها ... سترة

www.alkottob.com

« فراك » حائلة اللون ، وسروالا خفيفاً بارزاً من ناحيـة الركبتين ، وقبعة من « خوص » اصفر لونها بمرور الزمن .

قال بير :

— إنه لمما يبعث سرور الإنسان أن يجد ثانية شخصاً يحادثه . وقد قضيت السنة الأخيرة أو ما يقاربها ضارباً فى كل مكان وأنا بمفردى تماما .

— هل غادرت مصر منذ مدة طويلة إلى هذا الحد !

— نعم ، بل وأطول . فقدذهبت إلى الحبشة منذ غادرتها .

— أوه ، بالطبع ؛ فأنا أذكر ذلك الآن ، لقد نشر الخبر فى الصحف ... مد سكك حديدية للملك مينيليك ... أنت الذى تولى هذا الأمر ، أليس كذلك ؟

— أوه ، نعم . ولـكنى قضيت الأشهر الثمانية عشرة الأخـيرة متـكاسلا منطلقاً إلى المسارح والمتاحف وما إليها ... وبدأت ذلك فى أثينا حتى انتهيت منه فى لندن. وأذكر أنه فى يوم من الأيام ، وأنا جالس على درجات « بارثينون » ألقى فقرات من قصـة « أنتيجون » ... حانت فى آخر الأمر لحظة من لحظات الحيـاة بدا أن لها بعض المعنى .

ولـكن ، سحقا لذلك يا رجل . إنك لن تقارن هذه الترهات بشىء مثل خزان النيل العظيم ؟ ألم تقض سنوات عديدة مساهماً فى بنائه ؟ . . لنسمع شيئاً عن ذلك .. ابتداء من الشلال الأول ، أليس كذلك ؟ ... ألم تـكن لديك هناك محاجر هائلة ؟ أترى أن صلتى بك لم تنقطع تماماً وأنا مقيم هنا فى بلدى ... ولـكن أنت ... أنت يا إلهى ! ... أن شىء لابد أن تـكون عينك قد وقعت عليـه ! ... تصور الإقامة فى ... أعود فأسألك ما إسم تلك البلدة ؟

وأجاب بير فى غير مبالاة وهو يمد بصره إلى ما وراء الحديقة حيث ظـل زوار المـكان يقبلون فى أعداد متزايدة .

— أسوان .

www.alkottob.com

— يقولون إن خزان أسوان معجزة لاتقل عظمة عن معجزة الأهرام .. قل لى ثانية كم عدد عيون الخزان .. مائة و ..

وقال بير :

— مائتان وست عشرة عيناً .

وأضاف فجأة :

— أنظر !.. أتعرف أولئك الفتيات الجالسات هناك ؟

وأشار صوب جماعة من الفتيات جالسات إلى مائدة مجاورة لمائدتهما ، ومرتديات ملابس خفيفة .

وهز لانجبرج رأسه ، وكان يشعر بنهم إلى أبناء العالم الخارجى الكبير الذى لم يتوفر له حظ رؤيته ، فواصل قوله :

— كم عجبت لك كيف استطعت أن تصل إلى القمة فى مثل هذا النوع من العمل .. مد السكك الحديدية ، وبناء الخزانات وما شابه ذلك . . فى حين أن دراستك الأصلية كانت الهندسة الميكانيكية . . إنك بالطبع قضيت عاماً إضافياً فى دراسة هندسة الطرق والسكك الحديدية ، ولكن ...

أوه ، هذا الشهاب الذى تألق فى المدارس !

وقال بير :

— ما رأيك فى احتساء كأس من الشمبانيا ؟ كيف تريدها ؟ أمحلاة بالسكر أم بلا سكر ؟

— ما ذا أهناك أى فرق بينهما ؟ أنا فى الواقع لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك.. ولكن عندما يكون المرء مليونيراً .. فهو بالطبع ..

وقال بير وعلى ثغره ابتسامة :

www.alkottob.com

— أنا لست مليونيراً .

وأومأ إلى الساقى .

— أوه ! إنى سمعت أنك كذلك . ألم تخترع مضخة بخارية أبعدت عن ميدان المنافسة جميع أنواع المضخات الأخرى ؟ يضاف إلى ما تقدم ذلك الخط الحديدى فى الحبشة ...

أوه حسناً ، حسناً !...

وتنهد مردفاً :

— إنه لأمر طيب أن يكون هناك إنسان محظوظ ، ولا ينبغى لنا نحن الباقين أن نتذمر . ولكن ما أنباء الاثنين الآخرين .. كلاوس بروك ، وفردناند هولم ؟ ما ذا يصنعان الآن؟

— كلاوس يشرف على العمل فى أملاك الخديوى بإدفينا .. وعلى الخط الحديدى الخاص بها ، وهو الذى مد لنقل المنتجات وما إليها ، نعم ، إن الأمر انتهى بكلاوس إلى الإقامة بمكان صغير لطيف خاص به . والإقليم الذى يشرف عليه أكبر حجماً من مملكة الدنمارك .

وكاد لانجبرج يقع من فوق كرسيه :

— ياإلهى ! وفردناند هولم ، ما أخباره ؟

— أوه ، إنه يضطلع بأعمال أكبر شأناً . لقد راح يتشمم الصحراء الليبية ، ووجد بها أصقاعاً شاسعة تجرى عروق الماء تحت أديمها على عمق لايزيد على بضع أقدام . وإذا كان الأمر كذلك فالمسألة لا تتجاوز إقامة آلات مناسبة لتتحول مساحة هائلة من تلك الصحراء إلى جنة ينمو فيها القمح .

وأخذ لانجبرج يلهث ، وكادت أنفاسه تنقطع الآن .

— يا إلهى !... ياله من كشف !

www.alkottob.com

وأطل بير على الفيورد ، وواصل قوله :

— وأخيراً تمكن فى العام الماضى من إثارة اهتمام الخديوى ، وقد أنشأ الآن شركة مساهمة رأسمالها بضعة ملايين ، وفردناند يشغل منصب رئيس مهندسيها .

— وما هو مرتبه ؟ أيبلغ خمسين ألف كراون ؟

وقال بير دون أن يسلم من الخوف على صديقه أن تصيبه نوبة إغماء .

— يبلغ مرتبه مائتى ألف فرنك فى العام ... نعم إن فردناند فى قدير .

واحتاج لا نجبرج الى بعض الوقت ليلتقط أنفاسه من جديد . وسأل أخيراً وهو ينظر بطرف عينه :

— وأنت وكلاوس بروك ، أظنكما ساهمتما بملايينكما فى الشركة .

وابتسم بير وهو يطل بنظره على الحديقة وقال وهو يرفع كيأسه :

— فى صحتك .

وكان هذا رده الوحيد .

واسترسل زميله يقول :

— أذهبت الى أمريكا أيضاً ؟ لا ، أظنك لم تذهب .

— أمريكا ؟ نعم ؛ أرسلونى مرة إلى هناك منذ بضع سنوات مضت وأنا أعمل فى شركة براون بروس ، لأشترى آلات مصنع . ولا شىء فى هذا يدعو إلى الدهشة ، أليس كذلك ؟

— لا ، لا ... لا بالطبع . إن الذى اتجه إليه تفكيرى فقط هو أنك ربما ذهبت إلى هناك ، ورأيت الأشياء العجيبة كافة ... معجزات العلم التى يحققونها دون انقطاع .

www.alkottob.com

ــ يا صديقى العزيز ، ليتك تعلم فقط كم أصابتنى معجزات العلم بضيق مميت ! إن ما أتوق إليه طاحون فى الريف تحتاج إلى أربع وعشرين ساعة لتطحن كيسا من القمح .

ــ ماذا ؟ . . . ماذا تقول؟

وهب من مقعده واستطرد :

ــ ها . . . ها . . . ها . إنك نفس الصديق القديم ، ولا يعجزنى أن أرى ذلك.

ورفع بير كأسه صوب صديقه وقال :

ــ إنى أجد كل الجد فيما أقول . هيا ، هذا نخب أيامنا القديمة التى قضيناها معاً !

ــ نعم ، شكراً . . . ألف شكر . . . نخب أيامنا القديمة التى قضيناها معاً ! . . . آه ، خمر لذيذة ! حسناً ، أظنك وقعت فى حبائل الحب هناك فى بلاد المتوحشين ؟ أليس كذلك ؟ ها . . . ها . . . ها !

ــ أتسمى مصر بلاد المتوحشين ؟

ــ ألا يربط الفلاحون زوجاتهم فى محاريثهم إلى الآن .

ــ إن الفلاح يقضى الليل بطوله أمام بيته ، ويتطلع إلى النجوم ، ويتيح لنفسه مندوحة من الوقت لينعم بالأحلام . . . فى حين أن التاجر الكبير فى فيينا يملى الرسائل الخاصة بأعماله وهو فى سيارته منطلقاً بها إلى المسرح ، ويبعث بالبرقيات وهو فى مقعده بين النظارة . وسيأتى يوم ينصت فيه بإحدى أذنيه الى الأوبرا ، وهو جالس فى مقصورته الخاصة ، ويضع سماعة التليفون على الأذن الأخرى . . . هذا هو ما تصنعه معجزات الفن بنا . . . إنها تبث فينا الرهبة ، أليس كذلك ؟

ــ أتتحدث على هذا النحو . . وأنت الرجل الذى ساعد على كبح جماح نهر النيل،ومد السكك الحديدية عبرالصحراء ؟

وهز بير كتفيه ، وأعطى زميله سيجاراً من علبته ، وظهر غلام الخان وهو يحمل أقداح القهوة .

www.alkottob.com

ـــ مساعدة البشرية على التقدم بخطى أسرع ... أهذا أمر لاقيمة له ؟

ـــ يا إلهى ، إن الذى أود أن أعرفه هو أين تتجه البشرية حتى تسرع هذا الإسراع .

ـــ هل كون بناء خزان النيل ضاعف محصول القمح فى مصر ... وهيأ فرص المعيشة لملايين عديدة من البشر ... هل هذا أمر لا قيمة له ؟

ـــ يا صديقى السليم الطوية ، أتظن حقاً أنه لايوجد الآن عدد كاف من الحمقى على وجه الأرض ؟ أتظن أن لدينا قدراً قليلا جداً من العويل والبؤس والسخط والكراهية الطبقية الموجودة الآن ؟.. لماذا نسعى لنضاعف هذا كله ؟

ـــ ولكن دعنا من هذا كله يا رجل ... وحدثنى عن الثقافة الأوربية ؟ لقد شمرت دون ريب هناك فى البلاد التى أقمت فيها بأنك مبشر على نحو ما با لحضارة .

ـــ إن انتشار الحضارة الأوربية فى الشرق لا تعنى إلا أن بعضاً من كبار رجال المال فى لندن أو فى باريس أعجبوا بصقع فى إفريقيا أو آسيا ، وإذا هم يضغطون زراً كهربياً فيحضر إليهم الوزراء والقادة العسكريون والمبشرون والمهندسون فينحنون أمامهم : ـــ نحن رهن إشارتكم ياسادة !...

واستطرد يقول :

ـــ الثقافة !... إن عجلة واحدة تدور فتتولد منها عشر عجلات جديدة ... بر ... رر ... وتزداد السرعة ... وتزداد المنافسة ... ولم هذا كله ؟ للثقافة ؟... لا ياصديقى ، بل للمال ... إرساليات التبشير ! أقول لك الحق إنه ما دامت أوربا الغربية لم تستطع بكل عجائب علومها الحديثة ، ومسيحيتها ، وإصلاحاتها السياسية ، أن تستحدث نماذج من البشر أفضل من أولئك الأسافل المنحرفين الموجودين بيننا الآن ... خير لنا أن نبقى فى بلادنا ونسد فمنا اللعين ... هذه هى حقيقة أنفسنا !

وأفرغ بيركاسه.

www.alkottob.com

وكان هذا قولا محزناً للمسكين لانجبرج ،ذلك أنه اعتاد ، وهو يقوم بعمله اليومى ، أن يعزى نفسه بفكرة أنه ، حتى هو ، يضطلع فى محيطه المتواضع بنصيبه فى العمل الكبير الخاص بتحضير العالم .

ومال إلى الخلف أخيراً ، وقال وهو يرقب الدخان المتصاعد من سيجاره ، ويبتسم ابتسامة خفيفة :

— إنى أتذكر فى الكلية فتى اعتاد أن يتحدث كثيراً عن بروميثيوس ، وعن العمل الكبير الخاص بتحرير الإنسانية ، وذلك باختلاس قبس جديد بعد قبس من جبل الأولمب .

وقال بير وهو يرسل ضحكة :

— هذا الفتى هو أنا .. نعم .. ولكنى فى الواقع كنت أنقل قول فردناند هولم .

— ألا تؤمن بذلك الآن ؟

— إنه ليصدمنى أن أرى الناس يتحولون بالحديد والنار إلى وحوش . إن الصناعة الآلية تقتل فينا باطراد ما نسميه النفحة الإلهية .

— يا إلهى ! ولكن الإنسان يستطيع يا رجل أن يظل مسيحياً حتى فيما إذا . .

— مسيحياً إلى الحد الذى تشاء . ولكن ألا تظن أنه عما قريب قد يحين الوقت الذى نجد فيه شيئاً نعبده أفضل من متصوف ممدود على صليب ؟ هل نظل إلى الأبد نغنى مسبحين لأننا نجونا بجلودنا ، وما زلنا نستطيع المماحكة لدخول الجنة ؟ أهذا هو الدين !

— لا ، لا ... لعله ليس كذلك . ولكنى لا أدرى ...

— وأنا مثلك لا أدرى . ولكن الأمر سيان ، لأنه لم يعد هناك على أية حال وجود لذلك الشىء المسمى شعوراً دينياً . إن الصناعة الآلية تقتل كذلك تشوقنا إلى الأبدية .. اسأل الناس الطيبين فى المدن الكبيرة عن ذلك . إنه يقضون ليلة

عيد الميلاد منصتين إلى لحن « أميرة الدولار » يعزفه لهم الحاكى .

وجلس لانجبرج برهة وهو يرقب زميله بانتباه فى حين جلس بير يدخن سيجارة فى بطء . وكان وجهه قد احمر من شرب النبيذ ، ولكنه ظل من آن لآخر يغمض عينيه نصف إغماضة ، ويبدو أن خواطره تسبح فى ميادين غير هذه .

وسأله رفيقه آخر الأمر .

ـ وماذا تنوى أن تعمل الآن وقد عدت إلى وطنك ؟

وفتح بير عينيه :

ـ أعمل ؟ أوه ، لست أدرى . سأجيل بصرى قبل كل شىء فيما حولى . ثم إنى قد أعثر بعد ذلك ، فى مكان ما ، على حقل صغير أفلحه ، واستقر فيه ، وأتزوج حلابة لبن .. فالحظ فى ذلك !

وأمست الحديقة الآن ملأى بأناس يرتدون الملابس الصيفية الخفيفة . وصعدت إليهما من خلال المساء الساطع بالأنوار رنات لا تنقطع من الضحكات والأصوات المرحة . ونظر بير إلى الرهط المحتشد مستطلعاً ، وكانوا جميعاً غرباء بالنسبة إليه ، وسأل رفيقه عن أسماء بعضهم . وأشار لانجبرج إلى واحد أو اثنين من مشاهير الرجال ... وزير يجلس بالقرب منهما ، ومستكشف شهير يجلس أبعد قليلا . .

وأضاف لا نجبرح قوله :

ـ ولكنى لا أعرفهما شخصياً ، فأنا لا أقدر بالطبع على مخالطة مجتمع بلغ هذا المستوى .

وقال بير وهو ينظر مرة أخرى إلى تألق الضوء الأصفر فوق الفيورد :

ـ ما أجمل المنظر هنا ! وما أمتع أن يجد المرء نفسه فى وطنه ثانيه !

www.alkottob.com

الفصل الثاني

جلس فى القطار وهو فى طريقه إلى الريف ، وأخذ يرقب من نافذة العربة ما مر أمامه من مزارع وحقول وطرق مصطفة الأشجار على الجانبين . إلى أين هو ذاهب؟ إنه يجهل ذلك هو نفسه . لماذا لايبدأ الإنسان المسير حيثما اتفق ، ولا ينطلق حينما يحمله مزاجه على ذلك ؟ هاهو يستطيع آخر الأمر أن يرحل متنقلا بين أرجاء وطنه دون أن يشغل باله بالقروش التى ينفقها . وفى وسعه أن يدع الأيام تمر به دون هم أو بلبال ، وأن يوفر لنفسه فراغا طويلا ليستمتع بأى نوع من الجمال يصادفه فى طريقه .

وهناك بدت له « مياسن » ، تلك البحيرة الواسعة ذات الأراضى الزراعية الغنية ، وحفافى الغابات الممتدة على جانبيها . وهو لم يذهب إليها من قبل قط ، ومع ذلك خيل إليه كأن شيئاً داخل نفسه يوحى إيماءة من يعرف كل ما حوله ... ومرة أخرى جلس ينهل من مناظر الصقع الغنى المثمر ... وبدا كأن التلال المكسوة بالغابات ، وكأن الحقول والغياض تمتد فى ذهنه فتكسو أماكن خاوية .

وفى ساعه متأخرة من ذلك اليوم أخذت رقعة المناظر الطبيعية تضيق .. ووصلوا إلى « جود براندزدالن » حيث تقع الضياع على منحدرات خضراء ممتدة بين النهر والجبال . وكان رأس بير ممتلئاً بصور رآها فى الخارج ابتداء من رمال الصحراء وأشجار نخيلها التى لفحتها الشمس حتى قنوات مدينة البندقية . ولكنه ... أوماً هنا ثانية . إنه هنا فى دياره وإن كان لم يرذلك المكان من قبل قط ... وهذا هو الذى كان يهب طوال السنوات التى قضاها فى المنفى .

وأخيراً لم شباكه على حين فجأة ، وخرج من عربة القطار دون أن تكون لديه أدنى فكرة حتى عن اسم المحطة . وتناول وجبة طعام فى الفندق ، ووضع مزوداً على ظهره ... وهيه !.. هناك . أمامه يمتد الطريق إلى قمة الجبل . وحده ؟ وماأهمية ذلك مادامت أشياء لاحصر لها تحييه من كل جانب قائلة : « مرحباً بعودتك إلى وطنك » إن الطريق شديد الميل ، والهواء يزداد خفة ، وملحقات البيوت تزداد

www.alkottob.com

صغراً . وبدت الأكواخ أخيراً وكأنها لشدة صغرها علبة كبريت ، ولا بد أن القاطنين فى الوادى يبدو لهم أن الناس هنا يعيشون وسط السحاب . ولكن لابد أن عدداً كبيراً جداً من الشبان سلكوا ذلك الطريق حتما فى الأمسيات ، صاعدين ليغازلوا حبيباتهم القاطنات فى الأكواخ الصغيرة .. نفس الطريق ، ونفس الهدف يقصده جيل بعد جيل . وخيل إلى بير الآن أن أولئك الشبان يرافقونه فى المسير .. نعم ، وكأنه استكشف فى نفسه بقية من نزق الشباب تحاول أخيراً أن تتحرر .

يوه !.. ينبغى أن يخلع سترته ، ويضع قبعته فى مزوده . والآن إذ يزداد الوادى تحته هبوطا على التوالى يزداد كذلك اتساع للمنظر البادى من خلاله فوق المرتفعات الممتدة وراءه .. تلال شهب وزرق ، وقمم داكنة تبدو رمادية طحلبية تحت ضوء الشمس الغاربة ، وأمواج تعلو وتهبط موجة بعد أخرى ووراء هذا كله ميدان كبير مكسو بالجليد وكأنه بحر من الأمواج البيضاء تقذف زبدها تجاه السماء . ولكن أليس من المؤكد انه رأى هذا كله من قبل ؟

آه ! لقد عرفه الآن ، إنه بحر لوفوتن عاد إليه ثانية . . بحر لوفوتن بأمشاطه البيض المتوجة بالزبد ، وانتفاخ صدره وهو يتنفس تنفسه الطويل الثقيل .. بحر رجراج يتحول الى صخر . وتوقف بير برهة متكئاً على عصاه ، مغمضاً عينيه نصف إغماضة . ألا يستطيع أن يشعر فى أعماق نفسه بمثل تنفس البحر فى علوه وهبوطه ؟ ألم تكن هذه الأمواج نفسها تجيش على مر القرون ، وتحمل الأجيال معها بعيداً الى العجائب الكبرى ؟ وفى الحياة اليومية تتدحرج الموجة بناعلى وقع النغم القديم المألوف ، ولا يوجد واحد فى الألف منا من يرفع رأسه الى أعلى ليسأل : الى أين ! ولماذا !... بل إنه، حتى الآن بالذات ، تستحوذ عليه مثل تلك الموجة الصغيرة ... فإلى اين ، ولماذا ؟؟ حسناً ، قد تكشف الأيام المقبلة الأمر ، وفى أثناء ذلك ينبسط هناك بحر الأحجار الذى يرسل نغماته الأبدية الموزونة متدحرجة تحت قبة السماء اللانهائية .

وجفف جبينه ، ودار ومضى فى طريقه .

ولكن ما هذا الذى يبدو فى الشمال الشرقى ؟... ثلاث أخوات يتشحن بشيلان بيض ، ويرفعن رؤوسهن الى السماء ... لا بد أن تكون هذه بلدة « روندانى » ...

www.alkottob.com

وانظر كيف تشعل الشمس عند المغيب قمم التلال التى تتوهج قرمزية ذهبية .

يوه !... لم يبق أمامه الآن إلا تل واحد آخر ثم يبلغ أخيراً القمة . وهناك تنبسط تجاهه النجاد الكبرى بغياضها وأكمامها وبحيراتها الساطعة .. آه ، يالها من فرجة . ما أعجب أن تخف خطواته وتزداد سرعة ؟ وطفق يغنى بصوت عال ، شاعراً بجذل قلبى محض قبل أن يفطن الى مايفعل . آه ، أيها الأب الرحيم ، ماذا لو أنه لايزال أمامه — على أية حال — متسع من الوقت لينعم بالشباب !

منزل ريفى .. كوخ صغير قائم وسط بقعة من الأرض خضراء ذات سياج من قضبان متفرقة ، وحظيرة بقر مستطيلة مشيدة بألواح خشبية غير مصقولة .. لابد أن هذا منزل ريفى !.. أنصت .. أليست هذه فتاة تغنى ؟ وانسل بير فى خفة من الباب ، ووقف ينصت مستنداً الى حائط الحظيرة . وتوالى صوت تدفق اللبن فى الدلو : شاب ، شاب ، شاب ، » . لا بد أن تكون فاتنة تجلس هناك وتحلب اللبن . ثم أوصل الى سمعه صوت يغنى :

« أوه ، يا ليلة الأحد ، يا ليلة الأحد ،

« لقد كنت لى دائماً أعز الليالى ! »

وتدفق اللبن ثانية فى الدلو . « شاب ، شاب ، شاب ! » وضم بير صوته الى صوت المغنية فجأة :

« أوه ، يا ليلة الأحد الساطعة ، يا ليلة الأحد اللطيفة ...

« أتكونين دائماً أعز الليالى عندى ! »

وتوقف صوت تدفق اللبن ، ورن الجرس المعلق برقبة البقرة إذ أدارت رأسها مستفسرة ، واندفع الى خارج الباب شعر فتاة ذو لون أصفر خفيف ، ثم تبعته الفتاة نفسها ، وهى ممشوقة القد ، فى نحو الثامنة عشرة ، محمرة الوجنتين غضة مبتسمة .

وقال بير باسطاً يده :

— أسعدت مساء .

www.alkottob.com

وتطلعت إليه الفتاة لحظة ، ثم ألقت نظره على ملابسها — كما تفعل النساء عند وقوع نظرهن على رجل يستهوينهن . . وسألته :

— ومن تكون أنت ؟

— أتستطيعين أن تطهى لى ثريدا باللبن ؟

— نعم ، ولكن لا بد أن انتهى من حلب اللبن أولا .

وكانت هنا مهمة يستطيع بير أن يعاون على أدائها . وخلع مزوده ، وغسل يديه ، ولم يلبث أن جلس على كرسى فى جو الحظيرة الراكد اللطيف ، وانهمك فى حلب اللبن ، ثم أحضر ماء ، وخرط بعض الخشب لإشعال النار ، وظلت الفتاة تنظر إليه طوال الوقت ، متعجبة دون شك من يكون هذا المخبول ، وعندما وضع الثريد جاهزاً على المائدة ألح بير على الفتاة أن تشاركه فى وجبته . وأكلا قليلا ، ثم ضحكا قليلا ، ثم طفقا يثرثران ، ثم عادا فأكلا ، ثم ضحكا ثانية . وعندما سألها أى مبلغ عليه أن يدفعه قالت له : « ادفع ماتشاء . » ففتحها « كروانين » ، ثم أمال رأسها الى الوراء ، وقبل شفتيها . وسمعها تقول لاهثة من ورائه وهو يخرج من الحظيرة : « ماذا يستهدف هذا الرجل ؟ . . » وبعد أن قطع مسافة طويلة دار ملتفتاً الى الوراء ، فإذا هى هناك على عتبة الباب تظلل عينيها وترقبه .

الى أين يذهب الآن ؟ حسناً . . لقد كان متأكداً تماماً من أنه سيصل الى مكان مأهول قبل حلول المساء . أما هذا المكان فليس بمكان إقامته . لا ، ليس هذا بالمكان الذى سيقيم فيه .

لقد أوشك الليل أن ينتصف عندما وقف على شاطىء بحيرة عريضة من بحيرات قمم الجبال تقع أسفل هضبة منمنمة بندف الثلج ، وقامت هنا بضع دور ريفية . وكان هناك منزل صغير حسن الشكل يقع فى جزيرة ، عبر البحيرة ، مكسوة بالأشجار ، ويبدو كأنه كوخ معد لمصيف قوم من قطان المدن . . انظر لقد ظهر فوق متن البحيرة التى لا تزال تعكس احمرار الغسق قارب يتجه صوب الجزيرة ، وجلست فيه فتاتان أردانهما بيضاء ، تجذفان وهما تغنيان . واستولى عليه شعور غريب . هناك . . هنا سيقيم .

www.alkottob.com

وقفت فى الكوخ الريفى امرأة ضخمة بدينة تعقد وسطها بحبل ، وبدا أنها تتأهب للرقاد . أفى وسعها أن تؤويه هذه الليلة ؟ لم لا ، إنها تستطيع ذلك بحسب ماتظن .. ودلفت الى غرفة أخرى .. وبعد مدة وجيزة كان يرقد بين جدران غرفة صغيرة فى فراش ذى حشية جبلية و لحاف . وفاحت هناك رائحة غضة من أغصان العرعر المنثورة على أرض الغرفة المغسولة حديثاً ، ومن آنية الجبن القائمة فى صفوف على الأرفف الملتفة حول الحيطان . آه ! .. سبق له أن نام فى أماكن عديدة على نحو مختلف .. نام فى عرض البحر على ظهر مركب من مراكب لوفوتن .. ونام على ظهر جمل يتمايل .. وفى خيام منصوبة فى صحراء ساطعة القمر .. وفى قصور أشبه بقصور ألف ليلة وليلة حيث كان الأقزام يتخذون من أغصان النخيل مراوح يخففون بها حرارة الجو، وكانوا يدعونه « باشا » . ولكنه وجد أخيراً هنا مكاناً تطيب الإقامة فيه . وأغلق عينيه ، واضطجع ينصت الى خرير جدول صغير ينساب خارج الكوخ فى الليلة الصيفية اللطيفة، وظل كذلك حتى استولى عليه النعاس .

وفى ساعة متأخرة من ضحى اليوم التالى استيقظ إثر دخول المرأة العجوز حاملة إليه فنجان القهوة . ثم غطس غطسة فى الماء الأزرق المخضوضر للبحيرة الجبلية ، وأمضى وقتاً قصيراً فى السباحة . ثم عاد ليجد غداءه مكوناً من سمك مشوى وفطير مخبوز حديثاً ، وحليب دسم .

وقالت المرأة العجوز : نعم ، يمكنه أن يبقى هنا بضعة أيام ، وهى ترحب به لو أنه يستطيع استساغة ذلك النوع من الطعام الذى فى وسعها أن تطهوه . والفراش قائم هناك على أية حال دون أن يحتله أحد .

www.alkottob.com

الفصل الثالث

وعلى هذا أقام بيرهناك ، وراح يصطاد السمك ، ولم ينجح فى صيد الكثير منه ، ولكن الزمن كان يمر رويداً ، والصيف يرقد ناعماً دافئاً على سفوح التلال الرمادية واللازوردية . ولم يلبث أن علم بأن تاجراً من « رينجين » يدعى « أوتهوج » ، هو الذى يقيم فى بيت الجزيرة مع زوجته وابنته .. وما عاقبة ذلك ؟

وكثيراً ما كان يضطجع فى قاربه ، مدخناً غليونه ، مستسلماً لأحلام هادئة تقبل وتمضى الى سبيلها .. فتاة فى قارب أبيض ينساب فوق الماء الأحمر فى المساء .. ولقاء فى الخفاء على أديم جزيرة .. ينبغى ألا يعلم أحد شيئاً عن هذا الآن . . أيمكن أن يحدث له ذلك فى يوم من الأيام ؟.. آه ، لا .

الشمس تغرب ، وعندئذ يقترب رنين أجراس البقر من المنزل الريفى ، وتقترب الصيحات الموسيقية ، وندا آت فتيات ذلك المنزل ، وخوار البقر .. وترتفع الجبال صامتة على مسافة بعيدة وقد أصبحت قممها المكسوة بالثلوج ذهبية اللون .. والجدول ينساب متموجا مرسلا خريره وسط الليالى المضيئة .

وأخيراً حان اليوم الذى هو أهم الأيام .

وخرج ليقوم برحلة بين التلال حيثما اتفق ، مسترشداً فى طريقه ببوصلة ، وملاحظا معالم معينة ليستطيع الاهتداء بها عند عودته . فهنا مستنقع مغطى بظلال شجر التوت .. وتذوق المشهد فأعاد له مذاقه أيام طفولته وهام على وجهه صاعداً الى قمة شهباء باهتة مرقشة بأعشاب الخليج الأحمر .. وما هذا الذى يبدو أمامه ؟ دخان ؟ وسار صوبه . نعم ، إنه دخان وخرجت أمامه قطاة ترفرف بجناحيها ، وفى أعقابها سار أولادها الصغار الحجم .. رباه ، لقد كاد يدهس الصغار . وتوقف من فوره ليتحاشى دهسها . وهذا الدخان يدل على أن بعض الناس قريبون من هنا .. لعله معسكر لبعض المواطنين .. لنذهب ونر .

www.alkottob.com

وصعـد الى قمة آخر هضبة ، وكانت النار الموقدة مشبوبة تحته تماما . وقفزت فتاتان فوقفتا على أقدامهما . وكان هناك فوق النار إبريق قهوة لامع ، وفوق الأرض المكسوة بالطحلب ، وعلى مقربة من النار ، خبز وزبد و« شندوتشات » موضوعة على غطاء من ورق .

وتسمر بير فى مكانه مأخوذاً . ومضت لحظة من الزمن والفتاتان تتطلعان إليه ، وهو يتطلع إليهما ، وعلى ثغورهم جميعاً ابتسامة مترددة .

ورفع بير قبعته أخيراً ، وسألهما عن الطريق الى منزل روستاد الريفى . واستغرق شرحهمـا لذلك بعض الوقت ، ثم سألاه عن الساعة . ودلهما على الوقت المضبوط ثم أطلعهما على ساعته ليستطيعا تبين الوقت بنفسيهما . واستغرق ذلك كله مدة أطول من الزمن . وفحصت كل منهما الأخرى بنظرها فى أثناء ذلك ، ولم تجدا سبباً يدعو الى الافتراق عن الرجل الآن . وكانت إحدى هاتين الفتاتين طويلة القامة ، نحيلة القد ، وجهها بيضاوى دافىء الألوان ، وشعرها أسود داكن ، وحاجباها كثيفان يقترنان فوق أنفها ، ويبعث النظر إليهما على البهجة . وكانت ترتدى ثوباً من الصوف أزرق اللون طرفه مرفوع قليـلا على نحو يكشف كعبيها . والأخرى كانت شقراء ، أصغر حجماً من رفيقتها ، ذات وجه حزين بالرغم من أنها كانت لاتـكف عن الابتسام .. وقالت فجأة :

— أوه ، أيكون معك مدية على سبيل المصادفة ؟

وكان بير قد هم بالانصراف ، ولـكنه انتهز مسروراً فرصة بقائه قليلا.

— أوه ، نعم ، معى مدية .

وقالت الفتاة السوداء الشعر :

— لدينا هنا علبة سردين ولا توجد أداة نفتحها بها .

وقال بير :

— دعينى أحاول.

www.alkottob.com

واستطاع كما شاء له الحظ أن يجرح يده جرحا طفيفا . وتعثرت كل من الفتاتين بالأخرى لتسارع إلى تضميد الجرح . وانتهى الأمر بالطبع الى أن سألتاه قبول شرب القهوة فى صحبتهما .

وقالت الفتاة السوداء الشعر وهى تنحنى فى مجاملة :

— اسمى ميرل أوتهوج .

— أوه ، هو أبوك إذن صاحب الدار القائمة فى الجزيرة وسط البحيرة ؟

وقالت الشقراء :

— اسمى « مارك » وحسب .. ثيبا مارك . وأبى محام ، ولنا كوخ يقع على مسافة أبعد وراء البحيرة .

وكان بير على وشك أن يعرفهما بنفسه عند ما قاطعته الفتاة السمراء قائلة :

— أوه ، نحن نعرفك من قبل . فقد رأيناك كثيرا وأنت تجذف فى البحيرة ، وكان علينا أن نتبين من أنت .. إن لدينا منظارا مكبرا جيدا .

وتدخلت صديقتها محذرة :

— ميرل !

— ثم أرسلنا أمس خادمة لتتسقط الأخبار وتتحرى وتعود الينا بتقرير واف عنك .

— ميرل ! كيف تستطيعين أن تتفوهى بمثل هذه الأقوال ؟

كانت وليمة صغيرة مبهجة . ما أصغر هاتين الفتاتين ! .. وكيف تضحكان للكتة ! وأية كمية من الخبز والزبد والقهوة وفرتاها له ! .. كانت ميرل ترسل بين حين وآخر نظرة من طرف عينها الى رفيقيهما فى حين كانت ثيبا تضحك من العبارات الجريئة التى قالتها صديقتها ، وتؤنبها على ذلك ، وتنظر الى بير فى توجس .

وكانت الشمس تقترب الآن من كتف تل يقع بعيدا من ناحية الغرب ، وبدأ

www.alkottob.com

المساء ينشر ظلاله . . وحزموا أشياءهم ، وحمل بير على ظهره حقيبة كبيرة ملأى بحبات من التوت الجبلى ، كما حمل بيده إناء من صفيح .

ـــ أعطيه أشياء أخرى يحملها ، فسوف يفيده العمل بدلا من البطالة .

ـــ ميرل ، إنك فى الحق سيئة جدا !

وقالت الفتاة :

ـــ هاك هذا .

وزحزحت الى يده الأخرى مقبض سلة

ثم شرعوا فى النزول من التل . وغنت ميرل وترنمت وهم سائرون فى طريقهم . ثم غنى بير بدوره ، ثم غنى ثلاثتهم معاً . وكانوا كلما اعترضت سبيلهم كومة من شجر الخلنج أو بركة من ماء المطر المتجمع لم يكلفوا أنفسهم الدوران حولها بل اجتازوها قفزا ، ثم قفزوا مرة أخرى بقصد اللهو .

وتجاوزوا المنزل الريفى منحدرين الى الشاطىء ، واقترح بير عليهما أن يتولى التجذيف حتى يوصلهما الى دارهما ، وعبروا البحيرة بالقارب ، وجلسوا فيه يتحدثون معا طوال الوقت وتبادلوا الضحكات حتى لكأن بعضهم يعرف بعضا منذ سنوات .

ولمس القارب الأرض عند أسفل الكوخ مباشرة ، وجاء لقابلتهم رجل عريض الكتفين ، ذو لحية شهباء ، يرتدى قبعة من « خوص » . وصاحت ميرل :

ـــ أوه ، يا أبى ، أعدت ثانية ؟

وإذ قفزت إلى الشاطىء ألقت ذراعيها حول عنقه . وتبادلا كلاهما الهمس ، ورمق الأب بير ، ثم رفع قبعته وأقبل صوبه ، وقال فى أدب :

ـــ إنه لكرم بالغ منك أن تعاون الفتاتين على العودة .

وقالت ميرل :

ـــ هذا هو المهر هولم ، مهندس ومصرى ، وهذا أبى .

www.alkottob.com

وقال أوتهوج:

— بلغنى أننا جيران ، ونحن على وشك أن نشرب الشاى ، ولعلك تشترك معنا فى ذلك إذا لم يكن لديك شاغل آخر أفضل منه .

وكانت تقف خارج الكوخ سيدة وخط الشيب شعرها ، وشحب لونها . وكانت تستعمل نظارة ، وتضع على كتفيها شالا من صوف أبيض ، وبدا مع ذلك أنها لم تزل تشعر بالبرد .

وقالت :

— مرحباً :

وحسب بير أن صوتها يرتجف .

وكانت فى الدور الأسفل غرفتان تشتمل إحداهما على وجاق مكشوف ، وعلى مائدة تم إعدادها لشرب الشاى . ولكن لم تدخل ميرل البيت حتى أشرفت على كل صغيرة وكبيرة ، ومرقت هنا وهناك . ولم يلبث أن انبعث من المطبخ صوت قلو سمك ، وبعد لحظة جاءت الفتاة تحمل إناء مملوءاً خساً وقالت :

— أيها السيد المصرى... أنت تستطيع أن تعد لنا سلطة عربية ، أليس كذلك ؟

وسر بير وقال :

— أحسب أنى أستطيع ذلك.

— ستجد على المائدة هناك ملحاً وفلفلا وخلا وزيتاً ، وهذا كل ما تملك هنا من أنواع التوابل ، ولكن لابد أن تعد لنا مع ذلك سلطة عربية حقيقية ... من فضلك !

وخرجت ثانية فى حين اشتغل بير بإعداد السلطة .

وقالت السيدة أوتهوج وهى تدور يوجهها الشاحب صوبه ، وتنظر إليه من خلال نظارتها :

www.alkottob.com

— أرجـو أن تغفر لابنتى تصرفها ، فهى فى الواقع ليست خشنة الخـلق كما يبدو عليها .

وكان أوتهوج نفسه يذرع الغرفة رائحاً غادياً ، متحدثاً إلى بير ، موجهـاً إليه سيلا من الأسئلة عن أحوال مصر . وكان يعلم شيئاً عن ثورة المهدى ، وعن الجنرال غوردن ، والخرطوم ، والعـلاقات المتوترة بين الخديوى والسلطـان . ولم يخف أنه قارىء مثابر للصحف ، وأدرك بير ممـا تجمع له من قرائن أنه « راديكالى » ، وأن له وزناً ما فى حزبه . وكان يبدو عليه كأن تحت جفنيه المحمرين نارا شديدة تضطرم . وخطر لبير « أن هذا الرجل سيىء فى حالة الاصطدام به . »

وجلسوا الى مائدة العشاء ، ولاحظ بير أن السيدة أوتهوج صارت أقـل شحوباً وقلقاً عند ما أخذت ابنتها تضحك وتمزح وتثرثر . بل حتى لقد توهج خداها الشاحبان قليلا آخر الأمر ، وبدا كأن عينيها من وراء نظارتها تلتمعان بنور مقتبس من عينى ابنتها . ولـكن لم يبد على زوجها أنه لاحظ شيئاً من ذلك ، وقد حاول طوال الوقت أن يواصل الحديث عن المهدى والخديوى والسلطان.

هكذا جلس بير لأول مرة ، منـــذ سنوات عديدة ، الى مائدة ممدودة فى منزل نرويجى ... وكم كان هـذا ممتازا ! وتساءل هل يقدر له يوم أن يكون له منزل خاص به .

وبعد العشاء جىء بعود ، وجلسوا حول نار الوجاق الـكبير واستمتعوا بشىء من الموسيقى ، وظلوا كذلك حتى نهضت ميرل آخر وقالت :

— والآن حان الوقت يا أمى لتأوى إلى فراشك .

وجاء الرد فى استسلام :

— نعم يا عزيزتى .

وحيت السيدة أوتهوج الحاضرين ، واقتادتها ميرل الى خارج الغرفة .

وعند ما عادت ميرل نهض بير مستأذناً فى الانصراف ، فقالت له :

www.alkottob.com

— ماذا ! لا أحسبك ستنصرف حقاً قبل أن تصحب ثيبا فى القارب الى بيتها ؟

وقالت الأخرى :

— أوه ، ياميرل، أرجوك ..

ولكنهما عنه ما اتخذا كلاهما مكانيهما فى القارب ، وأوشكا أن يبدآ عبور البحيرة ، جاءت إليهما ميرل ركضا وقالت إنه يمكنها كذلك الذهاب معهما .

وبعد مرور نصف ساعة ، والوصول بالفتاة سالمة حتى بيت أبيها ، اختلى بير بميرل وهو يجذف فى الليل الساكن ، عائداً بالقارب المنساب على صفحة مياه ذهبية تحت الأضواء ، زرقاء داكنة وراء الظلال . ومالت ميرل إلى الوراء مضطجعة فى مؤخرة القارب صامتة ، مجرجرة وراءها فرع شجرة فوق سطح الماء وبعد فترة من الزمن تخلى بير عن مجذافيه ، وترك القارب ينساب من تلقاء نفسه .. وقال :

— ما أجمل هذا !

ورفعت الفتاة رأسها ، ودارت بنظرها فيما حولها وأجابت :

— نعم .

وخيل الى بير أن صوتها اكتسب نبرة جديدة

وتجاوز الوقت منتصف الليل . وكانت القمم والغابات والأكواخ ترقد بلا حياة تحت الضوء الرقيق المصطبغ بالاحمرار . ولم يعد سمك البحيرة يرتفع الى سطح الماء . ولكن الآذان كانت تستطيع بين الحين والحين أن تلتقط صيحة قطاة منبعثة من بين أشجار الصفصاف .

وسألت الفتاة فجأة :

إنى لأعجب ماذا دعاك الى الحضور هنا بالذات لقضاء عطلتك !

— أنا أدع كل شىء لتصرف الأقدار يا آنسة أوتهوج ، وهكذا حدث أن جئت الى هنا ، وأينما سار الإنسان فى هذا المكان يجد كل سىء أليفاً . وما أبدع أن يجد الإنسان نفسه ثانية فى وطنه الترويج !

www.alkottob.com

ـــ ولكن ألم تزر أهلك ؟.. ألم تزر أباك وأمك منذ عودتك الى وطنك ؟

ـــ أنا ..! أتظنين أن لى أباً وأماً ؟

ـــ ولكن هناك أهلا أقربين .. لا بد أن لك دون مراء أخا أو أختا فى مكان ما من هذه الدنيا ؟

ـــ آه لو كان للمرء فقط أخ أو أخت ، بيد أنه يستطيع ، على أية حال ، أن يمضى فى حياته بدونهما .

وأخذت تنظر إليه بعين فاحصة ، وكأنها تحاول أن ترى أهو جاد فيما يزعم .. ثم قالت :

ـــ أتعرف أن أمى حلمت بك قبل مجيئك ؟

واتسعت حدقتا بير :

ـــ حلمت بى ؟ وماذا كان حلمها ؟

وصبغ الاحمرار وجه الفتاة فجأة ، وهزت رأسها :

ـــ إنها لحماقة منى أن أجلس هنا وأحدثك عن هذا كله . ولكن ذلك الحلم هو السبب ، كما ترى ، فى أننا أردنا فى إصرار أن نقف على حقيقة أمرك منذ حضورك . وقد بعث هذا فى نفسى نوعا من الشعور بأن كلا منا يعرف الآخر منذ زمن بعيد .

ـــ يبدو يا آنسة أوتهوج أن بين جوانحك فيضا لا ينقطع من المرح !

ـــ أنا ؟ لماذا تظن ..؟ أوه ، حسنا ، نعم . إن الإنسان يستطيع كما تعلم أن يكتسب أغلب الصفات فيما إذا كان لا بد له من ذلك .

ـــ حتى المرح ؟

ودارت بوجهها ونظرت صوب الشاطىء :

ـــ لعلى فى يوم ما أحدثك عن ذلك بتوسع .. فيما إذا حدث وأصبحنا أصدقاء .

وانحنى بير على مجذافيه ، وواصل التجذيف . وقرب سكون الليل بينهما شيئاً

www.alkottob.com

فشيئاً ، وحملهما على التزام الصمت . ولم يحدث إلا أن كلا منهما كان ينظر إلى الآخر كل حين وحين ، ويبتسم .

وقال بير لنفسه : « ماهذه المخلوقة الغامضة التي التقيت بها ؟ » .. إنها قد تكون في نحو الواحد والعشرين ، أو الثاني والعشرين .. وهناك جلست منحنية الرأس ، وتحت ذلك الوهج الرقيق بدا على وجهها قبس من أحلام غريبة . ولكن نظرتها عادت أدراجها فجأة ، واستقرت على وجهه ثانية . ثم ابتسمت فرأى أن فمها عريض ، وشفتيها ممتلئتان حمراوان ..وقالت:

— كم أود لو أني طفت بأصقاع العالم مثلك .

وسألها :

— ألم تقومي برحلة الى الخارج قط يا آنسة أوتهوج ؟

— إني قضيت الشتاء مرة في برلين ، وأمضيت بضعة أشهر في جنوب ألمانيا . وإني أمارس العزف قليلا على البيان كما تعلم ، وكنت آمل أن أدرس الأمر جديا في الخارج ، وأخرج بشيء من هذه الدراسة .. ولكن ..

— حسنا ، ولماذا لاتحققين ذلك ؟

وصمتت قليلا ، ثم قالت أخيراً :

— أحسب أنه من المؤكد أنك ستقف على الأمر يوما ما ، وعلى ذلك يتساوى الآن أن أنبئك به .. لقد أصيبت أمي بلوثة .

— يا آنستي العزيزة ..

— وعندما عادت إلى البيت .. احتاج الأمر إلى المرح حتى يعينها بقدر ما على العودة إلى طبيعتها .

وشعر بحافز يدفعه إلى النهوض والتوجه إلى الفتاة وضم رأسها بيديه ، ولكنها رفعت ناظريها مبتسمة ابتسامة حزينة وتلاقت عيونهما في نظرة طال أمدها ، ونسيت أن تستعيد نظرتها ، وقالت آخر الأمر :

— لابد أن أعود إلى الشاطيء الآن .

www.alkottob.com

— أوه .. بهذه السرعة ! إننا لم نكد نبدأ حديثنا !

وكررت قولها :

— لا بد أن أعود إلى الشاطيء الآن .

ولم يكن صوتها يسمح بالمعارضة . برغم أنه ظل رقيقاً .

وأخيرا أصبح بير وحيدا يجذف عائدا الى كوخه . وراقب الفتاة فى أثناء تجذيفه وهى تصعد فى بطء صوب كوخهـــا . وإذ وصلت إلى الباب التفتت اليه لأول مرة ، ولوحت له بيدها . ووقفت لحظة وهى تشيعه بنظرها ، ثم فتحت الباب وتوارت خلفه. وظل يحـدق فى الباب بعض الوقت وكأنه يتوقع أن يفتح ثانية ، ولـكن لم يبد هناك أثر للحياة .

وبدأ قرص الشمس يظهر الآن فى المدى البعيد من النـاحية الشرقية . وسطعت القمم البيض شمالا وشرقاً فى وهج الصباح .وترك بير مجذافيه ثانية ، واستراح واضعا مرفقيه على ركبتيه ، وممسكا رأسه بيديه . ماذا يمكن أن يـكون هـذا الذى وقع له اليوم ؟

وكيف يمكن أن تقوم هذه القمم حوله بعيدة ، غير مكترثة إلى هـذا الحد ، وتتركه هنا حزيناً وحيداً ؟

ماذا عسى أن يكون هذا الدوى الجديد فى أذنيه ، وهذا الإيقاع الموزون لنبضـه؟.. واضطجع أخيرا على ظهره فى قاع المركب موشجا يديه وراء رأسه ، وترك القارب وكل شيء ينساب أيان سار .

وعند ما انحدر سناء الشمس المشرقة الى القارب وصدم وجهه خاطفا بصره ، لم يكن منه إلا أن أدار رأسه قليلا، ومكن ذلك السناء من أن يسطع فوقه سطوعا كاملا .

وهى ترقد الآن هنـاك مستسلمة للنعاس فى حين يتدفق الصباح من نافذتها أحمر اللون .. عن تحلم فى أثناء نومها ؟

أرأيت من قبل قط حاجبين كحاجبيها ؟ آه لو ضغط المرء شفتيه عليهمـا ... آه

www.alkottob.com

لو أمسك رأسها بين يديه ... أهكذا إذن تفرطين فى أحلامك لتنقذى أمك ، وتحافظين على شعلة المرح متأججة بين جوانحك لتدفئى روحها ؟ أأنت إذن على هذا النحو ؟

— ميرل .. أهناك مثل هذا الاسم ؟ أيدعونك ميرل ؟

وانتشر النهار فى أرجاء السماء، وأضاء سحب السماء ، كبيرها وصغيرها ، فتحولت إلى ذهبية وقرمزية .. وها هو ذا يرقد هنا متأرجحاً ، لافوق بحيرة ، ولكن فوق عباب محيط أحمر اللون ، شديد الجيشان .

آه ! إن عقلك كان ممتلئاً كل الامتلاء حتى الآن بعلم الميكانيكا الجاف، وعلم الحساب، وبالحديد والنار .. كنت تطلب مزيداً من العلم لايقف عند حد ، ولم تكف قط عن الجهاد فى سبيل إدراك الأشياء كافة ، فى سبيل معرفة كل شىء ، والسيطرة على كل شىء . ولكن ماتت فى نفسك نغمات النشيد القدسى فى هذه الأثناء ، وأخذ جوعك الروحى إلى ما وراء الأشياء يزداد ضراوة شيئاً فشيئاً . لقد كنت تظن أن بلاد النرويج هى التى تحتاج إليها .. وهأنذا هنا الآن .. ولكن أهذا يكفى .

— ميرل .. هل اسمك ميرل ؟

ليس هناك شىء يمكن أن يماثل اليوم الأول من أيام الحب . إن كل معارفك ورحلاتك وأعمالك وأحلامك .. كل هذه لم تكن إلا حطباً جافاً جئت به وكومت بعضه فوق بعض . والآن اندلعت الشرارة فإذا الكومة تلتهب كلها ، وتلقى بوهجها الأحمر على الأرض والسماء ، وتمد أنت يديك الباردتين لتدفئهما ، وترتعش من فرط الفرح لأن سعادة جديدة هبطت على الأرض .

وكل عالم تستطع من قبل إدراكه ... العلاقة بين ومضة الأبدية فى نفسك ، والقدرة السماوية العليا ، والفضاء اللانهائى بأسره .. كل هذا وضح فجأة كل الوضوح إلى حد أنك ترقد هنا مرتعشاً من فرط الابتهاج ، وترى أعمق أعماق اللغز الأبدى .

ما عليك إلا أن تمسك بيدها وتقول لقوة الحياة والموت : « إننا هنا نحن الاثنين . هاهى ذى هنا ، وهأنذا هنا . . نحن الاثنين هنا » وترسل الدعاء متغلغلا إلى أعلى ..

www.alkottob.com

مختلطة بنغمة من كمان لويز الصغير .. صاعدا لا إلى قبة أية كنيسة ، ولكن إلى الفضاء اللانهائي نفسه ، وأنت أيتها القدرة العلوية ، إني أدركك الآن . كيف كنت أستطيع أن آخذ من الجد قدرة .. حسبتها فيما مضى .. تتلاعب بالإثم والمغفرة .. ولكني أرى ذاتك العلوية الآن .. أنا لم أعد أرى إلهامتعطشا للدماء ، ولكني أراك في ميعة الصبي ، ذهبي الشعر ، أراك النور نفسه .. إننا نحن الاثنين نعبد ذاتك لا بصلوات نائحة ، ولكن بدعاء أكبر يضم بين طياته العالم بأسره ، إن جميع قدراتنا وعلومنا وأحلامنا كامنة فيه .. كل شيء كامن فيه هناك . وكل فرع له وتره الخاص به .. له نغمته في الترتيل الجماعي الأعظم . إن الفجر الذي يحمر فوق التلال منضم معنا . والعنز الذي يرعى في سفح التل الشمالي ، ويخطف بصره شعاع الشمس الذهبي حينما يدور رأسه صوب الشرق ، هو أيضا معنا ، والعصافير التي تستيقظ الآن معنا .. وهناك ضفدع يقفز صاعدا من بركة ماء ، ويتوقف لينظر إلى الصباح في عجب .. إنه موجود هناك .. وحتى الحشرة الصغيرة المرصعة الجناحين بالماس — وأوراق الحشائش حاملة لآلىء الأنداء ، بإذلة ماتستطيع من جهد لتعكس السماء .. إنها موجودة هناك . نحن نقف وسط اليوم الأول من أيام الحب ، ولم يعد هناك مجال لمزيد من الكلام عن الغفران أو الشك أو الإيمان أو الحاجة أو المعونة .. ليست هناك إلا نغمات موسيقية متدفقة تصعد إلى السماء من الينابيع الذهبية المنبثقة من قلوبنا .

وبدأت الأكواخ تستيقظ . وترامت صيحات موسيقية تردد صداها حين كانت فتيات المنازل الريفية تدفع الماشية وهي تصعد في بطء إلى قمم التلال الشمالية ، متصاعدة الخوار ، مرنانة الأجراس . ولكن بيير ظل مضطجعا حيث كان .. ولم تلبث الفتاة التي تحلب بقر الضياع أن شاهدت القارب الذي بدا خاليا يحرفه ماء البحيرة ، وخشيت أن يكون ثمة مكروه قد وقع .

وقال بيير لنفسه وهو لايزال راقدا بلا حراك : « ميرل ، هل اسمك ميرل ؟ »

ونزلت حلابة اللبن إلى الشاطىء الآن ، ونادت متجهة بصوتها إلى ناحية القارب ورأت آخر الأمر رجلا يهب من رقدته جالسا ، ويفرك عينيه .. فصاحت :

— اللهم عفوك ورضاك .. شكرا لله على أنك هنا .. إنك لم تعد إلى الدار طوال هذه الليلة المباركة !

www.alkottob.com

وكانت هناك عنزة كسرت ساقها ، وجبروها لها ، وتركوها تهيم على وجهها فى حظائر الماشية ، وتدخل الدار وتغادرها فى أثناء تماثل عظام ساقها للشفاء . وشعر بير بدافع يدفعه الى التقاط هذه المخلوقة وحملها بين ذراعيه ، والتجول بها فترة من الزمن برغم أن الحين بدأت تخضع لحيته من فوره . وعند ماجلس إلى مائدة الإفطار وجد شيئاً فى منظر القشطة والزبد والخبز والقهوة أثر فى نفسه تأثيرا بليغا الى حد أن خيل إليه أن الإنسان يحتاج الى قلب من حجر ليشعر بالرغبة فى أكل مثل هذه الأشياء . وعندماقالت له العجوز إن عليه حقاً أن يملأ جوفه بطعام ماقفز من مقعده، واحتضنها بالقدر الذى استطاعت ذراعاه أن تحيط بجسم تلك المرأة الضخم . وصاحت هذه الأخيرة وهى تناضل لتتخلص منه « هذا تصرف لطيف ! » ولكنه عند ما تمادى الى حد أن طبع على جبينها قبلة مرنانة ، دفعته دفعة عنيفة وقالت :

— يا إلهى ! ألم يفقد هذا الأبله صوابه فى الليلة الماضية .

الفصل الرابع

بلدة رينجبي تجثم على شاطىء بحيرة كبيرة ، وهي إحدى البلدان التجارية الدائبة الحركة ، وقد طفرت في السنوات الخمسين الأخيرة منبعثة من نواة كانت تتألف فيما مضى من « ورشة » نجارة ، وطاحون قائمة الى جوار مساقط مياه وقد انتشر فيها الآن عدد كبير من المصانع الحديثة على طول شاطىء النهر ، وأصبح ذلك المكان بلدة يبلغ عدد سكانها زهاء أربعة آلاف نسمة ، لها كنيسة خاصة بها ، ومدرسة ضخمة البناء ، وعدد من منازل صفراء للعمال متناثرة في كل اتجاه حيثما اتفق . وفيما عدا ذلك فإن « رينجبي » شديدة الشبه بأية بلدة صغيرة أخرى . وبها محاميان يناضلان في سبيل الظفر بقضايا الأعمال القضائية ، ورئيسا تحرير الصحيفتين المحليتين الموجودتين بها لا يكفان عن التشاجر أمام «مجلس المصالحات» ، وهناك أيضاً مجمع للوعظ والإرشاد ، ونقابة للعمال ، وكنيسة صغيرة ، ومعرض صور ، واعتاد أهالي رينجبي الطيبون أن يتمشوا على طول الشاطىء بعد ظهر أيام الآحاد متأبطين أذرع نسائهم . وكان أغلب الرجال يرتدون في هذه المناسبة سترات « الفروك » والقبعات الصوفية الرمادية . ولكن إنييك ، دباغ الجلود ، كان يؤثر لبس قبعة حريرية طويلة نظرا الى أنه أحدب ، ومثل هذه القبعة تلائمه لأنها تزيده طولا .

وفي أمسيات السبت ، عند ما يبدأ الغسق في التبدد ، يجتمع الشبان في الركن الواقع خارج متجر هامر ليناقشوا أحداث الأسبوع .

وسأل لوفلي ، الصراف بالبنك ، صديقه الموظف بالتلغراف الذي جاء إليه :

— أسمعت آخر الأنباء ؟

— الأنباء ! .. أتقول إن هناك أية أنباء في هذا الجحر اللعين ؟

— عادت ميرل أوتهوج من الجبال .. وقد جاءها خاطب يطلب زواجها .

— أحدث ذلك فعلا ! وما رأى الرجل العجوز في ذلك ؟

— أوه ، إن الرجل العجوز يريد مهندسا فيما إذا أراد الهيمنة على مصنع الخشب الجديد .

www.alkottob.com

— هل الرجل مهندس ؟

— إنه من مصر .. ولعله مسلم .. ولونه أسمر كحبات البن . وهو يتقلب على أكداس المـال .

— أسمعت هذا يا آنسة بول ؟ انتظرى لحظة ؛ فهناك نبأ يهمك .

ودارت الفتاة الى وجه الـكلام اليها ، وانضمت لهما :

— أوه ، أحسب أنه نفس النبأ المنتشر فى البلدة كلها .. حسنا ، أستطيع أن أقول لـكما إن الرجل لطيف الى حد كبير .

وهمس موظف التلغراف قائلا .. « هش ! »

وكان بير هولم فى هذه اللحظة يغادر « جراند أوتيل » ، مرتديا سترة رمادية ، واضعاً معطفا أسود على ذراعه ، وقد حاول أن يشد نفسا من سيجار أشعله حـديثا وهو يمر بالشبان المجتمعين فى ذلك الركن سائراً بخطوات خفيفة مرنة .. وبمداجتيازه مسافة قصـيرة من الطريق قابل ميرل ، وتأبط ذراعها ، ومضيا معا فى حين راقبهما الشبان المجتمعون فى الركن وهما يسيران .

وسأل موظف التلغراف :

— ومتى يتم الزواج ؟

وقالت الآنسة بول :

— أعتقـد أنه أراد إتمامه من فوره ، ولـكنى أظن أن عليهما الانتظـار حتى توافق الـكنيسة على إعلان الزواج على نحو مايحدث لغيرهما من الناس .

كان منزل « لورينـتز د . أوتهوج » المرتفع الخشبى ، المدهون باللون الأصفر ، يواجه ميدان السوق . وطابقه السفلى يضم المـكتب ومتجر الحدائد الـكبير ، فى حين يسكن أفراد الأسرة الطوابق العليا . وكان الناس يقولون : « هذا هو المـكان الذى يعيش فيه . » وعنـد ما يقطع ذلك الرجل العريض الـكتفين ، الأشهب اللحية ، شارع البلدة ، كانوا يقولون «هاهو ذا يسير » فهل كان إذن رجـلا كبيرا على هذا النحو ؟ وهو يصعب أن يقال عنه إنه غنى حقـاً ، وإن كان يملك « ورشة » للنشر

www.alkottob.com

الخشب ، ومصنع آلات ، ومطحنا ، ويملك أيضا منزلا ريفيا يقع على مسافة ما من البلدة . ولكن كان فيه نفحة من زعيم .. نفحة من نبى . كان يكره القساوسة ، ويقرأ البحوث الفلسفية العميقة ، ويحظر على أهله الذهاب الى الكنيسة .. وقد زاره « بيورسون » نفسه . ومن الخير لك أن يكون من أنصارك ، فإذا عاداك كان ذلك وبالا عليك .. ويجمل بك فى هذه الحالة أن تغادر البلدة كلية . وكانت له يد فى كل ما يجرى من الأمور ، فكأنما هو يملك البلدة بأسرها . ومن المعروف عنه أنه قد يقابل شابا فى الطريق لم يخاطبه من قبل قط فيبادره بهذا القول القاطع : « افهم ما أقوله لك أيها الشاب : عليك أن تتزوج هذه الفتاة . » بيد أن لورنتز أوتهوج لم يكن ، برغم هذا كله ، راضيا كل الرضا ، فهو حقيقة أسمى قدرا من قطان رينجبى جميعاً ، ولكن الذى أراده فى الواقع هو أن يكون أعظم رجل فى بلدة أكبر من هذه مائة مرة .

والآن إذ وجد له صهرا ، فهو يبدو كأنه يدور فى صمت حول هذا الغريب القبل من عالم كبير ، ويسير غوره ، ويسائل نفسه : « من أنت فى حقيقة أمرك ؟ ماذا رأيت ، وماذا قرأت ؟. أأنت تقدمى أم رجعى ؟ أأنت تقدر التقدير الصحيح ماحققته هنا من أعمال ، أم أنك تمضى ضاحكا فى سرك ، وتدعونى حوتاً وسط سمك صغير ؟ »

كان بير يفرك فى كل صباح عينيه عندما يستيقظ فى غرفته بالفندق . وهناك صورة فوتوغرافية لفتاة فى ريعان الصبا موضوعة فوق مائدة قائمة الى جوار فراشه . ماذا ؟ يا بير ، أهو أنت الذى وجد حقا ، آخر الأمر ، إنسانا يقف الى جواره ؟ إنسانا يهتم به فى هذه الحياة .. فإذا أصابك برد وجدت أناسا يحضرون ، ويلتفون حولك ، قلقين عليك ، سائلين كيف أصبحت .. وهذا يحدث لك أنت !

اعتاد أن يتغدى فى منزل أوتهوج كل يوم ، وكانت الأزهار تنثر دائما الى جوار صحفة طعامه . وغالبا ما كانوا يعدون له مفاجأة صغيرة ، فإما ملعقة أو شوكة من فضة خالصة ، وإما حلقة منقشة نقشت عليها الحروف الأولى من اسمه . وكان ذلك أشبه بمجمع قطع من القش لبناء عشه الجديد . واعتادت المرأة العجوز الشاحبة ذات العينات أن تنظر اليه فى رفق ، وكأنها تقول : « إنك تأخذ منى ، ولكنى أغفر لك ذلك »

www.alkottob.com

وكان يجلس يوما فى فندقه عاكفا على القراءة عندما دخلت ميرل عليه الغرفة ، وسألته :

— أتود أن تخرج للتنزه ؟

— فكرة طيبة. وأين نذهب اليوم ؟

— حسنا إننا لم نذهب حتى الآن لزيارة عمتى ماريت فى بروسيث . وينبغى فى الحق أن نذهب إليها كما تعلم . وسأصحبك الى هناك اليوم .

وكان بير يجد زيارات المجاملات هذه لأقاربه الجدد مسلية للغاية . وقد دأب على الطواف فعلا ، وجمع الأعمام والعمات . وها هى ذى عمة جديدة اليوم .. حسنا ، لم لا يذهب ؟

— وسألها فجأة وهو يضم رأسها بين يديه :

— ولكن .. أكنت تبكين يا عزيزتى ؟

— أوه ، هذا أمر لا أهمية له .. لنذهب الآن

وصدته برفق وهو يحاول تقبيلها . ولكنها ارتمت فى اللحظة التالية على أحد المقاعد ، وجلست تنظر إليه مفكرة من خلال عينيها المغمضتين نصف إغماض ، ومومئة برأسها إيماء خفيفاً . وبدا كأنها تسائل نفسها : «من ذا يكون هذا الرجل ؟ وما هذا الذى آخذه على عاتقى ؟ لقد كان منذ أسبوعين غريباً عنى تماما .. »

ومرت بيدها على جبينها وقالت :

— إنها أمى .. كما تعلم .

— أوقع اليوم أمر مكدر معين ؟

— إنها شديدة الخوف من أن ترحل بى الى الدنيا الواسعة فى لحظة تشيرفيها بذلك.

ولكنى أنبأتها أننا سنقيم هنا فى الوقت الحاضر .

www.alkottob.com

ولوت الفتاة فمها الى جانب فى ابتسامة ، وكاد جفناها يغلقان .

— وما الرأى إذن فيما يتعلق بى ؟... وقد عشت كل هـذه السنين متلهفة على الرحيل إلى الخارج ؟

وقال بير ضاحكا :

— وأنا الذى يتلهف على البقاء فى بلده ! ماأمتع أن يكون للانسان ، آخر الأمر بيت وأسرة ... وأمان وهدوء ؟

— ولـكن ما الرأى فيما يتعلق بى !

— ستـكونين هناك أنت أيضا . سأدعك تعيشين معى .

— أوه ، ! كم أنت أخرق اليوم ! آه لو تعرف فقط معنى تبديد المرء لأحسن سنى صباه فى جحر كهذا ! ويضاف الى ذلك ... أنه كان فى وسعى أن أحقق شيئاً ذا قيمة فى ميدان الموسيقى .

وقال بير وهى يجمدجبينه كأنما يريد أن يضحك .

— فلنرحل الى الخارج إذن على أية حال .

— أوه ، هذا هراء ، فأنت أدرى بأنه من المستحيل علينا تماما أن نرحل ونترك الآن أمى . ولـكنك جئت بالتأكيد فى وقت ملائم تماما . فإنى على أية حال كنت فى هذا الوقت بالذات أتوق وأتوق الى رجل يقبل ويمضى بى .

— آها ! أنا لم أكن إذن إلا نوعا من تذكرة سفر للقيام برحلة .

وتقدم إليها ، وقرصها من أنفها .

— أوه ! خـير لك أن تـكون حذرا ، فأنا لم أعدك بعد حقا بأن أتزوجك ... كما تعلم .

— لم تعدنى ؟ فى حين أنك فى الواقع طلبت ذلك أنت بنفسك .

ودقت بدا بيد :

www.alkottob.com

— يا لها من صفاقة وقحة ! أتزعم ذلك بعد أن قضيت أياما بأسرها وأنا أقول لك لا ، لا ، لا ... لا أريد ، لا أريد ، لا أريد ... وظللت أكرر لك ذلك عـدداً كبيرا من المرات . وكنت تجيبنى بأن ذلك لايهم ... لأنك « تريدنى » . نعم ، إنك أخذتنى على غرة أخذ جائر مستبد ... ولـكن حذار الآن .

وفى اللحظة التالية ألقت ذراعيها حول عنقه . ولـكنها صدته عنها ثانية عنـد ما حاول تقبيلها ، وقالت :

— لا ، ينبغى ألا تظن أنى طوقت عنقك لهذا !

وبعد قليل كانا يقطعان الطريق الزراعى متجهين إلى العمة ماريت فى بروسيث ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر . وكان الشهر شهر سبتمبر ، وكل ماتحيط بالتـلال المـكسوة بالأشجـار يتراءى قائما أصفر اللون ، وكانت حقول القمح ذهبية ، وتوت الجبال قرمزيا ، ولـكن الصيف كان لايزال شائما فى الجو :

وصاح ميرل وقد توقفت عن السير مبهورة الأنفاس :

— أوج ! كم أنت تسير بسرعة غير مستطاعة !

وجلسا فوق الحشائش الى جوار الطريق عند ماوصلا الى « البوابة » . وكانت البلدة تقبع تحتهم بأسطحها العديدة ، ومداخنها القائمة تجاه البحيرة المتألقة التى تنبسط محاطة بالضياع والحقول الواسعة الامتداد .

وسألت ميرل فجأة :

— أتعرف كيف حدث وأصبحت أمى ... على ماهى عليه ؟

— لا ، أنا لم أود أن أسألك عن هذا .

وجذبت من بنى شفتيها عودا من الحشائش

— حسنا ، اعلم ... أن جدى لأمى كان قسا . وعند ما ... عنـد ما حظر عليها أبى الذهاب الى الـكنيسة أطاعته . ولـكنها لم تستطع أن تنام بعد ذلك . لقد أحست كما لو أنها باعت روحها .

— وماذا قال أبوك فى ذلك ؟

www.alkottob.com

ـــ قال إنها حالة هيستيريا . ولكن سواء أكانت هيستيريا أم لا فإن أمى لم تستطع النوم . وأخيرا اضطروا لنقلها الى مصحة .

وقال بيير وهو يمسك بيد الفتاة .

ـــ مسكينة !

ـــ وعند ما عادت من هناك كانت قد تغيرت الى حد يصعب معه على المرء أن يعرفها . وتراجع أبى قليلا... تراجع أكثر مما اعتاد طوال عمره ... وقال: «حسنا ، حسنا ، أحسب أنه لابد من ذهابك الى الكنيسة فيما إذا رغبت فى ذلك ، ولكن عليك ألا تبالى بعدم ذهابى معك . » وعلى هذا أمسكت بيدى فى يوم أحد ، ومضينا سويا ، ولكننا عند ماوصلنا الى باب الكنيسة ، وسمعنا عزف الأرغن داخلها دارت على أعقابها وقالت : « لا ، لقد فات أوان ذلك الآن ... فات أوان ذلك ياميرل. » ولم تذهب الى الكنيسة منذ ذلك اليوم قط .

ـــ وظلت غريبة الأطوار دائما ... منذ ذلك الحين ؟...

وتنهدت ميرل :

ـــ وأسوأ مافى الأمر أنها تجد شرورا كثيرة تحيط بها ، وتقول إن الشىء الوحيد الذى يمكن عمله هو التنفيس عن تلك الشرور بالضحك ، ولكنهالاتستطيع هى نفسها أن تضحك ، وعلى ذلك أضطر أنا الى الضحك . ولكننى عند ما ابتعد عنها ... أوه ! عندئذ لا أستطيع احتمال ذلك .

وخبأت وجهها فى كتفه ، وبدأ يمسح شعرها .

ورفعت بصرها ، مبتسمة ابتسامتها الجانبية :

ـــ خبرنى يابير ... من منهما على حق ؛ أهى أمى أم أبى ؟

ـــ أحاولت حل هذه المشكلة ؟

ـــ نعم ، ولكن ذلك ميئوس منه كل اليأس ... ومن المستحيل كل الاستحالة أن يصل المرء الى أى نوع من اليقين . وماذا ترى أنت فى ذلك ؟ قل لى يابير ، ماذا ترى فى ذلك ؟

www.alkottob.com

وجلسا هناك فى خلوة وسط يوم الخريف الذهبى ، وكانت تضغط كتفه برأسها ... لماذا يقوم بدور الرجل المتفوق ، ويحاول تضليلها بعبارات مبهمة ؟

يا عزيزتى ميرل ، أنا لا أعرف بالطبع أكثر مما تعرفين ... لقد مر بى وقت رأيت فيه الخالق يمسك عصا بإحدى يديه ، وقطعة من الحلوى باليد الأخرى ... مجرد عقاب وثواب الى أبد الآبدين . ومن ثم ابتعدت عنه لأنه بدا لى جبارا .. وفى آخر الأمر توارى عنى فى السموات العلى بين الأفلاك الشمسية ، وبين الفضاء اللامتناهى هنا فى هذه الحياة الدنيا ، فماذا كانت حياتى بالنسبة لهذا ؟ وماذا كانت أحلامى وأفراحى وأحزانى ؟ وما الذى كنت أهدف إليه ؟.. لقد ظل فى نفسى شىء يقول لى على الدوام: إنه موجود !.. ولكن أين ؟ . . فى مكان ما وراء الأشياء التى تعرفينها ... هناك هو موجود . ولذلك عقدت العزم على أن أعرف قدراً أكبر من الأشياء ... قدراً أكبر وأكبر وأكبر . . وكم كنت أكثر حكمة ؟ وإذا حطمت رأسى مطرقة بخارية فى يوم من الأيام . . فماذا يكون مصير ما فزت به من نصيب فى التقدم والثقافة والعلم ؟ إن وجودى لا يزيد عن مصادفة وجود أية ذبابة أو نملة ؟ ألا يعنى وجوده شيئاً أكثر من ذلك ؟ هل أتبدد ولا أترك إلا مثل ذلك الأثر الضئيل ؟ أجيبينى على ذلك يا صغيرتى ميرل . . مارأيك ،

وجلست الفتاة دون حراك ، تتنفس فى هدوء ، مغمضة العينين ، ثم بدأت تبتسم . وكانت شفتاها ممتلئتين حمراوين ، واتخذتا أخيراً شكل الاستعداد لقبلة .

كانت بروسيث ضيعة كبيرة تقع فى أعلى البلدة بحديقتها الغناء ، وطرقها المحاطة الأشجار ، وشرفات بيتها الأبيض المستطيلة الدائرة حوله . وما أجمل المنظر البادى تحتها حول البحيرة والريف الممتد عن بعد فى مختلف نواحيها ! ووقفا كلاهما لحظة عند البوابة ، ملتفتين خلفهما .

كانت عمة ميرل أرملة غنية ، ذات وجاهة وحل وعقد ، ولكنها ذات نزوات إلى حد ما ، فمينة أن تكون سخية فى يوم من الأيام ، بخيلة فى اليوم الذى يليه . وكان همها فى هذه الحياة أنها لم ترزق أطفالا ، ولكنها لم تقرر بعد من يكون وريثها . ودخلت الغرفة وكأنها تسبح فى الهواء حيث كان الخاطبان فى انتظارها . ورآها بير

www.alkottob.com

وهى تقبل صوبهما ، امرأة فارعة الطول ، ممتلئة الصدر ، شائبة الشعر ، متوردة اللون . وقال لنفسه : « أوهوه ! هاهى ذى عمة لك لامناص منها . » وخلعت مئزراً أزرق كانت ترتديه ، وبدت مكتسية بثوب أسود من الصوف ، مطوقة العنق بسلسلة ذهبية ، ومزينة الأذنين بقرط ذهبى طويل .. وقالت :

ـــ لقد فكرتم إذن فى زيارتى أخيرا ، وتذكرتم على أية حال وجودى فعلا ، أليس كذلك ياميرل ؟

والتفتت إلى بير ، وظلت تفحصه بعينيها ، متكئة بيديها على جانبيها :

ـــ هكذا أنت تبدو إذن ، أليس كذلك يابير؟ وأنت الرجل الذى قدر له أن يفوز بميرل ؟ حسناً ، هأنذا ترى أنى أدعوك بير من فورى ، وإن كنت قد جئت متجشماً الرحلة الطويلة من .. الجزيرة العربية ، أليس كذلك ؟ اجلس ، اجلس .

وجىء بالنبيذ . ورفعت العمة ماريت ، صاحبة ضيعة بروسيث .. رفعت كأسها صوب الخاطبين لتشرب نخبهما ، وقالت مايلى :

ـــ إنكما ستتشاجران بالطبع ، ولكن إياكما والتطرف فى ذلك ، هذا كل مافى الأمر . وأصغ إلى كلماتى يابير هولم ، إذا أنت لم تحسن معاملتها فسأحضر إليك فى يوم من الأيام وأشد لك أذنيك .. فى صحتكما يا ولدى !

وسارا كلاهما عائدين الى داريهما ، وتأبط كل منهما ذراع الآخر ، وأخذا يرقصان فى سفوح التلال ، ويغنيان مغتبطين وهما يواصلان مسيرهما . ولكن ميرل توقفت فجأة وهما لايزالان على مسافة ما من البلدة ، وأشارت هامسة :

ـــ ها هى ذى ، ها هى ذى أمى !

كانت امرأة تمشى بمفردها على مهل فى ضوء الشفق ، متخطية حقلا حصدت حنطته ، ومتلفتة فيما حولها . وكانت تبدو كأنها تأخرت هناك لتستجلى معنى شىء ما .. أو معنى أشياء كثيرة . وكانت ترفع بصرها كل حين وحين الى السماء ، أو تخفضه الى البلدة التاوية تحتها ، أو إلى عابرى الطريق ، ثم تومىء برأسها وكم كانت تبدو بعيدة

www.alkottob.com

بعدا غير محدود ! وغريبة تماما عما يرتكب الرجال من أعمال صاخبة ! .. ما الذى تراه الآن ؟ وأين تحوم خواطرها ؟

وهمست ميرل وهى تجذبه معها :

ـ دعنا نواصل السير .

وعلى حين فجأة بدأت الفتاة تغنى بصوت مرتفع وكأنها مدفوعة بفيض من البهجة. وحذر بير أن تفعل ذلك فى سبيل أمها . ولعل المرأة المختلية بنفسها تقف الآن هناك فى الشفق مبتسمة . وهى تشيعهما بنظراتها .

وفى صباح يوم أحد ركبت ميرل عربة خفيفة يجرها حصان أسمر ضخم ، وتوجهت بها الى الفندق . وجاء بير ، وتسلق العربة تاركاً اللجام للفتاة . وكانا سيجتازان شاطىء الفيورد فى طريقهما لتفقد الضيعة الكبيرة المملوكة لأبى ميرل ، والتى كانت دارها فى الزمن الماضى مقرا رسميا لحاكم الإقليم .

كان شهر سبتمبر قد بلغ نهايته ، والشمس لا تزال دافئة ، ولكن ماء البحيرة كان رماديا ، والحقول محصودة الزرع . وهنا وهناك كانت تمتد خطوط من سيقان البطاطس ملقاة فى انتظار غرسها . وفى الجوانب العليا من التلال وقفت الخيول المقيدة فى المراعى تومىء برؤوسها فى بطء . وكأنها لم تجهل بأن اليوم يوم أحد . وكان هناك ضباب خفيف متخلف من رطوبة الليل يسبح هنا وهناك فوق المنظر الطبيعى المترامى الأطراف .

واجتازا غابة ، ووصلا من ناحيتها الأخرى الى ممر محاط بصفين من شجر البلوط ، متفرع من الطريق العام ، صاعد فوق التل الى قصر كبير يرفرف فوقه علم . وكان هذا المسكن الأبيض الكبير يقع على مرتفع من الأرض ، وكأنما هو يقصد بموقعه هذا أن يمتد بصره بعيدا الى أطراف العالم الذى يشرف عليه . وكانت بيوت المزرعة الحمر تحيط بالفناء الواسع من ثلاث جهات ، وتبدو من تحتها الحدائق والأراضى العريضة ، منحدرة الى ناحية البحيرة .. إنه لشىء يشبه ضيعة حقا !

وصاح بير وهو ينظر الى تلك المبانى :

www.alkottob.com

— ما اسم هذا المكان ؟

— لورينج .

— ومن مالكه ؟

وأجابت الفتاة وهى تقرقع سوطها:

— لا أدرى .

وفى اللحظة التالية دار الحصان سالكا طريق القصر ، فأمسك بير اللجام دون قصد وصاح : « هيه أيها الأسمر .. إلى أين أنت ماض بنا ؟ »

وقالت ميرل :

— لماذا لا نصمد ونلقى نظرة ؟

ولكننا جئنا لنرى ملك أبيك

— حسنا . هذا هو ملك أبى

وحملق بير فى وجهها ، وأرخى العنان للحصان :

— ماذا ؟ ماذا ؟ أتقصدين أن تقولى إن أباك يملك هذا المكان الواقع هناك ؟

وبعد مضى بضع دقائق كانا يتجولان خلال الغرف الهائلة ، الوطيئة الأسقف . والمنزل الآن خال بأسره ، فناظر الضيعة يقطن فى مساكن الخدم . وازدادت حماسة بير شيئاً فشيئاً .. فقد كانت تنعقد هنا ، فى هذه الغرف الواسعة ، حفلات كثيرة فى أثناء ولاية الحكام القدامى ، حيث كان الفرسان ، وهم يرتدون سترانهم الرسمية ، وقمصانهم ذات الأهداب ، ومهامزهم الذهبية ، يقبلون أيدى السيدات الرافلات فى الثياب الحريرية .. إن خشب « المغنى » القديم ، « والزهريات » الملأى بمختلف أوراق الورد ، والأغانى المبهجة ، والفكاهة واللطف .. كل ذلك رآه بير بعين الخيال ، وكان يضطر مراراً وتكراراً أن ينفس عن مشاعره بإمساك ميرل واحتضانها :

— أوه ، ولكن اسمعى يا ميرل ، إن هذه قصة وهمية .

وخرجا الى الحديقة القديمة المهملة ذات الممرات النامية الحشائش . والبرك المملوءة بالأسماك . وجوانب الحديقة المتهدمة . واندفع بير الى مختلف اتجاهاتها . فقد كانت

www.alkottob.com

هنا أيضاً تقام الأعياد ، وتعلق المصابيح الملونة حول المكان ، وكان فى ظل كل دغل يتهامس عاشقان :

— يا ميرل ! أتقولين إن أباك كان سيبيع هذا كله الى الدولة ؟

وأجابت الفتاة :

— نعم ، إنى أتوقع أن هذا هو ما سينتهى إليه الأمر . وأبى يقول إن المكان لا يعود عليه بربح ما دام أنه لا يستطيع الإقامة به والإشراف عليه بنفسه .

— ولكن أى نفع تجنيه الدولة منه ؟

— أوه ، أعتقد أنها ستجعل منه مصحة للمعتوهين .

— يا إلهى ! كان من الممكن أن أحزر ذلك . مستشفى المعتوهين .. بالتأكيد .

وطاف حول المكان وهو يكاد يقفز من الانفعال .

— ميرل ، اسمعى .. أتوافقين على المجىء والسكنى هنا ؟

— أتريد منى أن أجيب على سؤالك الآن من فورى ؟

— نعم ، لأنى أريد شراء هذا المكان الآن ، من فورى .

— ولكن ، ألست ..

— انظرى يا ميرل ، انظرى فقط الى هذا كله .. هذه الشرفة المستطيلة هناك ذات الأعمدة اليونانية الطراز .. ليس هنا شىء رث يشوب المكان .. إنه الشىء الأصيل .. إمبراطورية .. أنا أعرف شيئاً عن هذا .

— ولكنه سيكلفك مبلغاً كبيراً يا بير .

وكان صوتها يدل على شىء من الإحجام ، فهل انصرف تفكيرها الى كمانها ؟ .. أهى لا تريد أن تثبت كل الثبات على رأى ؟

وقال لها :

— سيكلفنى مبلغاً كبيراً ؟ ما الثمن الذى دفعه أبوك فيه ؟

www.alkottob.com

ـــ بيع المكان بالمزايدة العلنية ، ودفع فيه أبى عناً وهيداً .. أظن الثمن كان خمسين ألف كراون .

وخطا بير صوب المنزل ثانية :

ـــ سنشتريه . إنه المكان المناسب تماما لنجعل منه بيتاً .. خيول وماشية وغنم وماعز ومزرعة .. آه ! سيكون ذلك عظيما .

وتبعته ميرل وقد ازدادت خطواتها بطئاً :

ـــ ولكن تذكر يا بير أنك اشتريت من توك مصنع آلات أبى فى المدينة.

وقال بير ساخرا :

ـــ بوه ! أتظنين أنى أعجز عن إدارة ذلك المصنع الربفى ، وأقيم هنا أيضاً ؟ .. تعالى يا ميرل .

وأمسكها من يدها وجذبها الى المنزل ثانية .

ولم تكن هناك جدوى من محاولة مقاومته ، وجرجر الفتاة من غرفة إلى غرفة ، وأثث كل غرفة فى أثناء مروره بها :

ـــ هذه الغرفة هى غرفة الطعام . وهذه غرفة الاستقبال الكبرى وهـــذه ستكون غرفة المكتب .. وهذه خدرك .. تعالى الآن ، وسنذهب غدا الى كريستيانا لنشترى الأثاث .

ولهثت ميرل محاولة التقاط أنفاسها . فقد شطح هذه المرة بعيدا إلى حد أن تم فرش المنزل ، وأقبلا فأقاما فيه . وقد جاء منذ الآن بمدبرة للمنزل . وأقام الحفلات أيضاً .. هنا قاعة الرقص .. وانسلت ذراعه حول خصر ميرل ، ودار يرقص معها فى الغرفة الى أن ذهبت بها الحماسة كل مذهب ، فوقفت متوردة اللون ، متهالة الوجه ، فى حين أن كل ما حلمت به من عثورها فى أحد الأيام على وسيلة تخرج بها الى العالم الفسيح ، بدا كأنه تبدد من حولها هنا فى هذه الغرف الخالية .. أهذا المكان سيصبح بيتها حقا ؟ وتوقفت لتلتقط أنفاسها ، وتدور بنظرها فيما حولها .

www.alkottob.com

وفى ساعة متأخرة من المساء جلس بير فى الفندق ، وأخذ يحسب فى دفتر صغير حساب الصفقة . لقد اشترى «لورينج» ، وكان حموه معقولا ، فباعه الدار والأراضى والغابات وكل ما عدا ذلك بنفس الثمن البخس المضحك الذى اشتراها به . وكان ذلك العقار مرهونا نظير مبلغ ثلاثين ألف كراون . . حسنا ، فليظل الرهن باقياً كما هو لأن الجانب الأكبر من رأسمال بير محتجز للاستثمار بشركة فردناند هولم .

وبعد مضى بضعة أيام رحل بيرل الى العاصمة تاركا النجارين والدهانين يعملون بجهد فى لورينج .

وبينما كان يجلس وحده يوما بفندق كريستيانا — إذ خرجت ميرل وقتئذ تتسوق — سمع دقة حذرة بالباب ، فنادى :

— ادخل .

ودخل الغرفة رجل وسيط القامة ، فى الثلاثين أو يزيد ، يرتدى سترة سوداء من طراز «الفروك» ، وصدرية عريضة ، ويغطى الجانب الأصلع من قمة رأسه بشعره الأسود المعتنى بتمشيطه . وكان له وجه أحمر متهلل ، وعينان زرقتهما صافية أشد الصفاء . . كان كل مافيه ينضح ويتألق بشاشة ولطفا .

قال القادم الجديد فى انحناءة وابتسامة :

— أنا أوتهوج الابن

— أوه . . هذا عظيم .

— جئت توا من مانشستر . . . رحلة كريهة . شكرا ، شكرا . . . سأجد لى مقعدا .

وجلس ، وألقى بساق ذات سروال مخطط على الساق الأخرى .

وأرسل بير فى طلب نبيذ . وفى خلال نصف ساعة أصبحا حليفين حميمين . وحكى أوتهوج الابن قصة حياته فى سرعة . لقد هرب من بيت أبيه لأن هذا الأخير رفض أن يسمح له باحتراف التمثيل . . وقد وجد بالتجربة أنه لم تكن ثمة مسارح كافية فى تلك الأيام تتيح له الالتحاق بها . . ثم اشتغل بالأعمال الحرة لحسابه الخاص ،

www.alkottob.com

وأصبحت له الآن وكالة عامة لبيع الأقمشة الصوفية الإنجليزية . كان رأيه التمتع « بالحرية ، بالحرية . » « وشق الأمكنة الفسيحه .. الأمكنة التي تتسع للحركة دون أن يقول المرء لأبيه أو لغير أبيه : بعد إذنك ، أو عن إذنك .. في صحتك ! »

وبعد مضى أسبوع اكتظ الشارع ، خارج منزل لورنتز د . أوتهوج ، بأناس تطلعوا جميعاً الى صفوف طويلة لنوافذ مضاءة . لقد أقيمت تلك الليلة وليمة في بيت الرجل العظيم . وحوالى منتصف الليل جاءت عربة الى باب البيت ، وهمس أحد النظارة : « هذه عربة الزوج . لقد جاء بهذين الجوادين من الدينمارك !

وفتح باب البيت الرئيسي ، وظهرت على السلم طلعة بيضاء الوجه ، متدثرة بملابس سميكة ، وهمس الحشد المتجمع : «هذه العروس ! » ثم ظهر رجل رشيق يلبس معطفا أسود . وقبعة حريرية .. « وهذا الزوج ! » وبينما كان العروسان يمران تعالى صوت صاحب الوكالة العامة لبيع الأقمشة الإنجليزية ، وهتف «مرحى ؛ مرحى ..» وعلى الأثر توالت هتافات الناس طواعية

وسارت العربة ، وجلس بير مطوقا خصر عروسه بذراعه ، وأطلق لجواديه العنان مجتازا طريق الفيورد ، ومضى صوب بيته ، صوب قصره ، صوب مستقبل جديد غير مختبر

www.alkottob.com

الفصل الخامس

تحت سقيفة الحطب فى « لورينج » وقف رجل ضئيل أشعث ، شائب اللحية ، يقطع بعض الخشب وينشره . وكان يعيش فى تلك الدار مدة أطول من الحد الذى يستطيع أحد أن يتذكره . وكان سيد من سادة الدار يرحل عنها ، ويحل محله سيد آخر ، ولكن أكان ذلك يهم الرجل الضئيل فى شىء؟ ألم يكن ذاك السيد يحتاج إلى خشب للوقود ، وكذلك السيد الآخر يحتاج للوقود مثل الأول تماما ؟... واعتاد فى المساء أن يتسلل الى مخدعه فى أعلى جناح الخدم . وفى أوقات تناول الطعام كان يجلس فى آخر مقعد من مقاعد مائدة المطبخ ، ويخيل إليه أن هناك دائما طعاما يمكن الحصول عليه . وفى الوقت الراهن كان اسم صاحب الدار هولم ... وهو مهندس ... وكان الرجل الضئيل يختلس النظر اليه ، ويستمر فى تقطيع الخشب تحت السقيفة . وإذا جاءوا إليه وأنبأوه أنه غير مرغوب فيه ، ولا بد من مغادرته للدار ، فهو يصبح عندئذ ، والحمد لله ، حجراً أصم على نحو مايعلم الجميع . وكان صوت ضربات فأسه لا ينقطع تحت السقيفة . واعتاد من يقطنون حول ذلك المكان صوت فأسه الى حد أنهم لم يعيروه اهتماما أكثر من اهتمامهم بدقات ساعة معلقة بالحائط .

وفى مطبخ البيت الكبير وقفت فتاتان إلى جانب النافذة تختلسان النظر إلى الحديقة وتتضاحكان ... قالت لورا :

— ها هو ذا يبدو ثانية ... « هش » ! لاتضحكى بصوت عال إلى هذا الحد ... ها هو ذا !... إنه يتوقف الآن ثانية !

وقالت أوليانا :

— إنه يصفر لعصفور ، أو لعله يخاطب نفسه . أتظنين أنه سليم العقل تماماً ؟

« هش ! » ستسمعك السيدة .

لم يكن هذا الرجل الذى أدهشتهما تصرفاته إلى حد أن وجدتاها مضحكة جداً ! إلا سيد قصر لورينج نفسه .

إنه يدور فى أرجاء الحديقة الكبيرة المهملة ، واضعا يديه فى جيبى سرواله ، وقبعته فى مؤخرة رأسه . وكان يتوقف هنا ، ويتوقف هناك ، ثم يواصل السير وفق ما يملى عليه هواه . وكان يهمهم أحيانا فقرة من أغنية ، أو ينقلب ثانية الى الصفير . وقد

www.alkottob.com

يلتقط هنا غصناً وينظر إليه، وقد يهتم بعصفور مرة أخرى ، أو لعل شجرة تفاح مهملة هي التي تستحق على ما يبدو أن يتوقف أمامها ويخاطبها ، وأفضل مافي الأمر أن هذه الأراضي وهـذه الغابات الراقدة تحت شمس أكتوبر الصدئة هي أراضيه وغاباته . فهل هـذا كله لا يعد شيئا ؟ وكذلك التل الذي يقع على الشاطىء البعيد ، ويبدو في مرآة البحيرة الداكنة واقفاعلى رأسه مكتسيا بعالم كامل من الألوان ... أغصان صفر ، وأغصان خضر ، وأخرى ذات بقع وردية وقرمزية وذهبية وحمراء قانية ، تتخللهـا أغصـان شجر الصنوبر ذات اللون الأخضر الداكن . كان في وسع عينيه أن تستريحا بين أحضان هذا كله . أهو يعيش هنا حقا ؟ ما أوفر الخصب المحيط به ! ويا لها من سماء بدا من اتساعها، ومن لونها الذهبي كأنها تطوق الأرض مرة فوق مرة . ورقدت جذوع البطاطس ، مرتفعة السيقان إلى أعلى ، منتثرة في الحقول . وحفظ القمح في مخازنه .. ها هو ذا يقف هنا ؛ ويبدو ثانية كأنه يستمد الغـذاء من كل مايرى ، ويعبه عبا في شراهة . لقد امتلأت نواحي عقله الفـارغة كلها ، وأثر في كيانه المنظر الطبيعي الغني الرقيق ، وخلع عليه شيئا من خصبه الوفير ، ومن سكينته العميقة .

و ... ماذا بعد ذلك ؟

وساءل نفسه مردداً في محاكاة آلية « وماذا بعد ذلك ؟ » وبدأ يتجول من جديد رائحـا غاديا في ممشى الحديقه ... ماذا بعد ؟ ... ماذا بعد؟ ألا يستطيع أن يتيح لنفسه الآن أن يتمهل ... وأن يستريح قليلا ؟... لابد أن تـكون لـكل إنسان غاية يضعها نصب عينيه ... ولا بد أن يناضـل حتى يبلغ هذا الهدف أو ذاك . فما هو هدفه الآن ؟ وأي شيء بذل كل هذا الجهد في سبيله منذ تلك السنوات القاسية التي قضاها في الغرفة المسحورة فوق الإسطبل حتى الآن ؟ما هو هذا الشيء ؟ ... في أغلب الأحيان يبدو كأن كل شيء يجري في يسر ... يجري من تلقاء نفسه ، وكأنه هو سيجد دون مراء ، في أحد الأيام ، نصيبه في تناسق عالم سعيد عظيم . ولـكن أهو لم يجـد ذلك الآن ؟ وما الذي يـمكن أن يجده زيادة على ذلك؟... لاشك أنه وجده .

ولـكن أهذا هو كل شيء إذن؟ وماذا يكمن خلفه ... ماذا يكمن وراء حدوده؟ صه ! كف عن التساؤل . انظر إلى الجمال المحيط بك ... هنا الاطمئنان ... الاطمئنان والراحـة .

www.alkottob.com

وصعد مسرعا إلى البيت ... ودخله ... وإذا استطاع أن يطوق زوجته بذراعيه فقد يعين ذلك على إصلاح الأمور . وقد يحمل زوجته على الخروج معه لفترة من الزمن .

وكانت ميرل فى مخزن المؤن مؤتزرة بمئزر كبير ، مشتغلة بتنسيق دنان الأطعمة المحفوظة فوق الرفوف .

وصاح بير وهو يلقى بذراعيه حولها :

ـــ هاأنت ذى يازوجتى الصغيرة العزيزة ، ما رأيك فى جولة قصيرة ؟

ـــ الآن ؟ أتحسب أن ربة البيت ليس لها شاغل أفضل من التجول هنا وهناك ؟ أف ! ... شعرى ! إنك تفسد تمشيطه .

وأمسك بير بذراعها ، وقادها إلى النافذة ، وأطل على البحيرة :

ـــ انظرى ياعزيزتى ! أليس المنظر بديعا هنا ؟

ـــ إنك ظللت تسألنى هذا السؤال عشرين مرة فى اليوم الواحد منذ مجيئنا إلى هنا .

ـــ نعم ، وأنت لم تجيبى على سؤالى قط . ولم تسرعى إلى مرة واحدة حتى الآن ، وتطوقى عنقى بذراعيك ، وتقولى لى كم أنت سعيدة . بل لم يحدث إلى اليوم قط أنك منحتينى قبلة من تلقاء نفسك .

ـــ أحسب أنه لا ينبغى لى ذلك ما دمت تختلس منى هذا القدر الكبير من القبلات .

وزحزحته عنها جانبا ، وتملصت من تحت ذراعه ، وجرت إلى خارج الغرفة ، وقال فى أثناء خروجها :

ـــ لا بد من الذهاب لأرى أمى ثانية اليوم .

ـــ « ويت ! » ... بالطبع .

www.alkottob.com

وأخذ يذرع الغرفة رائحا غاديا ، ونمت خطواته على ازدياد ضجره :

ـــ الذهاب إلى أمك ... الذهاب إلى أمك ! ... أمك ، أمك ، ولا شيء غيرها دائما وإلى مالا نهاية ... ويت ! ... ويت !

وبدأ يصفر .

وأطلت ميرل برأسها من الباب :

ـــ يا بير ... أليك هذا القدر الهائل من الوقت المتوفر ؟

ـــ حسنا ... نعم ، ولا . أنا مشغول الى حد كبير بالبحث فى كل ركن حولى هنا عن شيء ما ، ولكنى لا أستطيع أن أجده ، ولا أعرف حتى ما هو هذا الشيء على وجه التحديد ... أوه ، حسنا ، نعم ... إن لدى قدرا كبيرا من الوقت المتوفر .

ـــ ولكن ماذا عن أعمال المزرعة ؟

ـــ حسنا . هناك حالبة اللبن فى حظيرة البقر ، وسائس الخيل فى الأسطبل . وهناك وكيل الأعمال الذى من شأنه أن يهتم بمستأجرى الأرض والفلاحين . فماذا أصنع أنا ... هل أتدخل هنا وهناك لأقوم بشيء من التحسينات ؟

ـــ ولكن ماذا عن المصنع ؟

ـــ ألا أذهب إليه مرتين يوميا ... ألا أركب إليه لأرى كيف تسير الأمور فيه؟ ولكنه مع وجود «رود» مديرا له ... ذلك المهندس الممتاز ذو المبادىء السامية ...

ـــ أنت تستطيع بالتأكيد أن تعاونه بطريقة ما ؟

ـــ إن عليه أن يسير فى نفس الخط الذى اعتاده ، وليس أمامه غير ذلك. يا عزيزتى . والحصول على ربح صاف يبلغ أربعة آلاف كراون ، أو خمسة آلاف كراون ... ! إن هذا رائع !

ـــ ولكن ألا تستطيع أن تزيده اتساعا ؟

ورفع حاجبيه ومط فمه .

ـــ أزيده اتساعا ؟ ... أقلت أزيده اتساعا ... أأزيد اتساع متجر للدمى !

www.alkottob.com

— أوه ، ينبغى ألا تسخر منه يا بير ... هـذا الشيء الذى بذل أبى كل ذلك الجهد فى سبيل إنشائه !

— وأنت يا ميرل ينبغى ألا تظلى تضايقينى لتحملينى على العودة الى العمل جديا . ينبغى حقا ألا تفعلى ذلك . وفى يوم ما قد أجد أن لا سبيل الى السعادة فى هـذه الدنيا إلا إذا جررت محراثاً ، ونظرت أمامى رأساً ، ونسيت وجود أى شيء عـدا ذلك . ولعل الأمر سيصل بى إلى هذا فى يوم من الأيام . ولكن امنحينى أولا مندوحة من الوقت أتنفس فيها ... وأجيبينى ... حسناً ، أستودعك الله لفترة قليلة من الزمن .

وأطلت ميرل من النـافذة ، بعد شغل نفسها بالعمل ثانية فى مخزن المؤن ، ورأته يدخل « الإسطبل » ، ويتوارى هناك . وكانت فى بادىء الأمر توافقه فى تجواله على هذا النحو ، ولمسه كل الأشياء التى يملكها وجسها . وقد يحدث فى حظيرة الماشية أن يربت البقر ، ويمسح جلدها ، ويتعرض لامتـلائه بشعرها ، ويثرثر فى فرح كفرح الأطفال : «انظرى يا ميرل ... هذه البقرة ملـكى أيتها الطفلة ! و« دجروس » هو اسمها ... وهى ملـكى . ولدينا أربعون بقرة مثلها ... وهى كلها ملـكى . وهذا الحصان الصغير هناك .. ما أجمل منظره ! إن لدينا ثمانية أحصنة مثله ، وهى جميعها ملـكى .. وملـكك أنت أيضاً بالطبع ، ولـكنك لا تبالين بها قيـلا ، بل إنك حتى لم تحتضنى أى واحد منها إلى الآن . ولـكن عنـد ما يكون المرء فقيراً على نحو ما كنت أنا .. ثم يستيقظ فى يوم من الأيام فجأة ويجـد أنه يمتلك هذا كله ... لا ، انتظرى لحظة ، يا ميرل .. تعالى وقبلى « براوتى » العـزيز . إنها تعرف هذه الطقوس والشعائر الآن .. وهو قمين أن يكررها جميعها مرة بعد مرة ، ويبدى فى كل مرة نفس عجبه السعيد . فهل هو شيء شنيع منها أنها بدأت تجد ذلك مضحكا بعض الشيء ؟ وكيف يحدث أنها فى أغلب الأحيان ، عند ما يمتلىء قلبها بأعمق مشاعر الشوق إليه ، وينقض هو عليها فى صخب ، متعطشاً الى تدليلها له ، تبرد مشاعرها فجأة ، وتبعده عنها جانباً ؟ ما الأمر ؟ لماذا تتصرف على هذا النحو ؟

لعل ذلك يرجع إلى أنه أقوى كثيراً ، ومتقلباً فى تأثيره عليها إلى حـد اضطرها إلى التماسك بقوة حتى تتجنب التعرض للاكتساح وفقدان شخصيتها ، وهما قد يجلسان فى لحظـة من اللحظات تحت ضوء المصباح ، ويتسامران فى يسر ، ويشتد التداني بين

www.alkottob.com

قلبيهما وعقليهما ، ثم ينتهى ذلك فى اللحظة التالية .. فقد يهب من مقعده فجأة ، ويلقى مايشبه المحاضرة وهو يزرع الغرفة ذهابا وإياباً .. ياميرل ، أليست حياة النبات الروحية مدهشة ؟.. ثم ينحدر سيل جارف من الحديث عن نمو النباتات الغريبة فى الشمال والجنوب ، نباتات لم تسمع قط حتى اسمها .. وصراع تلك النباتات فى سبيل الحياة ، ومودتها وأشواقها ، وبطولاتها فى احتمال الأمراض ، وأعجوبة موتها المقدسة ، وابتكاراتها ، وحكمتها .. بل ، وشعورها الدينى .. أليس ذلك عجيبا ياميرل؟ وليس من مة إلا خطوة واحدة للانتقال إلى طبقات الأرض والحفريات والتبلورات .. محاضرة جديدة .. ثم إنه يحمل ذلك كله ، ويسلكه فى تناسق واحد هائل لحركة التطور ، ابتداء من الخلية الأولى للحياة إلى قوانين الجاذبية التى تتحكم فى مجرى الأفلاك .. أليس هذا مدهشاً ؟ نعم موزون عام يشمل إيقاعه الكون .. إنه « سيمفونية » العوالم بأسرها .. ولا بد له بعد ذلك أن ينال قبلة !

ولكنها لم تكن تستطيع إلا أن تتراجع وتنحيه جانباً فى رفق .. وكأنما هو قد جاء بجميع معارفه المختزنة .. معارفه عن النباتات والحفريات والتبلورات والنجوم .. وصبها كلها فى ملاطفة وتدليل . ولا تكاد ميرل تستطيع إلا أن تصيح مستغيثة . وبعد أن يمر بها ، على هذا المنوال ، خلال أعاجيب العالم ، قد يمسك بها فجأة بين ذراعيه ، ويدور بها فى نشوة عاطفية من نشوات حواسه حتى تصحو آخر الأمر فتجد كأنها امرة ضالة فى جزيرة لا تكاد تعرف أين هى ، أو من هى .. وتضحك ، ولكن كان فى وسعها أن تدرك أنها فى أعماقها تبكى .. أيمكن أن يكون هذا هو الحب ؟ .. إن المشاعر المختزنة بين أضلاع ذلك الرجل القوى الذى لم تكن حياته حتى الآن إلا سلسلة من الدرس والعمل ، انفجرت الآن فى عنف إذ وجدت لها متنفسا ، ولكن لماذا تجعل ميرل فائرة على هذا النحو ؟

وعند ما عاد بيرمن الإسطبل وهو يهمهم لحنا ، وجدها فى غرفة الجلوس مرتدية ثوباً أسود من الصوف ، ومطوقة عنقها بشريط أحمر .

وتوقف فى مكانه :

— قسما بالله إن هذا الثوب يلائمك كل الملاءمة ياميرل !

وتركت عينيها تتعلقان به لحظة ، ثم قدمت إليه ، وألقت بذراعيها حول عنقه.

www.alkottob.com

— أكان لا بد من ذهابه إلى الإسطبل وحده اليوم ؟

— نعم ، فقد كنت أتحادث مع المهر الصغير .

— أ أنا قاسية عليك يا بير ؟

— أنت ؟.. أنت !

— حتى فيما إذا طلبت إليك أن تنقلنى بالعربة لزيارة أمى ؟

— كيف لا وطلبك هذا جاء فى محله تماما ، فالحصان الجديد الذى اشتريته امس من كابتين ميهر لابد أن يصل هنا فى أية لحظة .. فأنا الآن أنتظره .

— حصان جديد .. للركوب .

— نعم ، سحقا .. لابد من أن أركب قليلا ، وقد أمضيت سنوات وأنا أسوس الجياد العربية ، ولكننا سنجرب هذا الحصان فى جر العربة ذات العجلتين أولا .

وكانت ميرل لا تزال واقفة تطوق عنقه . والآن ضغطت شفتيه بشفتيها ضغطاً اشتد شيئاً فشيئاً . فهى فى مثل هذه اللحظات كانت تحبه وهو واقف يرتجف من فرط سرور باغته دون توقع . وارتجفت هى أيضاً ارتجافاً سرى فى روحها وجسدها ، ذلك أنه حدث أخيرا ، ولمرة واحدة ، أنها هى التى أعطت .

وتنفس آخر الأمر شاحباً من شدة الانفعال :

— آه ! إنه ليسعدنى أن أموت وأنا فى مثل هذه الحالة .

وبعد مدة قصيرة كانا يقفان فى الشرفة مطلين على الفناء ، وعندئذ جاء عامل ذو لحية من عمال المزرعة يقود حصاناً كبير الحجم ، خفيف العرف ، كستنائى اللون ، يسير متبخترا فى رسنه . ووقف الحصان دون حراك وسط الفناء ، ونتر رأسه الى أعلى ، وصهل فأجابته الخيول فى الإسطبل بصهيلها .

وهتفت ميرل مصفقة بيديها :

— أواه ، ما أجمله !..

ونادى بير السايس الذى خرج الى الفناء ليأخذ الحصان :

www.alkottob.com

ـــ شده الى العربة ذات العجلتين .

ولمس الرجل قبعته محييا :

ـــ على أن أقول لك ياسيدى إن هذا الحصان لم يشد إلى عربة من قبل .

وقال بير :

ـــ لابد لكل شىء أن تكون له بداية .

ورمقته ميرل ، ولكنهما كانا قد ارتديا كلاهما ملابس الخروج عندما أقبل الحصان الكستنائى اللون يتبختر أمام الباب وهو يجر العربة . وكان ينبش الأرض بحوافره البيض نافذ الصبر ، ويرفع رأسه عالياً فى الهواء ، وعيناه تقدحان شررا .. فهو لم يتعود ضغط « عريشى » العربة لجانبيه ، وصوت العجلات تقعقع خلفه تماما .. وأشعل سيجاره .

وانفجرت فيه ميرل صائحة :

ـــ إنك لاتنوى تدخين السيجار ؟

وقال بير :

ليس ذلك إلا كى أظهر للحصان أنى لست منفعلا .

ولم يكادا يستقران بمقعديهما فى العربة حتى بدأ الحصان ينخر ويشب ، ولكن السوط الطويل أصاب عنقه ، ولم تمر دقيقة حتى كانا يثيران سحابة من الغبار متجهة نحو البلدة .

***

وحل الشتاء .. وكان شتاء حقيقياً . وأخذ بير يتنقل من نافذة إلى أخرى . ولا يكف عن مناداة ميرل أن تأتى وتنظر . لقد تغيب عن بلاده مدة طويلة ... فكان شتاء شرقى النرويج جديداً كل الجدة بالنسبة إليه .. انظرى .. انظرى !.. عالم من البياض .. هدوء أبيض متجمد .. الغابات والسهول والبحيرات تكتسى كلها بالبياض . فهى قصة من قصص بلاد الجنيات تحت ضوء الشمس وهى فى المساء أرض الأحلام تحت قرص القمر الكبير الساطع . وكان رنين أجراس زحافات

www.alkottob.com

الجليد يتراءى من البحيرة ، ومن الغابات المغرة بذرات الثلوج . وكان الصقيع يتراكم كثيفاً فوق هامات الخيل ، ويعلق بلحى الرجل متجمد الخيوط . وفى منتصف الليالى قد تصدر من البحيرة أصداء مذوية منبعثة من تشقق الثلوج ... وهى أصوات جديرة أن تحمل المرء على الجلوس فى فراشه وقد أدركته نوبة فزع .

إن النزهة بالعربة تستحق القيام بها فى جو كهذا ... تعالى ياميرل ... إن الحصان الجديد المجلوب من «جود براندسدال» يحتاج إلى ترويض .. سنخرج به. «هالو» ..! وينطلقان فى ثياب من الفرو ، ويترجرجان على سطح البحيرة المتجمدة ، ويدوران فى سرعة فوق الجليد الزجاجى حيث ينزلقان حتى يكادا ينقلبان ... وتصرخ ميرل ... ولكنهما يواصلان الزحف فوق الجليد، وتتماسك من جديد حوافر الحصان والراكبان.. كفى عدوا ... وليخب الحصان خبباً الآن ! ... ويقعقع بير بسوطه . ويرفع حصان « جود براندسدال الأسود ، الطويل العرف ، ورأسه ويخب خبباً . ويحمل المساء ، ويندفعان عائدين إلى لورينج تحت سماء واسعة مرصعة بالنجوم ... لورينج التى تنير لهما طريق العودة بصفوف طويلة من نوافذها المضاءة ... إنه ليوم رائع أيتها الزوجة !

أو قد يخرجان لابسين « مزالق » الجليد ، ويزحفان بها فوق التلال قاصدين أكواخ الحطابين فى الغابة ، ويوقدان ناراً تضطرم فى المصطلى الكبير ، ويشربان قهوة يتصاعد منها البخار . ثم يعودان إلى البيت خلال ليلة من تلك الليالى الشاتية الشاحبة التى تنشر نور غسقها البنفسجى فوق الغابات والحقول والبحيرة ، وفوق الجليد الأبيض والأزرق ... وفى سفح تل أشهب ، على بعد سحيق، يقع بيت مزرعة التهبت نوافذه جميعها وهى تعكس لون سحابة ذهبية ... وإذا هما يقبلان مندفعين ، فتتطاير قطع الثلج من شجر الصنوبر بفعل الهواء المنبعث من مرورهما السريع ... ويواصلان الانزلاق ، ويظلان يواصلانه فوق طرق الحطابين العميقة الأخاديد ، وفوق الجذوع والأحجار ... ويقعان ، ويصابان بكدمات ، ويدفنان وجهيهما فى الثلج العميق ، ولكنهما يحملان نفسيهما على الوقوف ثانية ، ويبتسم كل منهما للآخر ، ويندفعان فى انزلاقهما ثانية . ثم يصلان إلى بيتهما والاحمرار يصبغهما ، والماء يقطر منهما ، ويخلعان مزالق الجليد ويسندانها إلى الحائط ، وينفضان الثلج عن حذائيهما بضرب الأرض بأقدامهما .

www.alkottob.com

قال بير وهو يلتقط قطعة ثلج من لحيته :

— لا بد لنا يا ميرل من سرب زجاجة من نبيذ « بورجنـــدى » عند تناول العشاء الليلة .

— نعم ، وهل تدعو بالتليفون أحداً للحضور ؟

— أحداً ... غريباً ؟ ألا نستطيع إقامة حفل صغير مرح لنا نحن الاثنين فقط ؟

— نعم ، نعم ، بالطبع ما دمت تريد ذلك .

واستحمام « بالدوش » ... وتغيير الملابس الداخليـة ... ما أمتع ذلك ! ... ثم خطرت له فكرة ... سيحضر للعشاء فى ملابس السهرة ... بقصد المفاجأة ليس إلا . ولكنه عند دخوله الغرفة توقف لتوه لأن ميرل كانت واقفة هناك فى ثوب السهرة هى أيضاً ... ثوب من مخمل قرمزى ، وسلسلة ذهبية ذات حلية تطوق عنقها ، وجدائل غزيرة من شعرها تلتف متدلية ، وترتبط بعقدة كبيرة تحت رقبتها ... وأزهار فوق المائدة ... وزجاجة النبيذ يجرى تسخينها ... وأكواب زجاجيـة من أنفر نوع ، وأوان فضية من خير صنف ... وطيور « الطرمجان » ... ما أبدع هـذا كله ! ... ورفع كل منهما كأسه المملوءة بالنبيذ الأحمر ، وشرب نخب الآخر .

وكانت مناظر الشتاء المتجمـدة لا تزال عالقة بأذهانهما ، ولكن الشمس أدفأت روحيهما . وتضاحكا ، وتمازحا ؛ وأطال كل منهما الإمساك بيد رفيقه ، وجلس يبتسم فى له لحظات صمت غير قصيرة .

— كان هذا اليوم يوماً فاخراً يا ميرل .. وغداً سنموت .

— ما ذا تقول !.. غدا

— أو بعد خمسين عاماً ، فالنتيجة ستكون واحدة .

وضغط يدها ، وعيناه مغمضتان نصف إغماض .

— ولكننا نقضى هذه الليلة معاً ... فماذا يمكن أن نطلبه فوق ذلك ؟

ثم راح يتحدث عن تجاربه فى مصر . لقد أمضى عطلة امتدت خمسة عشر يوماً فى

www.alkottob.com

فى زيارة المدن الآثرية مع « ما سبيرو » ... « ماسبيرو » العظيم بعينه ... وذهب إلى الأقصر فى صحبته ، وإلى الكرنك حيث الرواق الفخم بين تماثيل أبى الهول ... والى تل العمارنة ، وشبرا . وشاهدا كلاهما المدن القديمة ذات المعابد ؛ وكذلك شاهدا مقابر الملوك حيث يرقد الأموات منذ آلاف السنين ، وكأنهم مستغرقون فى التفكير ، وقد فتحوا عيونهم عن آخرها ، مستعدين فى أية لحظة أن ينهضوا ويصيحوا : أيها العبد ، هل الحمام معد ؟.. وهناك وسط حقل من حقول القمح تقوم مسلة ... وقد تسألين ماهى تلك المسلة ... هى كل ماتبقى من مدينة ملكية ... وهناك أيضاً عاشقان فى مقتبل العمر جلسا معاً .. ولعل ذلك حدث منذ مائة ألف عام .. وشرب كل منهما نخب الآخر نبيذاً ، واغتبطا بكل مباهج الحب .. وأين هما الآن ؟ نعم ، أين هما ؟ أتستطيعين أن تقولى لى أين هما ؟

« وعند ما انتهت هذه الرحلة يا ميرل بدأ يخطر لى أن الذى بعث الخصب فى الحقول ليس مجرد طمى النيل ، ولكنها أجساد الموتى المتحللة .. وقد سرت راكباً فوق تراب كان أصابع آدميين ، وشفاها لهم علق بعضها ببعض فى قبلات . لقد عاش ملايين بعد ملايين من الرجال والنساء فوق ضفتى هذا النهر ، وماذا تبقى منهم الآن ؟ ... جيولوجيا ... وقد فكرت فى ملايين المصلين الذين رفعوا هناك ولولتهم إلى الشمس والنجوم ، والأصنام فى المعابد ، وإلى التماسيح والثعابين . وإلى النهر نفسه . . النهر المقدس .. وهناك الهواء يا ميرل . . الهواء الذى تلقى هذه الصلوات ، واهتز لحظة .. وكان ذلك غاية مافى الأمر . . وعلى هذا النحو حق دعواتنا تتعالى إلى يومنا هذا . إننا نضغط الحجر البارد بشفاهنا ونحسب أننا سنترك فيه أثراً . . . « فى صحتك يا ميرل ! . »

ولكن ميرل لم تلمس كأسها . لقد جلست ساكنة وعيناها عالقتان بغطاء المصباح ، فهى لم تتخل بعد عن أحلامها الخاصة بالرحيل وغزو العالم بموسيقاها .. وقد جلس هو هناك يبسط الأبدية ذاتها أمام عينيها ، فى حين أصبح هو ، وهى نفسها ، وأبواها ، وكل شىء هباء طار . هباطا فى مهب الريح وتبدد

— ماذا ، ألا تشربين معى ؟ حسناً ، حسناً .. لا بدلى إذن من أن أشرب نخبك بنفسى .. « فى صحتك » !

www.alkottob.com

ولما كان قد بدأ يروى قصص رحلاته فقد واصل ذلك ، ولكن بمزاج أشد مرحا في هذه المرة ، حتى وجدت ميرل أنه من الممكن أن تبتسم . وتحدث عن المستنقعات الكبرى وطيورها من أسراب « أبو منجل » والبجع والأوز العراقى والبشروش والبلشون واللقلق ... عالم من المناقير الطويلة ، والصدور المقوسة ، والسيقان العالية ، والصراخ والتصفيق بالأجنحة . وأعجب ما فى ذلك كله هو وقوف المرء ، ورقابته ، وتخلفه هناك ، فى حين تتجه فى الربيع ألوف من الطيور القواطع صوب الشمال . وهو يقول لتلك الطيور وهى تمر به « بلغى الزوج حبى » ثم رؤيته لها وهى تعود فى الخريف أزواجها وزرازير « وأبوفصاد » ، إلى آخر تلك الأنواع . وعندئذ يخطر بباله « كيف الحال فى وطنى ؟ » . ويخطر له أيضاً « سأرحل معك فى المرة المقبلة » ويعد نفسه بذلك عاماً فى إثر عام .

— وهأنذا هنا أخيراً ، ... « فى صحتك » !

وقالت ميرل وهى ترفع كأسها :

— مرحباً بك فى وطنك .

ودق الجرس ، ومألته عيناها :

— ماذا تريد ؟

وقال بير للخادمة التى ظهرت وتوارت ثانية :

— شمبانيا .

— أفقدت صوابك يا بير ؟

ومال إلى الوراء ، وتورد وجهه منشرح المزاج ، وأشعل سيجارة ، وتحدث عن أكبر انتصار أحرزه هناك ، كان ذلك بعد أن أتم مهمته فى الشلال ، وبدأ يعمل من جديد فى فرع شركة إنجليزية بالإسكندرية . ودخل عليه الرئيس فى صباح أحد الأيام وقال : « هناك الآن فرصة يا سادة للرجل الذى يملك القدرة على تحقيق الشهرة لنفسه ، فمن منكم على استعداد؟ » وأجابت عشرة أصوات قائلة : « أنا » . « حسناً ، ها هو ذا ملك الحبشة يجد فجأة ألا بد له من الأخذ بالنمط الحديث . وبإنشاء خط حديدى ، خط يمتد مسافة ألفى ميل ، فما رأيكم فى هذا ؟ » وأجبنا فى نفس واحد : « هذا

www.alkottob.com

عظيم » ثم هتفنا معاً بصوت ازداد علواً : « ولكن علينا أن ننافس الألمان والسويسريين والأمريكيين ... ولا بد أن ننتصر عليهم . » ... « أنا الآن سأنتقي رجلين وأطلق يديهما فى العمل ، وسيرحلان إلى هناك ، ويشرفان على الأمر ، ويعدان الخطوط الحديدية ، ويضطلعان بالمشروع كله حتى يتماه عن آخره من ناحيتيه الفنية والمالية ... ولا بد أن يكون مشروعاً أفضل ، وأقل نفقة من مشروعات منافسينا ، والعمل فيه يستغرق ثمانية أشهر فيما إذا اضطلع به رجل قدير ، ولكنى أصر على إتمامه فى أربعة أشهر ... ولتصطحبا المعاونين ، وتتزودا بالمعدات ... كل ما تحتاجان إليه ... وهناك مبلغ ألف جنيه مكافأة للرجل الذى يقوم بذلك على النحو الذى يكفل ظفرنا بهذه المهمة .

ونهضت ميرل من مقعدها نصف نهوض لفرط انفعالها :

ــ وهل أرسلوك أنت ، يا بير ؟

ــ أنا ورجلا آخر .

ــ ومن يكون هذا الآخر ؟

ــ رجل اسمه فرديناند هولم .

وابتسمت ميرل ابتسامتها الجانبية ، ونظرت إليه من خلال أهدابها الطويلة . فهى لم تجهل أن حلم حياته كان أن يتغلب على أخيه هذا من أبيه فى منافسة شريفة . والآن !

وسألته وهى تتظاهر بإلقاء نظرة غير مبالية على المصباح :

ــ وماذا تم بشأن هذه المهمة ؟

وقذف بير سيجارته .

ــ بدأت ببعثة صعدت إلى أعالى النيل ، ثم بقافلة وصلت الرحلة ... قافلة مكونة من جمال وبغال ومساعدين ومؤن وأدوات وخيام وكينين ... أكوام من الكينين . وإنى لأتساءل ألديك أية فكرة عما تعنى مثل هذه المهمة؟ كان لا بد لذلك الخط الحديدى أن يمتد خلال الغابات والأنفاق ، وفوق المستنقعات والسيول والخنادق . وكان لا بد من تخطيط كل شىء وتقديره فى أقصى سرعة ... المواد والأعمال والوقت والنفقات وكل شىء ... وكان كل شىء ميسورا لتوفير الحبال والدعائم الملائمة لإقامة جسر من

من الجسور، وكذلك تقدير العمل المتين من بدايته حتى نهاية سواء الخاص بوضع الأساس أو إقامة البناء .. ولكن حتى ذلك فلا يجدى إذا استطاع الألمان أن يحفروا ويقولوا إن جسرهم يبدو أبدع منظراً من جسرنا .. إنها مهمة تستغرق ثمانية أشهر من رجل ماهر، وكان على أن أتمها فى أربعة أشهر، والنهار ينطوى إلا على اثنى عشرة ساعة .. هذا صحيح ، ولكن هناك اثنى عشرة ساعة أخرى فى الليل .. الحمى ؟ .. نعم ، هناك حمى .. وضربة شمس .. نعم .. وكلا الرجال والدواب يصابان بهما . والأمطار تغسل « خرائط » الإقليم وتمحوها . وإنى فقدت خير مساعدى إذ لدغته أفعى ، ولكن مثل هذه الأحداث لم تكن تعد عوائق ، ولم يكن يسمح لها أن تعطل العمل . فأنا إذا فقدت رجلا فإن ذلك لا يعنى شيئاً غير اضطلاعى بعمل أزيد . وبعد مرور شهرين بدأت نطرقة أشبه بمطرقة حداد تدق مؤخرة رأسى . فإذا أطبقت جفونى مساء لمدة بضع ساعات أخذت ثعابين صغيرة محمومة تتلوى طى ذهنى . أكان التعب قد أنهكنى ؟ .. كنت إذا نظرت فى المرآة رأيت كرتين حمراوين فى رأسى ، ولكن لم تنقض مدة الأربعة الأشهر حتى عدت إلى مكتب الرئيس .

— و .. وفرديناند هولم ؟

— كان قد وصل فى اليوم السابق على يوم مجيئى .

وتقلبت ميرل فى مقعدها

وعلى ذلك .. كان هو الفائز ؟

وأشعل بيرسيجارة أخرى ، وقال :

— لا .

وبدا كأنه لم يسحب نفس السيجارة كما ينبغى

— أنا الذى فاز . ومن أجل هذا اضطلعت أنا بمد خطوط السكك الحديدية فى الحبشة .

وقالت ميرل :

— هالك الشمبانيا .

www.alkottob.com

وبينما كان النبيذ يفور فى كأسيهما وقفت ميرل وشربت نخبه ، ولم تقل شيئا . واكتفت بأن نظرت إليه بعينين شبه مستورتين بنقاب .. وابتسمت . ولكن موجة من نار متقدة سرت فى بدنه من رأسه إلى قدمه .

وقالت ميرل :

— أشعر كأنى أريد الليلة أن أعزف .

ونادراً ما كانت تعزف برغم أنه غالباً ما طلب إليها العزف ملحا . ويبدو أنها لم تكن تميل ، منذ زواجهما ، إلى لمس كمانها ، ولعل ذلك يرجع إلى شعورها بخوف غامض من تعكير صفوها ، وإيقاظ رغباتها القديمة .

وجلس بير على المقعد المستطيل مائلا إلى الأمام ، منصتاً ورأسه معتمد على يديه .. ووقفت هى هناك عند ركن الموسيقى ، مرتدية ثوبها الأحمر ، موردة مشتعلة من الانفعال ، متألقة وهى تعزف تحت ضوء المصباح الأصفر .

ثم خطرت أمها على بالها فجأة ، وتوجهت إلى التليفون : « أمى .. أأنت هناك يا أمى ؟ .. أواه .. يالله من يوم مجيد قضيناه . » واسترسلت الفتاة فى الحديث وكأنها تحاول أن تنير قلب أمها بأشعة من النعيم الذى أتاحه لها ذلك اليوم السعيد .

ورقد بير بعد قليل فى فراشه فى حين أخذت ميرل تتنقل فى الغرفة ، وتتوانى فى تزينها .

وراقبها وهى واقفة فى رداء نومها الأبيض الطويل أمام منضدة التزين ، بادية تحت ضوء المصابيح المغطاة بأغطية خضر ، وقد أخذت تمشط شعرها ، وتوشجه فى ضفيرة طويلة استعداداً للنوم . ولزم كل منهما الصمت . وكان فى وسعه أن يشاهد وجهها فى المرآة ، وأن يرى أن عينيها كانتا ترقبانه بنظرات ناعمة غامضة . وبدا كأن رائحة شعرها تملأ الغرفة بالشباب .

ودارت صوبه وابتسمت ، ورقد هو دون حراك ، مومئاً إليها بعينين مشعتين أن تقبل عليه .. وكل ماحدث فى ذلك المساء .. خروجهما من المنزل ، ورحلة العودة فى غبش المساء البنفسجى . وليمتهما الصغيرة ، وقصته ، والنبيذ .. كل هذا تحول فى قلبيهما إلى حب ، وظهر الآن ساطعاً فى ابتسامتهما .

www.alkottob.com

وربما كان هناك أثر من نسمات الأبدية الباردة لايزال عالقاً بذهنيهما .. أثر من ذكريات الملايين إثر الملايين ممن ماتوا ، وانطلاق الدهور صوب الظلام اللامتناهي .. بيد أن الدقائق المقبلة الآن ، وعناقهما الدافىء ، أتاح لهما عالماً كاملا من السعادة . رجعت كفته كل ما عداها ، وجعلت بير ، وهو راقد هناك ، يتوق إلى توجيه نشيد حمد إلى الدنيا بأسرها ، ذلك أنه شيء رائع أن يحيي الإنسان .

وبدأ يدرك لماذا تريثت وأنفقت كل ذلك الوقت قبل المجيء إليه . لقد كان ذلك دليلا منها على أنها أرادت أن تهيء له مفاجأة ، وعلى أن قلبها رقيق . وبدت أنفاسها الخفيفة كأنها تملأ الغرفة حتى الآن بالحب .

وفي جوف الليل ، خارج المنزل ، كانت بحيرة الجليد تتشقق عن فجوات جديدة ، وتطلق أصواتاً عالية ، وكانت سماء الشتاء التي تعلو السقف وتظللهم مضاء بنجومها كافة .

www.alkottob.com

الفصل السادس

شغل بير ، فى بضع السنوات التالية ، بإدارة ضيعته ومصنعه دون أن يجود على أى منهما بمقدار كبير من وقته ، فقد كان لديه وكيل أعماله ، ومدير مصنعه ، وسار العمل موفقاً باتباع المنهج المألوف . وإذا سأله أحد عن العمل الذى يضطلع به هو نفسه فعلا صعب عليه أن يجيب على هذا السؤال . وبدا أنه يجول هنا وهناك بقصد جمع شىء غير محدد فى وضوح .. هناك شىء ناقص .. شىء مفتقد لابد من إيجاده الآن .. هذا الشىء لم يعد الآن مجرد المعرفة ، ولكن الحياة .. الحياة فى وطنه الأصلى .. حياة صباه الذى يسعى إلى الإمساك به الآن ، إن صباه الذى يشعر به داخل نفسه والذى لم يستمتع به فى حرية خلال السنوات الأولى لعهد رجولته ، لا يزال يكمن فيه محتبساً ، ولا بد أن يجد له متنفساً .

كانت تنعقد فى لورينج اجتماعات مبهجة ، وتنزلق مركبات الجليد فى صفوف طويلة ، رائحة فى ليالى الشتاء إلى البلدة ، وعائدة منها . وكانت موائد الولائم تمد محملة بالأكواب والأزهار ، والغرف تسطع بالأنوار ، والأنيذة من النوع الجيد . وفى أثناء الليالى الطويلة ، الحالية بنور القمر ، يحدث أن يستيقظ المواطنون المحترمون من نومهم على ضجة المرح المبعثة من شوارع البلدة الصغيرة ، فإذا توجهوا إلى النوافذ وهم فى قمصان النوم رأوا مركبات الجليد تقبل راكضه ، مجلجلة الأجراس ، مكتظة بشباب يطلقون ضحكاتهم وأغانيهم وهم عائدون من رحلة بعيدة إلى التلال ، حيث كانوا يحتفلون ويرقصون . وكان هناك بينهم محام شاب — متزوج حديثاً ، وأشبه بهرج له حظوة — جلس فى حجر زوجة رجل آخر ، وأخذ يعزف لحناً موسيقياً ، ويغنى بأعلى صوته . وكان الناس يقولون : « هذا بعض تهريج رجل لورينج يقوم به من جديد .. إن البلدة لم تعد قط كما كانت منذ أن جاء إلى هنا . » وكانوا يأوون ثانية إلى فراشهم وهم يهزون رؤوسهم ، ويتساءلون على أى نحو ستنقلب الأمور .

وكان بير أيضاً يخرج فى مركبته أحياناً فى المناسبات ، ويغشى الاجتماعات المنعقدة منازل الريف الكبيرة حيث يلعب المجتمعون الورق طوال الليل ؛ وترسل الشمبانيا

www.alkottob.com

إلى غرفهم فى الصباح التالى ، فالمضيفون أناس يعرفون كيف يتصرفون وفقاً للأسلوب الراقى .. إنه لشىء عظيم . ولم يعد بير يشغل نفسه بعلوم الرياضة والدين .. فكل مايحتاج إليه الآن هو أن يهضم شيئاً من حياة الريف فى وطنه . فهو لن يعيش غريباً فى بلاده نفسها . لقد أراد أن تكون له جذور ثابتة ، وأن يستطيع الشعور ، مثل الآخرين ، بأن له بقعة من الأرض فى العالم يقيم بها إقامته فى بيته .

ثم حل ذلك اليوم المشرق من أيام يونيو عند ماوقف إلى جوار فراش ميرل حيث كانت ترقد وتبتسم ابتسامتها الجانبية فى وهن ، وتحمل فوق ذراعها بفتاً حديثة الولادة :

— أى اسم نختاره لها يا بير ؟

— ماذا !.. إننا بتنا فى هذا منذ مدة ، سنختار لها بالطبع اسم أمك .

وقال ميرل — وهى تدير الوجه الأحمر الصغير إلى صدرها :

— بل سيكون اسمها « لوين » بالطبع .

وجاء هـذا القول كأنه مفاجأة جديدة . ولعلها كانت تدبرها منذ أسابيع ، وقد فوجىء بها الآن على غرة وكأنها إحدى ملاطفاتها التلقائية . ولكن الملاطفة هذه المرة مست شغاف قلبه .

وأراد أن يمزح فى محاولة متخاذلة :

— أوه ، حسناً . ليست لى قط كلمة مسموعة واحدة فى بين نفسه . وأحسب أنه لا بد أن يتم الأمر بحسب مانرين .

ومسح جبينها بيده ، وعنـد ما تبينت مدى تأثره العميق افتر له ثغرها عن أشد ابتساماتها تألقاً .

وفى يوم من أوائل أيام حصاد الملف المجفف رقد على سفح تل مشمس ، مسنداً برأسه إلى كومة من أكوام الحصاد ، مراقباً رجاله وهم يعملون . وكانت آلة الحصاد تئز أزيزاً هناك عند البحيرة ، وآلة توزيع أكوام الحصاد تعمل فى منحدرات التلال ، والخيـل تشدها من الأمام ، ومن الخلف يجلس سائقوها . وانبسط المنظر الطبيعى كله من حول بير مردداً أنفاس الربيع وأنفاس الإعمار الخصيب ، وثوى الرجـل نفسه مستغرقاً فى هدوئه المريح .

www.alkottob.com

وأقبلت امرأة هابطة من طريق الحقل ترتدى ثوباً رقيقاً ؛ وقبعة صفراء من الخوص ، وتدفع أمامها عربة أطفال . كانت المرأة هى ميرل ، وقد أخذت تنظر فيما حولها ، وتترنم بلحن من الألحان وهى مقبلة . ومنذ رزقت طفلتها أصبحت تنعم براحة البال . ومن الواضح أنها نادراً ما تفكر الآن فى غزو العالم بموسيقاها .. فهناك فى العربة الصغيرة مخلوق دقيق يدعى حق المطالبة بجميع أحلامها . ولم تكن بشرتها قط تخطف البصر كما تخطفه الآن ، ولم تكن ابتسامتها وردية على هذا النحو ، وكأنما تفتح صباها الآن لأول مرة ، مكتملا كل الاكتمال ، وبدت عيناها كأنهما اتسعتا فى دهشة حبيبة إلى النفس .

وبعد قليل من الزمن مضى بير إلى آلة الحصاد وقادها بنفسه ، وقد شعر بضرورة قيامه بعمل ما ليعول زوجته وطفلته .

ولكنه توقف فجأة ، وهبط إلى الأرض ، ودار حول الآلة ، وأخذ يفحصها عن قرب . ونم وجهه كله على اليقظة الآن ، وأصبحت عيناه حادتين نافذتين . وانعم النظر فى أسلحة الآلة وحركتها الميكانيكية ، ووقف يفكر برهة .

ما هذا ؟.. إن فكرة موفقة بدأت تعتمل فى ذهنه . وبما أنها لا تزال غامضة إلى الآن .. ففى الوقت متسع لتنحيتها جانباً .. فهل يقدم على ذلك ؟

* * *

أيام دافئة لطيفة ، وليال مضيئة . وكان يتعذر عليه النوم فى بعض الأحيان إذ يخطر له مدى متعة رقاده مستيقظاً ، ومشاهدته لشروق الشمس .

وفى ليلة من هذه الليالى نهض وارتدى ملابسه . وبعد مرور دقائق ترددت فى فناء الإسطبل وقع حوافر دابة ، ثم ظهر الحصان الكستنائى اللون يقوده بير . وقفز الرجل فوق السرج ، ومضى به خبباً إلى الطريق . وبدت طلعته بيضاء ، وهو يرتدى ثياب الرياضة ، والقبعة المصنوعة من فلين .

إلى أى مكان يقصد ؟.. لامكان يقصده ، إنما القصد هو التغيير .. قيامه فى ساعة غير عادية ، ومشاهدة بزوغ النهار فى صباح يوم من أيام يوليو .

www.alkottob.com

وخب بجواده فى خطوات هادئة ، وشب قليلا فوق السرج ، مستمتعاً بالدفء المبهج الذى يشعر به الراكب . وكان كل شىء حوله هادئاً ، فسكان الضياع مازالوا نائمين . وكانت السماء شفافة البياض تتخللها هنا وهناك سحب ذهبية قليلة انعكست على صفحة البحيرة المنبسطة تحتها . وكانت الحقول الشاسعة لا تزال تبسط عن بعد بساط أزهارها المتعددة الألوان . وفاح الجو بشميم أوراق النباتات ، وحشائش الحقول ، وأشجار الصنوبر .. واستنشق منها بير أنفاساً عميقة : وكان فى مقدوره أن يغنى بصوت عال .

ودار ، فسلك طريقاً جانبياً يؤدى إلى أعلى التل . وكان يترجل بين الحين والحين ليفتح « بوابة » ، ويجتاز المزارع والأكواخ الصغيرة ، وظل يوالى الصعود حتى وصل آخر الأمر إلى حافة قمة التل ، وتوقف هناك فى أرض فضاء . ورفع الحصان الكستنائى اللون رأسه ، واستنشق الهواء ، وقد ابتل هو وراكبه بقطرات الندى المتساقطة من الأشجار التى بدأت تتدفق الآن عند التوهج الأول للشمس البازغة . وفى أسفل بدت البحيرة عن بعد وهى تعكس السماء والتلال وأكواخ المزارع المستسلمة كلها للرقاد . وهناك فى الشرق ظهر اللهب الأحمر .. الشمس .. النهار . ونبش الحصان الأرض بحافره متلهفاً على مواصلة السير ، ولكن بير كبح جماحه ، وجلس هناك ناظراً إلى شروق الشمس من تحت حافة قبعته ، شاعراً بموجة من الشعور الغريب تمر بذهنه .

وخيل إليه أنه من المستحيل أن يصل فى أى يوم إلى قمة أعلى من قمة المتعة الخالصة التى وصل إليها .. كان لايزال شاباً قوياً ، وأعضاء جسمه تعمل معا فى انسجام تام . ولم تكن ثمة هموم ترهق ذهنه : أو مسئوليات تعتصره . والمستقبل كان يمتد أمامه هادئاً بيناً فى وضح النهار ، خالياً من الأحلام التى تدير الرأس .. وقد هدأ جوعه إلى المعرفه : وشعر بأن ما تعلمه ورآه وحصله بدأ يتخذ فى ذهنه شكلا عضوياً حياً .

ولكن ماذا بعد .. ماذا بعد ؟

إن نموذج الآدمى العظيم الذى كنت تحلم به ... هل نجحت فى أن تبعثه حياً داخل نفسك ؟

إنك تلم بمعرفة عامة عن تقدم الإنسانية ، وعن نضالها للوصول إلى نماذج أرقى ، وعن

www.alkottob.com

تلمسها شق الوسائل لإدراك اللانهائى .. إدراك الله .

أنت تعرف شيئاً عن حياة النبات ، إن عش العصفور سر يمكن أن تركع أمامه ساجداً . والصخرة تدلك على علامات من سيل جليدى كان يصقلها منذ آلاف السنين ، فإذا نظرت إليها لمحت الآثار الهائلة التى أحدثها النظام الشمسى . وإذا رفعت بصرك إلى النجوم فى أمسيات الخريف بعث النور والموت ، وهوة الفضاء المديرة للرأس فوقك ، رجفة صارمة فى روحك.

وقد أصبح ذلك كله جزءاً منك . وصارت نشوة الحياة بالنسبة لك أن تستحوذ على كل ما تستطيع أن تلم به فى الوجود ، وبجـــله ينفذ إلى كل ناحيـة من نواحى عقلك وشعورك .

ولـكن ، ما ذا بعد ؟ أهذا يكفى ؟ أيكفى أن تخلد هكذا إلى الراحـــة منطويا على نفسك ؟

هل أقمت حتى الآن حجراً واحداً فى درجات الصعود يستطيع غيرك من الناس أن يتسلقوه ويقولوا : فى وسعنا الآن أن نمد بصرنا إلى مسافة أبعد من قبل ؟

ما قيمة كيانك الداخلى إذا لم ينعكس فى عمل خارجى ؟

وإذا حل اليوم الذى لا يعمر فيه الأرض إلى خوارق الناس فما جدوى ذلك مادام لا مهرب لهم من الموت ؟

ما هى عقيدتك ؟

آه ، هذا الشعور بأنك فى منفى ، هذا التشرد الذى تقدسه ! كم من مرة اضطجعت أنت وميرل ، ويد كل منكما فى يد صاحبه ، وخواطركما تحوم معاً متشابكة الأيدى ، باحثة فى الأرض أو بين النجوم عن كائن تستطيعان أن ترفعا إليه صـلاة ، لا صرخة ذليلة تستجدى الغفران والإحسان ، ولـكن شكرانا مستبشرا على نعمة الحياة .

ولـكن أين « هو » ؟

إنه غير موجود .. ومع ذلك « هو » موجود .

ولـكن الناسك الزاهـد المرفوع على الصليب معبود المرضى والمسنين ، فماذا عن

الآخرين ؟ متى يجد الرجل العصرى القوى ، المزود بالعلم .. متى يجد داخل نفسه معبداً تتردد فيه الموسيقى القدسية .. يتردد فيه نشيد الأبدية ؟

وأشرقت الشمس من وراء قمة تل بعيد ، نافضة تبرها فوق ألفاف أشجار الصنوبر التى تعد بالملايين . ومال بير إلى الأمام ، وربت عنق حصانه المتململ بيد ترصعت هى وكمها الأبيض بقطرات الندى .

كانت الساعة الثانية صباحاً ، ولهب الشروق متوقداً فى السحب ، وفى كل صفحة ماء فى الأرض. وبدأ الندى يتألق فى المروج ، واللآلىء تسطع فوق أجنحة الفراشات.

— والآن إذن يا بيجو !.. الآن إلى المنزل !

وانطلق منحدراً من ممرات الغابات الطويلة الحشائش ، وأخذ الحصان الكستنائى اللون ينخر وهو يخب براكبه .

www.alkottob.com

«الفصل السابع»

— هيه يا ميرل ! سيزورنا قوم من ذوى المقام الرفيع ، أين ذهبت ياترى ؟

وأسرع بير إلى مختلف الغرف وفى يده برقية مفضوضة الغلاف ، ووجد زوجته أخيراً فى غرفة الأطفال .

— أوه ، أأنت هنا ؟

— نعم ... ولكنك تصيح بصوت عال إلى حد أنى أستطيع سماعه من أى مكان فى البيت ... من هم أولئك الزائرون ؟

— فرناند هولم ، وكلاوس بروك ... سيحضران مع ذلك حفل التنصير ، يالله ! ... ما رأيك فى هذا يا ميرل؟

كانت ميرل شاحبة الوجه ، غائرة الخدين قليلا ، فقد مر عامان آخران ، ورزقت بمولودها الثانى الذى تحمله الآن على ركبتها .. طفل صغير له عينان واسمتان دهشتان .

قالت وهى تواصل خلع ملابس الطفل :

— ما ألطف هذا بالنسبة لك يا بير !

— نعم ، ولكن أليس رائعاً منهما أن يتجشما السفر ، ويقطعا إلينا هذه المسافة كلها لا لشىء إلا لأنى طلبت إليهما ذلك ؟ والله إن علينا أن ننشط ونزيد قليلا من أناقة المنزل .

ولم يلبث المكان فعلا أن قلب كله رأساً على عقب .. جاءت عربات الأحمال ملأى بالرمال لفرش الفناء وممرات الحديقة ، وانهمك النقاشون فى دهان أبنيه المنزل. وكانت ميرل المسكينة تعلم يقيناً أن التقصير فى أى واجب من واجبات الضيافة فى بيتها سيسفر عن كدر جدى .

www.alkottob.com

وأخيراً حل اليوم الحار من أغسطس عند ما رفعت الاعلام ترحيباً بالضيفين المنتظر قدومهما ، وترامى مرة أخرى من منحدرات التل أزيز آلات الحصاد ، وأصوات مناجله ، وركد الهواء إلى حد أن أعمدة الدخان تصاعدت رأسية من مداخن البلدة .. واستيقظ بير مبكراً ليلقى نظرة أخيرة على ما حوله ، ويفحص كل شيء بعين الناقد ابتداء من ثوب ميرل الصيفى الذى سترتديه إلى الخيول فى « الإسطبل » ، وقد عنى بتطميرها حتى لمعت أغطية ظهورها من جديد . وفطنت ميرل إلى الأمر .. إنه لم يكن إلا « صبي صياد » إلى جانب ابن الطبيب الأنيق الملبس ، بل كان مع ذلك أكثر ضمة فى علاقته بأسرة هولم ذات المكانة . وهو لا يزال ينطوى على الكثير من رواسب ذلك الصبي بحيث أراد أن يبدو الآن فى أحسن مظاهره .

وتجمع حشد من المتسكعين الفضوليين فوق مرسى البواخر عند ما تهادت السفينة ورست إلى جانب الرصيف . ووقف الحصانان المشدودان إلى عربة لورينج يدقمان برأسيهما إلى أعلى ، ويتلويان ، ويضربان الأرض بأقدامهما ، إذ كان الذباب يزعجهما . ولكنهما ظفرا براكبي العربة أخيراً ، وأطلق لهما العنان ، وبدآ الانطلاق بوثبة أو وثبتين خطيرتين فرقتا الذين كانوا قريبين منهما . ولكن كان فى وسع الناس أن يشاهدوا رجلين غريبين مع المهندس ، مستغرقين جميعاً فى الضحك والإشارة والإيماء ، متحدثين معاً فى نفس واحد . وبعد لحظات قليلة توارروا فى سحابة من الغبار ، دائرين فى سرعة إلى جانب مياه الفيورد الهادئة .

وتبعتهم ، على بعد ما ، عربة يقودها سائس من لورينج ، محملة بحقائب كبيرة من جلد مثبت بأربطة نحاسية ، ومحملة كذلك بصندوق ضخم يبدو أنه خشبي ، ومن الواضح أنه يحوى شيئاً ثقيل الوزن إلى حد رهيب .

وكانت ميرل قد أتمت ارتداء ملابسها ، ووقفت تنظر فى المرآة . ورأت أن ثوبها الصيفى الخفيف بديع ، وأن رباط عنقها الأحمر ، وحزام وسطها ، الأحمر كذلك ، مرضيان . ثم ترامى إليهما من الخارج صوت تدحرج العجلات ، وخرجت لتستقبل ضيفيها .

وصاح بير وهو يقفز من العربة .

ـ ها هما قد أقبلا . هذا هو فرناند باشا ، الحاكم العام لمملكة الصحراء الجديدة .

www.alkottob.com

وهذا هو صاحب السمو رئيس القائمين بتطهير قنوات الخديوى ، ورئيس خصيانه .

وتقدم صوب ميرل رجل فارع الطول ، قليل الانحناء إلى أمام ، وجهه حليق جاف البشرة .. كان هذا الرجل هو فردناندهولم .. وقال وهو يمد إلى السيدة يداً جامدة بارزة العظام :

ـــ كيف حالك ياسيدتى ؟

ثم أضاف وهو يجول ببصره فيما حوله ، ويثبت نظارته :

ـــ مرحى ! .. إن هذا القصر الريفى الذى تملكونه هنا لا يختلف بحال عن قصر بارون .

وكان زميله رجلا مهذباً مستدير الجسم بديناً ، له لحية صغيرة سوداء ، وعينان سوداوان تطرفان دون انقطاع . ولكن ابتسامته كانت تفيض بشراً ، وقبضة يده لدى المصافحة تدل على الإخلاص .. كان هذا إذن هو كلاوس بروك .

وجال بيير بصديقيه فى غرف المنزل ، وأراهما المناظر الطبيعية البادية من مختلف النوافذ . وفى آخر الأمر أطلق كلاوس ضحكة ، ونظر إلى ميرل وقال :

ـــ إنه هو بعينه كما كان دائماً . بيد أن وزنه زاد قليلا بالتأكيد .. ومن الواضح أنك تحسنين معاملته يا سيدتى .

وانحنى وقبل يدها .

وقد أعدوا لهما نبيذاً ألمانياً خفيفاً ، وماء معدنياً .. كانت هذه فكرة ميرل على أساس أن ذلك مناسب ليوم شديد الحرارة .. وبعد أن شرب كل من الضيفين كأسين وهو يقول : «آه ! .. لذيذ!» توجه بيير إلى خلف ميرل ، وربت يدها بخفة ، وهمس فى أذنها : « شكراً يا ميرل .. إن فكرتك ياميرل من الطراز الأول . »

وصاح فردناند هولم فجأة :

ـــ على فكرة ، لابد لى من إرسال برقية . أأستطيع التحدث لحظة فى التليفون ؟

وصاح كلاوس بروك ضاحكا :

www.alkottob.com

ـــ هاهوذا يعاود الكرة .. لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه مدة أطول من ذلك ! لقد جعل أسلاك التلغراف تعمل جاهدة على طول الطريق عبر أوربا .. ولكن في وسعك أن تتيح لنا فرصة الدخول والجلوس حتى نستريح قبل أن تبدأ الأمر ثانية هنا .

وقال بير :

ـــ تعال معي .. هاهوذا التليفون .

ودار كلاوس إلى ميرل مبتسما عند ما غادر الاثنان الآخران الغرفة :

ـــ حسناً ، حسناً . أنا إذن في حضرة زوجة بير حقاً .. زوجته لحماً ودماً .. وهي هكذا تبدو ! .. إن هذا الفتى يحالفه التوفيق كله دائماً .

وتناول يدها ثانية وقبلها ، وسحبتها ميرل ، واحمر وجهها خجلا :

ـــ أنت غير متزوج إذن يامستر بروك ؟

ـــ أنا ؟.. حسناً ، أنا متزوج وغير متزوج . فقد تزوجت مرة فتاة يونانية ، ولكنها هربت مني .. إنه حظي ليس إلا .

وغمز بعينيه ، وتنهد ، وبدا على وجهه تعبير مضحك السكآبة إلى حد جعل ميرل تضج بالضحك . وعادت تسأله :

ـــ وصديقك ، فردناند هولم ؟

ـــ إنه ، يا سيدتي العزيزة .. إنه .. ما ذا أقول .. أحسب .. مع احترامي لوجودك .. أن لديه نخبة قليلة العدد من الحريم ، ملحقة بقصره ذاك .

ودارت ميرل صوب النافذة ، وهزت رأسها مبتسمة .

وبعد مرور ساعة نزل الضيفان من غرفتيهما على أثر استحمامهما ، وتغيير ملابسهما . وخرج بهما بير ، بعد تناول وجبة غداء خفيفة ، ليطلعهما على أرجاء المكان . وكان قد أضاف عدداً من الأبقية الحديثة ، وحاز أراضي جديدة .. وكان بالمزرعة عند مجيئه أربعون بقرة ، وزاد عددها الآن على ستين . وقال لضيفيه :

www.alkottob.com

— هذا بالطبع لا يعد شيئاً فى نظر رجلين مثلكما اعتادا نقل المحصول فى عربات السكك الحديدية . ولكن لى هنا بيتاً خاصاً بى كما ترياني .

ولوح بيده صوب داره وأبنية المزرعة القائمة حولها .

واستقلوا بعد ذلك العربة الخفيفة ليشاهدوا المصنع . ولم يلتمس هنا أية أعذار لصغره ولفت أنظار رفيقيه إلى المسبك الصغير ، وكأنما هو مركز صناعى له شهرة عالمية . واحتفظ بير بهيئته الجدية فى حين رمقه زميلاه بطرف لحظيهما باذلين جهدهما حتى لا يبتسما .

ولمس العمال قبعاتهم فى احترام ، وصوبوا إلى الغريبين نظراتهم فى فضول .

ولم يستطع فردناند هولم أخيراً أن يقاوم الرغبة فى قوله :

— إنه لما يسر المرء غاية السرور أن يرى الأشياء ثانية على النطاق النرويجى .

وصاح بير متخذاً هيئة المسرور سروراً صادقاً :

— نعم ، أليس هذا شائقاً ! ذلك هو بالضبط ما ينبغى أن يكون عليه حجم المسبك إذا ما أراد صاحبه أن يقضى أياماً طيبة ، وينعم براحة البال .

وتبادل فردناند هولم وبروك النظرات . ولكن بير قادهما فى اللحظة التالية إلى غرفة جانبية تحتوى على أدوات وآلات ميكانيكية كان يبدو ألا علاقة لها بسائر المصنع .

وقال كلاوس لفردناند :

— أنظر ... هذا هو قدس الأقداس ... سوف ترى ... إنه يعمل جاهداً هنا لابتداع شىء جديد ، فإن لم يكن الأمر كذلك أكون غبياً .

وأزاح بير جانباً قطعتين من المشمع ، وأظهر لضيفيه آلة حصاد من النوع العادى ، وآلة أخرى إلى جانبها اخترعها هو نفسه على أنها نموذج لطراز جديد من آلات الحصاد . . وقال لهما :

— إنى لم أتم صنعها بعد ، ولكنى اهتديت إلى حل المشكلة الرئيسية . فالآلة القديمة القائمة على قاعدة السلاح الواحد سيئة ... ثقيلة الحركة كما تعلمان ... فإذا

www.alkottob.com

اشتملت على صلاحين .. أو جزازين على حد القول عملت على نحو أسرع كثيراً .

وألقى عليهما فى ذلك محاضرة قصيرة ، مبدياً مدى بساطة التركيب الميكانيكى للآلة الجديدة ، وكيف أنها تصبح أخف كثيراً ، وقال كلاوس :

ـــ هأنتذا تعود إلى بيضة كولمبوس من جديد .

وقال فردناندهولم وهو يطل فى بطء من النافذة:

ـــ إن هذا الاختراع يساوى مليون كراون .

وقال بيو وهو يرمق فردناند بنظرة خبيثة نوعاً :

ـــ إن الهدف الرئيسى بالطبع هو جعل عمل الفلاحين أسهل وأوفر .

وفى المساء أقيمت وليمة عشاء ، وعنـــد ما دارت الكؤوس رحب بها كلاوس ترحيباً حماسياً :

ـــ ها هوذا صديق قديم سأحتفظ بصداقته مدى العمر ! إنه « ليشولر » بينما حسناً ، حسناً ، أأنت لا تزال إذن فى عالم الأحياء ؟ أتذكر أيام كنا نعيش معاً ونحن بعد غلامان ؟

ورفع الكأس الصغيرة ، وراقب الجيشان الخفيف فى صفحة الخمر الصفراء .

وشرب الأصدقاء الثلاثة معاً وهم يغنون أغنية « الكأس الملأى الأولى » ، ثم أغنية « الرشفة الصغيرة الثانية » ، مع حرصهم على الأصول المرعية فى الاحتفالات على نحو ما كانوا يفعلونه تماماً فى الأيام الغابرة خلال حفلات شربهم وهم بعد طلبة .

واطرد الحديث فى مرح ، وحفزتهم كل حكاية لطيفة إلى سرد غيرها ولكن لم يكن فى وسع ميرل إلا أن تلاحظ البريق الفولاذى الذى أشع من عينى فردناند هولم حتى وهو يضحك :

وعرج الحديث على الأعمال الجديدة التى تجرى فى مصر ، وبدا لها أن هيئة بير تغيرت وهو يستمع إلى المزيد من تلك الأخبار وبدا أن نظرته أيضاً شابتها تلك الومضة الفولاذية ... وظهر على وجهه شىء مغيب شاطح البعد ... أيكون قد شعر

www.alkottob.com

بأن الزوجة والأولاد ليسوا على أية حال إلا عائقاً فى سبيل الرجل ؟.. لقد بدا كأنه حصان حرب هرم صحا فجأة على صوت الطبول .

وقال فردناند هولم وهو يرفع كأسه تجاه بير :

— على فكرة، هناك مهمة صغيرة لطيفة تنتظرك.

— هذا لطف زائد منك دون ريب . أهى مهمة أقوم بها تحت إدارتك ؟

— أنت لا تصلح للعمل تحت إدارة أحد ، إنك تنتمى إلى القمة .

وشرح فردناند كلماته هذه بأن أشار إلى أسفل بأصبعه ثم إلى أعلى .

— لابد من القيام بالسيطرة على ميـ اه دجلة والفرات ، والمسألة ليست إلا مسألة وقت .

وقال بير وقد حملق بعينيه الآن .

— أشكرك شكراً جزيلا !

المشروع ببساطة يرقد منتظراً الرجل الملائم . وهو سيتم تنفيذه دون شك . وقد يقع ذلك فى العام التالى ، أو فى خلال عشر سنوات ... عند ما يقبل ذلك الرجل ... ولو أنى فى مكانك لفكرت فى الأمر .

ونظر الجميع إلى بير ، وعلقت عينا ميرل به أيضاً . ولكنه صمت :

— والآن أية مرضاة فى الدنيا يمكن أن تعود على من يكبح جماح هذين النهرين القديمين المجلجلين؟

— حسناً ، هذا يعنى فى المقام الأول ، زيادة محصول العالم من القمح ملايين عديدة من الأرادب . ألا تجد أية مرضاة فى ذلك ؟

قال بير ، مبدياً مسحة من السخرية :

— لا .

www.alkottob.com

ـــ أو فى امتداد خطوط مواصلات منتظمة عبر مئات الآلاف من الأميال المربعة فى بلاد تعد أخصب بلاد الأرض ؟

وقال بير :

ـــ هذا لا يثير اهتمامى .

ورفع فردناند هو لم كأسه ليشرب نخب مبرل :

ـــ آه ! خبرينى . يا سيدتى العزيزة ، كيف تكون حال السيدة عندما تشعر بأنها تزوجت برجل لا يعيش فى عصره.

وتلعثمت ميرل :

ـــ بـ ... بماذا ؟

ـــ نعم ، إن زوجك لا يعيش فى عصره . فقد يصبح ، لو أراد ، أحد الملوك ، أو أحد الرسل الذين يقودون الطليعة المناضلة فى سبيل الحضارة. ولكنه لا يريد ذلك. إنه يحتقر قدراته ، وسيبدأ الثورة على نفسه فى يوم ما ... لاحظى كلماتى هذه .... فى صحتك ياسيدتى !

وضحكت ميرل ، ورفعت كأسها ، ولكن فى تردد ، مختلسة النظر إلى بير بطرف لحظها :

ـــ نعم ، إن زوجك الآن ليس خيراً من رجل أنانى ... من ساع الى جمع أيام سعيدة.

ـــ حسنا ، وهل هذا شىء سيء جدا ؟

وواصل فردناند قوله ، منحنياً انحناءة لحدثته ، وقد حاولت عيناه الفولاذيتان أن تبدوا وديعتين .

ـــ إنه يجلس وينسل حياته ، ويحولها إلى عدد وفير من الخيوط الذهبية .

وقالت الزوجة الشابة بقوة .

ـــ وما وجه الخطأ فى ذلك ؟

www.alkottob.com

ـــ هذا خطأ . هذا تبديد لروحه الخالدة ، ليس من حق الرجل أن يغسل حياته حتى ولو كانت الخيوط التي يغسلها من ذهب، إن أيام سعادته الخاصة يطويها النسيان .. أما عمله فيبقى ... وزوجك على الأخص ... بحق الشيطان ، ماذا يجعله سعيداً إلى هذا الحد؟ إن تطور العالم يستعملنا نوراً أو وقوداً دون رحمة، وبير ... زوجك ، يا سيدتي العزيزة ، أصلح إلى حد كبير من أن يكون وقوداً .

ورمقت ميرل زوجها ثانية . وضحك بير ، ولكنه أطبق بعد ذلك شفتيه فجأة ، وأحنى رأسه ناظراً إلى طبق طعامه .

ثم جاءت المربية بالطفلة لويز لتحيي هذه الأخيرة الموجودين تحية المساء ، ودارت بينهم وكل منهم يسلمها إلى الآخر . وعند ما أقبلت الطفلة الشقراء على فردناند هولم بدا كأنه ينفر من لمسها . وقرأت ميرل في نظرته إلى بير المعنى التالي :

« وها هو ذا قيد آخر قيدت به نفسك »

وقال فجأة وهو ينظر في ساعته .

ـــ أستميحكم عذراً ، أخشى أن أكون مضطراً إلى طلب استعمال التليفون مرة أخرى ... عفواً يا سيدة هولم .

ونهض من مقعده وغادر الغرفة . ونظر كلاوس إلى جليسيه وهز رأسه ، وقال وعلى ثغره ابتسامة :

ـــ إنه نفس الرجل . سيقضي نحبه دون محيص إذا عجز عن إرسال برقية في كل ساعة .

وقدمت القهوة في الشرفة ، خارج الغرفة ، وجلس الرجال يدخنون هناك . وكان نور الغسق مغبراً ، فهو غسق خريف مبكر . وكانت التلال الآن زرقاء داكنة قاصية . وانتشر شميم الدريس وزهر الحديقة ... ونهضت ميرل بعد فترة من الزمن وحيتهم وانصرفت . وعندما انفردت بنفسها في غرفة نومها لم تعد تدري وهي تفكر أهي راضية أم غير راضية ... إن هذين الرجلين الغريبين يدفعان بير بعيداً عن كل ما كان مصدراً رئيسياً لابتهاجه منذ عرفته . والذي يثير الاهتمام هو أن يرى المرء كيف اختلفت معاملته لكل من صديقيه . فقد كان في وسعه أن يمزح ويضحك مع

www.alkottob.com

كلاوس بروك ، ولكنه مع فرناند هولم كان يبدو دائماً متحفظاً ، مستعداً لتحقيق ذاته ، وهو كلما عارضه قرن معارضته دائماً بشيء من المراعاة .

وصعد فوق التلال من ناحية الشرق قرص القمر الأصفر الكبير ، ساحباً وراءه ، عبر المياه الداكنة ، عموداً عريضاً من الذهب . وجلس الرفاق الثلاثة يرقبونه من الشرفة لمدة طويلة وهم صامتون .

وفي آخر الأمر سأل فردناند وهو يرشف كأسه .

ـــ أأنت إذن تنوى حقاً أن تظل تتسكع هنا بلا عمل؟

وسأل بير وهو ينحنى قليلا إلى الأمام :

ـــ أتقصدنى أنا بسؤالك ؟

ـــ حسناً . إن الذى استخلصته هو أنك تدور فى هذه الأنحاء دون ماهدف إلا أن تسعد نفسك من الصباح إلى المساء . . . إنى أدعو ذلك تسكعاً .

ـــ شكراً :

ـــ أنت بالطبع شقى جداً فى واقع الأمر ، وكل امرىء كذلك ما دام أنه يهمل قدراته واستعداداته .

وقال بير ضاحكا :

ـــ شكراً جزيلا جداً .

وجلس كلاوس فى مقعده وقد ساوره بعض القلق مما عساه أن يحدث .

وكان فردناند لايزال يطل على البحيرة :

ـــ يبدو أنك تزدرى مهنتك . . بحسبانك مهندسا ؟

وقال بير :

ـــ نعم .

ـــ ولماذا ؟

ـــ ذلك لشعورى بأن لهفتنا الدائمة على خلق شيء جديد ، شيء جديد ، شيء

www.alkottob.com

جديد دائماً . . . إن هذه اللهفة ينقصها مس من الجمال . . . كمية أكبر من الذهب ، ومن السرعة ، ومن الطعام . . . أليست هذه الأشياء هى كل مانطمح إليه ؟

— يا صديقى العزيز ، الذهب يعنى الحرية ، والطعام يعنى الحياة ، والسرعة تجتاز بنا اللحظات الميتة . . . ضاعف إمكانيات الحياة للناس تضاعف عددهم .

— وأى خير ينجم عن مضاعفة عددهم ؟ . . ألفا مليون نفس بشرية آلية . . . أهذا ما تريد ؟

وتدخل كلاوس بروك قائلا فى حماسة :

— ولكن دع عنك هذا كله يا رجل ، وفكر على الأقل فى بلادنا النرويج العزيزة . أنت لا تظن بالتأكيد أن ازدياد عدد مواطنينا إلى الحد الذى يستطيع معه العالم أن يعترف بوجودنا . . . أنت لاتظن أن ذلك يصبح كارثة .

وقال بيروهو يسرح ببصره فوق البحيرة :

— بل أظن .

— آه ، أنت متعصب لصغر الحجم وقلة العدد .

— إنى أنفر من رؤية النرويج وقد عكرت صفوها المصانع وجيوش العاملين بها . لماذا ، بحق الشيطان ، لا يتيسر لنا أن نترك لنعيش فى سلام ؟

وقال فردناند هولم وكأنه يخاطب عمود الذهب الممتد فوق الماء :

— الصلب لا يسمح به .

ونظر إليه بير بعينين متسعتى الحدقتين :

— ماذا ؟ من ذا الذى قال إنه لايسمح ؟

وواصل فرناند قوله دون أن يزعجه الاعتراض :

— الصلب لا يسمح بالسلام ، والنار لا تسمح به ، و « بروميثيوس » لا يسمح به أيضاً . إن الروح البشرى لا تزال أمامه خطوات كثيرة جداً عليه أن يخطوها

www.alkottob.com

صاعداً ليصل إلى القمة ... السلام ؟... لا ؟ يا صديقى ، إن هناك قوى خارجة عن إرادتك وإرادتى تقرر مثل هذه الأمور .

وابتسم بير، وأشعل سيجاراً ثانياً . ومال فردناند إلى الوراء فى مقعده ، وواصل الحديث ، مخاطباً القمر على ما يبدو :

— دجلة والفرات ... والسند والكنج ... وسائر أنحاء هذا الكوكب كلها .. لنهيمن على الأنهار ، ونزرع الأرض جميعها ، وما قيمة ذلك على أية حال ؟ إن المسألة ليست إلا مسألة بضع سنوات . إنها بداية متواضعة وحسب . وبعد قرنين من الزمن ، أو ما يقرب ذلك ، لن يبقى شىء يظل يشغلنا على وجه كوكبنا الصغير هذا . وسيكون لزاماً علينا عندئذ أن نشرع فى غزو عوالم أخرى .

وساد الصمت لحظة ، ثم تسكلم بير متسائلا :

— وأى ربح نجنيه من وراء هذا كله ؟

— ربح ؟ هل تتصور أن الروح البشرى سيكون له يوماً حد « يقف عنده ولا يتخطاه » ؟... فى خلال نصف مليون عام ، ابتداء من الآن ، ستخضع جميع الكواكب المنتظمة فى فلك الشمس لترتيب روح الإنسان وتنظيمه . وستنجم عن ذلك صعاب دون شك ، وستنشب حروب كوكبية ، ووطنية كوكبية تتحالف وتتضافر ضد كتل كوكبية أخرى . وستخضع عوالم صغيرة لعوالم أكبر منها ، إلى آخر ما هنالك ، وهل فى ذلك كله شىء يجعل الرأس يدور ؟... عجباً ... أيستطيع أى امرىء أن يساوره شك فى أنه لابد للانسان أن يواصل الغزو ، ويظل يواصله خلال ملايين السنين القادمة ؟ إن إرادة الكون تسلك سبيلها ، « ونحن » لانستطيع المقاومة . وما من أحد يتساءل أنحن سعداء ... إن الإرادة التى تعمل فى سبيل اللانهائى هى التى تسأل فقط من الذى تستطيع تسخيره فى سبيل غاياتها ، ومن الذى لافائدة فيه ... « هذا هو كل مافى الأمر »[1] .

وسأل بير :

---

(١) هذه العبارة مكتوبة بالفرنسية فى الأصل .

www.alkottob.com

— وعند ما أموت ، ماذا يكون بعد ذلك ؟

— أنت !... هل أنت ستظل تسبر غور نفسك ، وترغب فى الحياة إلى الأبد؟ يا صديقى العزيز ، أنت غير موجود . ليس هناك غير كائن واحد بيننا ... هو إرادة العالم ... وتلك الإرادة تشملنا جميعاً ... هذا هو ما قصدته بقولى «نحن» ... نحن نعمل مستهدفين ذلك اليوم الذى نستطيع أن نجعل الخالق يقدرنا فيه بحق . وسيواجه روح الإنسان يوم الحشر ، ويؤدى الحساب لآلهة الأولمب ، مع بقاء الأحجية كما هى ، أحجية ما وراء ذلك من قوة قادرة على كل شىء وسيكون الحساب عندئذ هائلا ... انتبه إلى كلماتى هذه ... إن هذه هى الفكرة الدينية الوحيدة التى تعيش وتعمل بين جوانح كل واحد منا ... إنها هى الشىء الوحيد الذى يمكننا من أن نرفع رؤوسنا ، ونسير منتصبى القامة ، ناسين أنا عبيد ، وأنا أشياء آخرتها الموت .

ونظر فى ساعته فجأة :

— اسمحوا لى أن أتغيب لحظة . إذا كان مكتب التلغراف مفتوحاً ...

ونهض ، ودخل البيت .

وكان كلاوس وبير لدى عودته يتحدثان عن موطن صباهما ، وعن الأيام التى قضياها معاً فى مطلع ذلك الصبا .

وسأل كلاوس :

— أتذكر ذلك اليوم الذى رحنا نصطاد فيه سمكة القرش ؟

— أوه ، نعم ... تلك السمكة ... دعنى أتذكر ... لقد كنت بطلا ، أليس كذلك؟ إنك ضربت السمكة بقبضتيك وحدهما حتى ماتت . ألم يكن هذا ما حدث ؟

ثم أردف :

— اقطعوا الحبل ... اقطعوا الحبل ... جدفوا التماسا للنجاة .

وحاكى ما حدث ، وانفجر ضاحكا . فقال كلاوس .

— أوه ، صه ، ولا تكن بارعا إلى هذا الحد فى المزاح . ولكن خبرنى ، ألم تذهب إلى هناك قط منذ عودتك إلى وطنك ؟

www.alkottob.com

وأخبره بير أنه ذهب إلى القرية فى العام الماضى ، ووجد أبواه بالتبنى قد ماتا ، وبيتر رونينجن مات أيضاً . ولكن مارتن بروفولد لايزال هناك ، وهو يعيش فى كوخ صغير مع تسعة من أطفاله .

وقال كلاوس :

ـــ مسكين تمس!

وكان فرناند هولم قد عاد إلى الجلوس ، وأومأ الأن إلى القمر :

ـــ أهو أحد أصدقائكما القدامى؟ . . . حسناً ، لماذا لاترسلان إليه ألف كراون؟

وساد الصمت فترة قصيرة استأنف فردناند بعدها الكلام وهويخرج من جيب صدريته ورقة مالية ذات خمسمائة كراون .

ـــ أرجو أن تسمحا لى بالانضمام إليكما فى هذا . . . أحسب ألا مانع لديكما ، أليس كذلك ؟

ورمقه بير ، وتناول منه الورقة المالية ، وقال وهو يدس الورقة المالية فى جيب صدريته :

ـــ أنا مسرور من أجل الصديق القديم مارتن المسكين ، فبهذا سيكون له مبلغ ألف وخمسمائة كراون .

ونقل كلاوس بروك لحظه من أحد صديقيه إلى الآخر وابتسم ابتسامة خفيفة . وتطرق الحديث ، فترة من الزمن ، إلى موضوعات أخرى . . . ثم وجه كلاوس هذا السؤال :

ـــ على فكرة يا بير ، هل قرأت الإعلان المنشور عن شركة هكربون الغاز البريطانية ؟

ـــ لا ، وما شأنه ؟

ـــ يطلبون تقديم مناقصات لعملية إقامة خزان على نهر بسنا ، والسيطرة

www.alkottob.com

عليه وعلى نظـــام بحيرته وشلالاته . ولا بد أن هذا نوع من العمل يتمشى مع اختصاصك .

وقال فردناند بحدة :

— لا ، لقد سبق أن قلت لك إن هـذه المهمة قليلة الأهمية جداً بالنسبة إليه . سيذهب بير إلى الفرات .

وقال بير دون أن يوجه كلامه إلى واحد من رفيقيه بالذات :

— ولم يبلغ ربح العملية ، على وجه التقريب ؟

وقال كلاوس :

— كل ما توصلت إلى استخلاصه هو أنه سيبلغ زهاء مليونى راون .. أو شيئاً من هذا القبيل .

وقال فردناند وهو ينهض ويرفع يده ليخفى تثاؤبه :

— هذا المبلغ لا يعد شيئاً بالنسبة لبير . دع هذه الصغائر للنفوس الصغيرة ... عمتم مساء يا سادة .

وبعد مضى ساعتين على ذلك ، حينما ساد السكون أرجاء المنزل ، كان بير لا يزال مستيقظاً ، هائماً فى الردهة الكبرى ، رائحاً غادياً فى خفين من لباد رخو . وكان يتوقف بين الحين والحين ، ويطل من النافذة . لماذا لا يستطيع النوم ؟ إن القمر أخذ يصفر ، والنهار بدأ يشرق .

www.alkottob.com

الفصل الثامن

وفى الصباح التالى كانت ميرل وحدها فى غرفة حفظ المؤن عند ما سمعت وقع خطوات خلفها ، ودارت برأسها ، فإذا القادم كلاوس بروك .

ـــ صباح الخير يا سيدتى . آه ! هكذا إذن تبدين فى ثوب الصباح . لعلهم ابتدعوا ثوب الصباح البسيط[1] ليخصوك به خصيصاً ... إذا جاز لى أن أقول ذلك . فقد تكونين مثل لوحة من لوحات « جيرلانداجو »[2] بل ، على الأصح ، قد تكونين « أسبازيا »[3] نفسها .

وقالت ميرل فى جفوة :

ـــ إنك استيقظت مبكراً .

ـــ صحيح ؟ وما رأيك فى فرناند هولم إذن ؟ لقد صحا منذ شروق الشمس ، وأكب على رسائله وحساباته . أهناك شىء أستطيع أن أعاونك على أدائه ؟ أتسمحين أن أنقل لك هذا الجبن ؟ ... حسناً ، حسناً ! أنت قوية . ولكنى دائماً « زائد عن الحاجة » حيثما يكون الأمر متعلقاً بالنساء

وكررت ميرل القول وهى ترقبه من تحت أهدابها الطويلة :

ـــ « زائد عن الحاجة »[4] دائماً ؟

---

(١) الكلمة فى الأصل نيجليجيه ، وهى اسم ثوب الصباح بالفرنسية ، ومعناها الحرفى «المهمل» .

(٢) رسام إيطالى (١٤٤٩ ـــ ٩٤)

(٣) فاتنة من فاتنات الإغريق عشقها بيريكليز فطلق زوجته وتزوجها .

(٤) العبارة باللغة الفرنسية فى الأصل .

www.alkottob.com

— نعم ... إن حبي الأول والوحيد ... أتعلمين من هي باعثته !

— لا ، بالطبع . ومن أين لي العلم بذلك ؟

— حسناً . إنها لويز ... أخت بير ... وددت لو أنك عرفتها .

— وماذا كان منك منذ ذلك الحين ؟

وتركت ميرل لحظيها يستريحان على ذلك السيد النضير الذي بدا كأن من المستحيل أن يكون ثمة مكروه أصابه في هذه الدنيا .

— منذ ذلك الحين يا سيدتي العزيزة ؟ منذ ذلك الحين ..؟ دعيني أفكر ... أنا لا أستطيع حقاً أن أتذكر الآن التقائي بأية امرأة أخرى غير ...

— غير ...؟

— غيرك أنت يا سيدتي .

وانحنى لها .

— أنت لطيف « جداً » !

— ألا تظنين ، ما دام الأمر كذلك ، أن واجبك يقتضي ، بوصفك مضيفة كريمة ، أن تمنحيني ...

— أمنحك ماذا ؟... قطعة من الجبن ؟

— ما ذا ، لا ... شكراً ، أريد شيئاً أفضل ... أفضل كثيراً من قطعة الجبن .

— ماذا تريد إذن ؟

— قبلة . ومن الممكن أيضاً أن أنالها الآن .

وبينما هو يخطو صوبها خطوة نظرت هي فيما حولها ضاحكة باحثة عن طريقة للهرب ، ولكنه كان يقف بينها وبين الباب .

وقالت ميرل :

— حسناً ، ولكن ينبغي لك أن تؤدي عملا تصبح به ذا نفع . هب أنك تصعد من أجلي في هذا السلم المتنقل .

www.alkottob.com

— بكل سرور . ولم لا ، إن هذا سيكون أمراً مسلياً للغاية !

وقعقع السلم الخشبي الخفيف تحت ثقل هيكله المتين فى أثناء صعوده :

— إلى أى حد أصعد ؟

— إلى أن تبلغ الرف الأعلى ... هو ذاك ... وهل ترى الآن تلك الجرة الكبيرة الداكنة ؟ ... احترس ... إن بها توتاً برياً .

— هذا عظيم . أعتقد أننا سنطعم فى الغداء توتاً برياً مخللا .

وحاول بوقوفه على أطراف قدميه أن يصل إلى الجرة الثقيلة ، وأن يرفعها . ثم وقف وهو يحملها وقد احتقن وجهه بسبب ما بذله من جهد .

— وبعد ، يا سيدتى الصغيرة ؟

— قف فقط حيث أنت لحظة ، وأمسك بالجرة فى احتراس ، فإن على أن أذهب لأحضر شيئاً .

وأسرعت فى الخروج .

ووقف كلاوس فى أعلى السلم ممسكا بالجرة الثقيلة . ودار بعينيه فيما حوله ... ما ذا يصنع بها ! وانتظر عودة ميرل .. ولكنها لم تظهر . وكان هناك شخص يعزف على البيانو فى الغرفة المجاورة . أعليه أن ينادى طالباً العون ؟ وظل ينتظر ، وازداد احمرار وجهه شيئاً فشيئاً . ومع ذلك لم تحضر ميرل .

وببذل جهد جبار آخر أعاد الجرة إلى مكانها . ثم هبط من السلم ، وسار إلى غرفة الجلوس شديد احمرار الوجه ، مبهور الأنفاس . وتوقف دفعة واحدة عند الباب وحملق .

— ماذا !.. حسناً ، إنى ... وهى تجلس هنا ، وتعزف على البيانو !

— نعم ، ألست مغرماً بالموسيقى يا سيد بروك ؟

وقال متوعداً يهز إصبعه :

— سأقتص لنفسى منك جزاء هذا ، انتظرى يا سيدتى الصغيرة وسترين أنى سأكبدك دفع هذا الدين مع الفائدة !

ودار وصعد إلى الدور العلوى وهو يضحك سراً فى أثناء صعوده !

www.alkottob.com

وكان بير يجلس إلى مكتبه فى غرفة المطالعة عند ما دخل عليه كلاوس ، وقال له وهو يضع شمعة صغيرة موقدة على عود شمع الأختام :

ـــ أنا بصدد ختم غلاف الرسالة والنقود المرسلة إلى مارتن بروفولد ، وقد ذيلت الرسالة بهذه العبارة « من صائدى سمكة القرش » .

ـــ نعم ، لقد كانت فكرة عظيمة من فردناند . ماذا سيقول صديقنا القديم المسكين ، بحسب ظنك ، عند ما يفض غلاف الرسالة وتتساقط منه الأوراق المالية الكبيرة القيمة ؟

وقال بير وهو يكتب العنوان على الغلاف .

ـــ وددت لو أرى وجهه عندئذ .

وتهاوى كلاوس على مقعد جلدى ذى ذراعين ، واستلقى على ظهره مستريحاً ، وقال :

ـــ كنت فى الدور السفلى أغازل زوجتك قليلا . . . إن زوجتك أعجوبة يا بير .

ونظر إليه بير ، وفكر فى الأيام الخالية عند ما كان ابن الطبيب الثقيل الجسم ، الغليظ الحركات ، يجرى هنا وهناك خلف الخادمات من فتيات القرية ، وهو لا يزال يحتفظ بشىء من مشيته المتمايلة ، ولكن اتصاله بسيدات بلاد كثيرة هذبه وأكسبه خفة فى الحركة ، ويسراً فى أسلوب التصرف .

وواصل كلاوس قوله :

ـــ ما الذى كنت أريد أن أقوله ! أوه ، نعم . . . إن صديقنا فردناند فتى ممتاز ، أليس كذلك .

ـــ نعم بالتأكيد .

ـــ شعرت أمس بمثل ما اعتدت أن أشعر به تماماً عند ما كنا نعيش نحن الثلاثة معاً فى الأيام السالفة . كنت لا أملك إلا موافقته على رأيه عند ما أسمعه يتكلم ... ثم تبدأ أنت فى الكلام فإذا ماتقوله أنت أيضاً يبدو مطابقاً تماماً لما يخطر ببالى فى أعماقى . أتظن أنى أصبحت مخلا يا بير .

www.alkottob.com

— يخيل إلى أن عاريتك البخارية تعمل من تلقاء نفسها دون حاجة إليك ، ونساء حريمك لا يبالغن في إزعاجك . ألا تقرأ شيئا ؟

وقال كلاوس وهو يرسل زفرة :

— الأفضل ألا نطيل القول في هذا .

وفطن بير فجأة إلى أن وجه صديقه ازداد شيخوخة وتعبا .

وعاد كلاوس يقول :

— لا ، الأفضل ألا نطيل القول في هذا ، ولكن قل لي يا صديقي العزيز ... ولا عليك من سؤالي ... ألم يحادثك فردناند قط بحسبانك أخاه ؟ .. أو ...

واحتقن وجه بير احتقانا شديدا ، وقال بعد فترة صمت .

— لا .

— لا ؟

— أنا مدين له بأكثر مما أنا مدين به لأي مخلوق في الحياة . ولكن أهو يعدني قريبا له ، أم مجرد هدف ينصب عليه عطفه ... إن هذه مسألة تركها دائما غامضة كل الغموض ؟

— هذا أشبه به . إنه فتى غريب الأطوار . ولكن هناك شيئا آخر .

وقال بير وهو يرفع بصره إليه:

— حسنا ؟

— إنه ... إرر ... أعود فأقول إنه أمر دقيق نوعا بالنسبة إلى طرق الإنسان له . أنا أعلم بالطبع أنك في وضع يحسدك الناس عليه بإيداع ثروتك واستثمارها في أحسن شركة خاصة في العالم ...

— نعم ، وهذه حالك أنت أيضا .

— أوه ، إن ثروتي المودعة شيء زهيد بالنسبة لثروتك ... ألا يزال رأسمالك كله مودعا في شركة فردناند ؟

www.alkottob.com

— نعم . والشيء بالشيء يذكر . لقد كنت أفكر في بيع قليل من الأسهم . . . إني أنفق مالا كثيراً ، في هذه الأيام الأخيرة بالذات ، بحسب ما قد يخطر ببالك . . إني أنفق أكثر من دخلي .

— ينبغي ألا تبيعها الآن بالذات يا بير ، إنها . . لعلك أدركت أنها في نزول . . أصبحت في الواقع أقل من قيمتها الأصلية .

— ماذا ؟ أقل من قيمتها الأصلية ! لا لم تكن لدي أية فكرة عن ذلك .

— هذا بالطبع مرهون بالوقت الحاضر فقط . إنه نزول مؤقت . ولا شك أن الناس سيقبلون عليها مرة أخرى من جديد عما قريب . وسيرتفع سعرها ثانية . ولكن حصة الخديوي منها تجعل له السيطرة على الشركة ، وهو عميل متقلب الرأي نوعاً كما تعلم . إن فردناند يريد التوسع دائماً . . . يريد أن يظل يشتري أراضي جديدة . . . صحاري جديدة ، هذا هو الأمر . والري هناك هو مسألة القوى الآلية ليس إلا . إنه ينظر إلى الأمر على هذا النحو . وكلما اتسعت رقعة العمل أصبح العمل الآلي أرخص بالطبع . ولكن الخديوي يقف دون ذلك ، ولعلها نزوة مؤقتة منه . . ولعل الأمر يعود فيستقيم غداً . إنك لا تستطيع أن تعرف ما سيحدث أبداً . ولكنك إذا ظننت أن فردناند رجل يستسلم لخديوي متقلب الرأي فإنك تكون مخطئاً جداً . ورأيه الآن أن يجمع كل الأموال التي يستطيع الحصول عليها ، ويشتري أسهم الخديوي ! فماذا ترى في ذلك ؟ . . . يشتري أسهمه ويخرجه نهائياً من الشركة . إنه أمر جسيم . ولو أنني في مكانك يا صديقي العزيز لبعت جزءاً من الأسهم التي أملكها ، على أثر صعودها قليلا مرة أخرى ، واستثمرت ثمنها في مشروع من مشروعات بلادنا هنا . على أنه لا بد أن تكون هنا أعمال كثيرة ذات نفع دون مراء .

وقطب بير . وجلس زمنا وهو ينظر إلى أمامه رأساً . وقال آخر الأمر :

— لا ، فطبقاً للأمر القائم بين فردناند هولم وبيفي . . . حسناً ، إذا كان واحد منا سيتخلى عن الآخر ، فلن أكون أنا المتخ .

وقال كلاوس :

— آه ! في هذه الحالة . . . أرجو المعذرة .

www.alkottob.com

ونهض وانصرف .

* * *

كانت مناسبة « التعميد » مناسبة عظيمة وقد غص البيت بالمدعوين ، وألقى عدد كبير من الخطب . وكان المضيف أكثر المحتفلين شباباً ومرحاً ، وقد صرح بأن لا بد من الاحتفال بمولد ابنه على الطريقة الإثيوبية الحقيقية ، مع إطلاق صواريخ الزينة ، والتنزه في الزوارق .

وفي ذلك المساء توارى القمر خلف سحب كثيفة داكنة السواد ، ولكن الزوارق الملأى بالمدعوين انسابت فوق المياه السوداء مصحوبة بالموسيقى والضحكات . وكان الحامي الشاب الطائش موجوداً هناك ، جالساً في حجر امرأة غير زوجته ، مسترسلا في العزف على آلة موسيقية إلى حد أن الناس في المزارع الواقعة على الشاطىء فتحوا نوافذهم ، وأطلوا منها لينصتوا إليه .

وتوهجت فيما بعد صواريخ الزينة النارية على طول شاطىء البحيرة ، وسطعت حتى لكأنها شموس هائلة ملتهبة في البحيرة تحت المنزل . واضطجع المدعوون على النخيل جماعات حول عشاء من أطعمة النزه الجافة . وحام هنا وهنا بعض المدعوين وقد انفرد كل زوجين منهم وهما يتحدثان في همس .

ووقفت ميرل وبير معا لحظة من اللحظات إلى جانب أحد الصواريخ النارية المشتعلة ، وكان وجهاهما مضاءين بالوهج الأحمر ؛ ونظر كل منهما إلى الآخر وبادله النظرات . وتناول يدها ، وقادها إلى خارج دائرة النور والنار ، وأشار إلى بيتهما وقد سطعت نوافذه بضوء انعكس على الظلام .

— هي يا ميرل إنه مقدر لهذه الحفلة أن تكون آخر حفلة نقيمها .

— ما ذا يدعوك إلى قول هذا يا بير ؟

— أوه ، لا شيء ... ليس هناك إلا أني وأحس شعوراً من نوع خاص ... أحس كأن شيئا بلغ الآن نهايته ، وشيئا آخر يوشك أن يبدأ ... أحس ما يشبه ذلك على نحو ما . ولكني أردت أيضا أن أشكرك على جميع الأوقات السعيدة التي قضيناها .

— ولكن يا بير ... ما ذا ...

www.alkottob.com

وسكتت عن القول عند هذا الحد لأن بير كان قد سبق وغادرها ، وانضم إلى حشد من ضيوفه حيث لم يلبث أن أصبح مرحاً كأى واحد من الآخرين .

ثم حل اليوم الذى كان على الضيفين أن يرحلا فيه . وقامت فى غرفة الاستقبال الهدية التى قدماها بمناسبة مولد السيد الصغير الذى تم أخيراً جداً تعميده باسم لورينتز أوتهوج ، وكانت عبارة عن تمثال نصفى من الجرانيت الأحمر ، فى مثل ارتفاع الرجل ، لإله الشمس رع ، وقد جلباه معهما ... جلبه « الاشبينان » من الاسكندرية . وهو الآن يتربع فى غرفة الاستقبال بين أشجار من النخيل موضوعة فى أصص ضاغطاً جنبيه بإبطيه ، محدقاً بعينين واسعتين ميتتين فى الفضاء اللانهائى .

وقف بير على رصيف الميناء ملوحاً بيديه ، وهو يودع رفيقيه القديمين فى حين كانت الباخرة تشق المياه ، وتسحب وراءها ذيلا من الأمواج الصغيرة تنتشر على هيئة مروحة .

وعند ما عاد إلى بيته تجول فى أنحاء المكان متطلعاً إلى المزارع والغابات ، وإلى ميرل والطفلين ، وقد تطلع بعينين بدتا لزوجته غريبتين جديدتين .

وبقى وحده مرة أخرى فى الليلة التالية ، وذرع بخطواته الردهة الكبرى رائحا غاديا ، مطلا من النوافذ على الظلام الدامس .

أهو ينسل حياته ويحيلها إلى خيوط ذهبية لا تلبث أن تتبدد ويدركها النسيان ؟

أهو راض أن يكون وقوداً بدلا من أن يكون نورا ؟

ما الذى يجد فى طلبه ؟ أهى السعادة ؟ وماذا وراء السعادة ؟.. كان وهو غلام يدعو ما وراءها «التسبيح» ، أو نشيد الإنشاد العالمى . وماذا يدعوه الآن ؟ الرب ؟ ولكن يصعب عليه أن يجد ربه وهو يحيا حياة البطالة .

إنك استخلصت ذلك الانتعاش الذى استطعت استخلاصه من اغتباطك بحياتك المنزلية ، ومن زواجك وأبوتك ، ومن الطبيعة ، ومن المواطنين حولك ... وهناك استعدادات كامنة فيك ، جائعة إلى التدريب ... متلهفة تلك اللهفة على إطلاق سراحها لتعمل ... لتكافح وتنتج .

www.alkottob.com

لا بد أن تتولى إقامة قنساطر « بسنا » يا بير . ولكن أتستطيع أن تظفر بعقد إقامتها ؟ إنك إذا أقدمت يوماً على العمل فى جد ، فليس من المحتمل أن يتغلب عليك أحد ... إنك ستظفر بإبرام ذلك العقد لامراء ... ولكن ، هل أنت تريد ذلك حقا ؟

ألست تعمل فى الواقع لتحسين آلة الحصاد التجارية ؟ بيد أنه خير لك أن تسلم بأنك لا تستطيع العيش هكذا دون الاشتغال بحرفتك القديمة ... أن تسلم بأنه لا مناص لك من أن تظل تخلط أبداً بالحديد والنار ، وتتدخل فيما يتعلق بهما . أنت لاحيلة لك فى ذلك .

كل الأشياء التى تطلعت إليها بعينيك فى السنوات الأخيرة هذه لم تكن إلا رؤى ذهبية فى ضباب . وللصلب إرادته الخاصة به . إن الصلب بدأ يستيقظ فى نفسك ... ويغنى ... ويغنى ... ويطبق عليك ويستحثك على التوالى ... وأنت لا خيار لك .

إن إرادة الحياة تمضى فى طريقها ، فسايرها أو يلقى بك من فوق ظهر المركب بحسبانك لا نفع فيك .

وظل بير يواصل خطواته رائحا غاديا ... رائحا غاديا .

ورحل فى الصباح التالى إلى العاصمة . وراقبت ميرل العربة فى أثناء ابتعادها . وقالت لنفسها : « لقد كان محقا ، فثمة شىء جديد حانت بدايته . »

www.alkottob.com

الفصل التاسع

ووردت بطاقة من بير تتضمن رسالة مقتضبة : «رحلت لأتبين أساس الموضوع» وبعد أسبوعين عاد إلى داره محملا « بخرائط » وتصميمات ، وقال : « ذهبت بالطبع متأخراً كالعادة عن السوق المنصوبة ، ولكن انتظرى على قليلا . »

وأغلق على نفسه غرفته وعرفت ميرل أخيراً على أى نحو يكون أمره حين يعمل . واستطاعت أن تسمع كل صباح مشيه جيئة وذهابا ، وصفيره ، ثم حلول الصمت . . . ولا بد أن يكون عندئذ واقفا مكبا على مكتبه ، مشتغلا بفحص الملحوظات والأرقام . ثم يعود وقع الخطوات ثانية . . . وهو الآن يغنى ، وهذه بدعة استجدت عليه . وبدا كأنه يحمل بين جوانحه ذخراً من السعادة . . . كنزا أودعه الحب وجمال الطبيعة ، والساعات السعيدة ، وقد وجد مخرجا له فى الغناء . لماذا لا يتغنى بتصميمات خزان كبير ؟ إن الاشتغال بالمسائل الرياضية عمل جاف إلى حد كبير ، ولكن يمكن للرياضيات فى بعض الأحيان أن تكون بمثابة رؤى حية تحلق ساطعة فى الأضواء . وغنى بير بصوت أعلى ، ثم ساد الصمت ثانية . ولم تعد ميرل تعرف قط متى كان زوجها يكف عن العمل ويأوى إلى فراشه ، فهى قد تنام على صوت غنائه وهو داخل غرفته ؟ وعند ما تصحو من نومها ؟ يكون قد سبق إلى ذرع الغرفة ذهابا وإيابا . وبدت لها خطواته كأنها خطوات جبارة لقائد عظيم . كانت هناك رؤى جديدة ، ومشروعات جديدة تضيء أعماقه ، وأصبح لصوته رنين سيد كبير . وتطلعت إليه ميرل من خلال عينين مغمضتين نصف إغماضة ، مصوبة إليه نظرة متريثة . لقد أصبح بالنسبة إليها شخصا جديداً مرة أخرى ، إنها لم تره من قبل قط على هذا النحو .

وأخيراً تم العمل ، وأرسل المناقصة . وأصبح الآن أشد قلقا مما كان فى أى وقت مضى . وانتظر الرد مدة أسبوع رائحا غاديا داخل المزرعة وخارجها ، منطلقا فى جولات بالعربة يجرها بيجو ، ويعود منها بحصانه الذى يقطر عرقا ، فالرجل النافد الصبر لا يمكن بحال أن ينطلق بحصانه إلا عدواً . ومرت الأيام ، ولم يذق بير طعم النوم ، ولم يأكل شيئاً . ومرت أيام أخرى ، وأخيراً اندفع ذات صباح إلى غرفة

www.alkottob.com

الأولاد صائحاً : « حدثونى تليفونياً بالترنك يا ميرل ، ودعونى إلى حضور اجتماع مديرى الشركة. وكانت عبارتهم هى «أسرع اسرع» ... تعالى وساعدينى على حزم أمتعتى ... انشطى . » وفى لمح البصر كان قد رحل إلى المدينة ثانية .

والآن جاء دور ميرل فى ذرع الغرفة غدواً ورواحا فى قلق . وكان ظفر زوجها بالعملية لا يهمها فى ذاته إلا قليلا ، ولكنها كانت تتحرق لهفة على ضرورة نجاحه .

وبعد مرور يومين وردت برقية جاء فيها « مرحى ، يازوجتى! » ودارت ميرل فى الغرفة راقصة ملوحة بالبرقية فوق رأسها .

وفى اليوم التالى عاد بير إلى بيته وإلى ذرع غرفته ذهاباً وإياباً .

— ما رأيك فيما سيقوله أبوك فى هذا يا ميرل ... هيه !

— أبى ؟... ما سيقوله فى أى أمر ؟

— فيما إذا سألته أن يضمن فى مائتى ألف كراون ؟

ونظرت إليه ميرل محملقة .

— أينبغى لأبى أيضاً أن يشترك فى هذه العملية ؟

أوه ، إذا كان يأبى ذلك فإننا ندعه وشأنه . ولكنى على أية حال سأسأله أولا . وداعاً .

وركب بير عربته إلى البلدة .

وفى منزل لورينتز أوتهوج الكبير عليك أن تمر من متجر الحدائد « الخردة » لتصل إلى مكتبه الذى يقع خلفه . وطرق بير الباب وهو يتأبط محفظة أوراق . وكان الهر أوتهوج قد أشعل من توه مصباح الغاز ، وأوشك عند ما دخل عليه بير ، أن يجلس إلى مكتبه الأمريكى الطراز . ودار صوب الزائر برأسه الأشهب اللحية ، الكثيف الشعر ، المظلم بفعل خيال الظل الأخضر المنبعث من شعلة المصباح . وقال :

— أهو أنت ؟ اجلس . إنك كنت فى كريستيانا على ماسمعت . وأى عمل أنت منهمك فيه الآن ؟

www.alkottob.com

وجلس كلاهما وجها لوجه . وشرح له بير الأمر فى هدوء وثقة .

وسأل أوتهوج وقد خرج وجهه من دائرة الظل ، وتطلع الى بير فى جلوة النور:

ـــ وما المبلغ الذى تصل إليه نفقات هذا الأمر ؟

ـــ مليونان وأربعمائة ألف .

ووضع الرجل المسن يديه الغزيرتى الشعر على المكتب وهب واقفاً على قدميه ، محدقا فى الآخر، متنفساً فى صعوبة . فهذا القدر من المال أصابه بشبه ذهول . وبدا له ، فوق ذلك ، أنه هو نفسه ، وأعماله أشبه بالهباء إذا وضعت وذلك المبلغ فى كفتى ميزان . فأين الآن خططه وإنجازاته وعظمته ومركزه ونفوذه فى البلدة ؟ وما قيمة المبالغ الضئيلة التى اعتاد أن يتعامل بها إذا قورنت بمثل ذلك المبلغ ؟

وقال متلعثما :

ـــ أنا .. أنا لم أدرك عبارتك جيداً .. أقلت مليونين ؟

وقال بير :

ـــ نعم . ولعل هـذا المبلغ يبدو لك تافهاً . وأنا نفسى تعاملت بعقود وصلت قيمتها إلى خمسين مليوناً من الفرنكات .

ـــ ماذا ؟ كم المبلغ الذى ذكرته ؟

وبدأ أوتهوج يتنقل فى الغرفة غير مستقر ، وأمسك شعر رأسه ، وحملق فى بير وكأنه يشك فى أنه متمالك لوعيه .

وشعر فى الوقت نفسه بأنه ينبغى ألا يدع نفسه أبداً تفقد اتزانها بمثل هذه السهولة. وحاول أن يتمالك جأشه . وسأل .

ـــ وأى ربح ستحصل عليه من هذه العملية ؟

ـــ آمل أن أحصل على مائتى ألف ...

ـــ أوه !

إن ربحاً يبلغ مثل هذا القدر عاد فأفزع الرجل المسن نوعا ...لا ، إنه لا يعد شيئاً يذكر . إنه لم يكن قط شيئاً يذكر فى هذه الدنيا !

www.alkottob.com

— كيف عرفت أنك ستربح هذا القدر ؟

— أنا حسبت حساب العملية .

— ولكن إذا ... ولكن كيف تستطيع أن تتأكد من صحة حسابك ؟ هب أنك أخطأت فى الأرقام ؟

ودفع رأسه ثانية إلى الأمام فى دائرة النور الساطع . وقال بير :

— من عادتى أنى أصل دائماً إلى الأرقام الصحيحة .

وعندما طرق موضوع الضمان كان الرجل العجوز يسير عبر الغرفة مبتعداً عنه . ولكنه توقف دفعة واحدة ، والتفت من فوق كتفه :

— ماذا ؟ ضمان ؟ أتريد منى أن أقوم بضمان مليونى كراون ؟

— لا ، ان الشركة تطلب ضمانا لمبلغ أربعمائة ألف .

وقال الرجل المسن بعد فترة صمت :

— فهمت . نعم ، فهمت . ولكن ثروتى كلها لا تبلغ هذا القدر من المال .

— إنى أستطيع إيداع أسهمى ضماناً لمبلغ ثلاثمائة ألف ، ولدى بالطبع ، علاوة على ذلك ، مزرعة لورينج وأعمالى . ولكن لنضع رقماً تقريبياً للمطلوب ... أتضمن مبلغ مائة ألف كراون ؟

وساد الصمت فترة أخرى ، ثم جاء الرد بعيدا من آخر الغرفة حيث اندفع أو تهوج :

— وحق هذا مبلغ كبير .

— من الطبيعى أنك إذا كنت أميل إلى الرفض ... فبوسعى أن أدبر تدبيراتى الأخرى ... إن صديقى اللذين كانا هنا أخيراً ...

ونهض وبدأ يجمع أوراقه .

— لا ، لا . ينبغى ألا تتعجل هكذا . ما هذا ... انك تنقض على المرء كما ينقض الجليد المنهار من الجبال . ينبغى أن تتيح لى مندوحة من الوقت للتفكير فى الأمر ... انتظر حتى باكر على الأقل . وهذه الأوراق .. على أية حال .. لابد أن ألقى عليها نظرة .

www.alkottob.com

وقضى أوتهوج ليلة مليئة بالقلق والانزعاج . وبدا أن الأرض الراسخة تخلت عن قدميه ، ولم يستطع عقله أن يجد نقطة ارتكاز ثابتة . لا بد أن يكون صهره رجلا عظيما .. ولا بد أن يكون هو آخر من يشك فى ذلك . ولكن المجازفة بمائة ألف، لا فى سبيل امتلاك أرض ، أو إبرام صفقة تجارية كبيرة ، ولكن فى سبيل نجاح عمل من أعمال البناء . إن هذا أمر جديد عليه ، أمر يبدو خيالياً .. ولعله ملائم للعالم الخارجى الكبير ، أو للمستقبل . أليديه الشجاعة الكافية لاحتماله ؟ ومن يستطيع أن يتكهن أية أحداث ، وأية كوارث يمكن أن تحدث ؟ . لا !.. وهز رأسه . إنه لا يستطيع .. إنه لا يجرؤ . ولكن الأمر أغراه ، فقد أراد دائماً أن يكون حوتاً كبيراً وسط أسماك صغيرة . أيجازف ، أم لا يجازف ؟ إن الأمر يعنى المجازفة . بثروته كلها ، وبمقامه ، وبكل شىء فى سبيل عملية هندسية لا يعرف أى شىء قط عنها . إن الأمر محض مضاربة .. إنه مقامرة . لا ، ينبغى أن يكون جوابه : « لا » . ثم إنه ، على أية حال ليس إلا حوتاً وسط أسماك صغيرة .. لا . ينبغى أن يكون جوابه «نعم» .. رباه ! .. ووشج بين يديه ، وكانتا لزجتين بفعل العرق المتصبب ، وكان عقله فى دوامة . إنها لتجربة ، إنه لإغراء . وشعر بدافع يدفعه الى الصلاة . ولكن أية فائدة تعود عليه من ذلك ما دام قد فقد إيمانه ؟

وفى اليوم التالى اتصل أبوا « ميرل » بها وبزوجها بير تليفونياً ودعوهما الى تناول العشاء معهما .

ولكن عند ما جلس الجميع الى مائدة الطعام وجدوا أن مواصلة الحديث متعذرة عليهم . وبدا كأن كل واحد منهم يشعر بالخجل من أن يبدأ الحديث فى الموضوع الذى يفكرون فيه جميعاً . وكان وجه الرجل المحرم رمادى اللون لافتقاره الى النوم ، ونظرت زوجته الى الحاضرين واحداً بعد واحد من خلال نظارتها . وكان بير هادىء النفس مبتسم الثغر . وعند ما دار الساقى بالنبيذ الفرنسى على الحاضرين رفعت السيدة أوتهوج كأسها ، وشربت نخب بير ، وقالت :

— أرجو لك حظاً سعيداً ! نحن لن نكون الواقفين فى طريقك . وما دمت تعتقد أن الأمر صائب ، فهو كذلك بالطبع . ونحن نأمل جميعاً يا بير أن تكون عاقبته خيراً بالنسبة لك .

www.alkottob.com

ونظرت ميرل الى أبويها ، فقد كانت تجلس الى مائدة العشاء قلقة مضطربة . وصعدت الدموع الآن الى مآقيها .

ـ وقال بير وهو يرفع كأسه ، ويشرب نخب مضيفه ومضيفته :

ـ شكراً .

ثم كرر قوله :

ـ شكراً .

وانحنى لأوتهوج الحرم .

لقد سوى الأمر ، ومن الواضح أن العجوزين ناقشا الأمر معاً ، وانتهيا الى اتفاق بشأنه .

لقد سوى الأمر . ولكن الأربعة الحاضرين شعروا جميعاً كأن الأرض الثابتة تتايل قليلا تحت أقدامهم . وبدا لهم أنهم راهنوا بمستقبلهم ومصيرهم على رمية واحدة .

وبعد ذلك بيومين حدث أن ذهب بير الى البلدة فى يوم أضاءته شمس أكتوبر المعتدلة الحرارة ، واذ لمح هناك حماته تطل من النافذة ذهب فاشترى بعض الأزهار ، ومضى بها اليها .

كانت تجلس متطلعة الى السماء المصفرة من الناحية الغربية . وكادت ألا تلتفت وهى تتناول الأزهار ، وقالت :

ـ شكراً يابير .

وظلت تطل محدقة فى السماء . وسألها بير :

ـ فيم تفكرين يا أمى العزيزة ؟

ـ فقالت :

ـ آه ! . الإفصاح عن خواطرنا ليس بالأمر الطيب فى جميع الحالات .

ودارت بعينيها المستعينتين بالنظارة لتتطلع بهما الى البحيرة .

ـ أرجو أن يكون ما تفكرين فيه شيئاً سارآ ؟

www.alkottob.com

ـــ كنت أفكر فيك يا بير .. فيك وفي ميرل .

ـــ هذا فضل منك أن تفكري فينا .

ـــ اعلم يا بير أن كدراً سيحل بك .. كدراً كبير القدر جداً .

وأومأت برأسها إلى ناحية السماء الصفراء في الغرب :

ـــ كدر ؟ لماذا ؟ لماذا يحل بنا كدر ؟

ـــ لأنك سعيد ، يا بير .

ـــ ماذا ؟ .. لأني . . ؟

ـــ لأن كل شيء خاص بك يزدهر ويترعرع .. ثق أن هناك قوى ، غير منظورة الى حد ما ، تحقد عليك بسبب سعادتك .

وابتسم بير وسألها :

ـــ أتظنين ذلك ؟

وأجابت وهي ترسل زفرة ، وتطل محدقة في الفضاء .

ـــ أنا أدري به . به . إنك خلقت لنفسك في المدة الأخيرة أعداء من جميع هذه الأشباح الحقودة . التي لا يستطيع رؤيتها أحد . ولكنها موجودة كلها حولنا ، وأنا أراها في كل يوم ، وتعلمت كيف أعرفها في أثناء هذه السنين جميعها ، وقد صارعتها . وكان حسناً بالنسبة لميرل أنها تعلمت أن تغني في بيت مكتظ بالأشباح . وليأذن الله أن يصبح في وسعها أن تغني لها حق تبعدها عنك أنت أيضاً .

وعند ما غادر بير البيت أحس كأن قشعريرة خفيفة من البرد تسري في صلبه . وصاح إذ وصل الى الشارع : « يوه ! إنها غير متمالكة لقواها العقلية . »

وأسرع الى عربته ورحل بها الى داره . وقال لنفسه : « إن ذلك سيسر «رود» الهرم على أية حال ، فسيكون الآن سيد نفسه في المصنع .. وكان هذا حلم حياته . حسناً ، كل إنسان يسعى وراء مصلحته ، وسيصرف وكيل الأعمال جميع الأمور في لورينج بحسب مايرى خلال عام أو عامين . حسناً ، حسناً !.. أسرع يا براوني ! »

www.alkottob.com

الفصل العاشر

إنك قطعاً لن ترحل فى هذه اللحظة يا بير ؟ أواه ، يا بير ، ينبغى ألا تفعل ذلك . نك لن تتركنى وحيدة يا بير !

— يا عزيزتى ميرل ، كونى عاقلة الآن . لا ، لا . اتركينى يا عزيزتى .

وحاول أن يتخلص من يديها المضمومتين وراء عنقه .

— يا بير ، إنك لم تكن على هذا النحو من قبل قط . ألم تعد تهتم بى ... أو بأولانا ؟

— ياميرل ، ياأعز الناس . أنت لاتتصورين أنى أود الرحيل ! ولكنك لاتريدين بالتأكيد أن يكون هناك عجز كبير آخر فى العمل هذا العام أؤكد لك أن هذا سيكون خراباً محضاً .. هيا .. هيا .. دعينى الآن أرحل

ولكنها تشبثت به :

— وهل ما يحدث لتلك الخزانات هناك أهم الآن عندك مما يحدث لى أنا !

— ستكونين فى أحسن حال يا عزيزتى وقد وعد الطبيب والممرضة أن يكونا عندك فى اللحظة التى ترسلين إليهما فيها كلمة واحدة .. ثم انك دبرت مثل هذا الأمر من قبل أحسن تدبير ..

وكل ما فى الأمر ياميرل أنى لم أعد أستطيع البقاء الآن . فهناك أشياء كبيرة القدر محفوفة بالخطر .. وهناك ، هناك .. أستودعك الله ! احرصى على إرسال برقية إلى .. »

وقبل ما فوق عينيها ، وأجلسها برفق فوق أحد المقاعد ، وخرج من الغرفة مسرعاً شاعراً بنظرتها المفزوعة التى شيعته بها فى أثناء انصرافه .

وكانت شمس أبريل قد أزالت الثلوج من الأراضى الوطيئة . ولكن بير وجد أنه عاد ثانية الى الشتاء عندما نزل من القطار فى إيسبيدال الواقعة فى الشمال . فالمزارع

www.alkottob.com

والحقول هناك لا تزال مغطاة ، والحفافى والقمم غارقة فى الثلج الأبيض الخاطف للأبصار ، ولم يلبث أن جلس فى عربة ملفوفاً بغطاء من فرو ، وساق مهراً أشهب ، مجتازاً طريقاً فى جانب واد يؤدى إلى الأراضى المرتفعة .

كان الطريق درباً ضيقاً يمتد خلال الثلوج ، أصفر اللون من أثر روث الخيل ، مليئاً بالحفر والأخاديد ، أفسدته نفس دوابه التى جررت أحمالها من الأسمنت عبر هذه الناحية طوال الشتاء الماضى ، والشتاء الذى سبقه ، صاعدة بها إلى النجد ، مجتازة بحيرات بيسنا المتجمدة .

إن الصلب سيظل يمضى قدما .. والصلب لا يهتم فتيلا بالآدميين ، ولا بد لميرل أن تجتاز محنتها بمفردها .

عندما يجد الرجل السعيد ، الحالم البنية ، أن المضايقات والكوارث تمزقه وتضايقه وهو مضطلع بعمل عظيم ، يتصرف عندئذ تصرف الجواد العربى وهو يقطع شوطاً مرهقاً . فى بادىء الأمر تراه يخب خبباً سريعاً فى حالق ، صعوده وهبوطه ، ثم تزداد سرعته شيئاً فشيئاً عندما تبدأ قوته فى التراخى : وعندما تنقطع أنفاسه تماماً فى آخر الأمر ، ويتأهب للسقوط ، يعمد فجأة إلى خبب هين .

هذا ليس بالعمل الذى حلم فى وقت ما أن يجده . وإن جوعه إلى الأشياء الخالدة ، بدا الآن ؟ كما كان من قبل ، قائماً أبداً إلى جانب ما ينجزه من أعمال ، متسائلا دون انقطاع : الى أين ؟ ولماذا ؟ وثم ماذا ؟

ولكن الصعوبات تضاعفت شيئا فشيئا وتعقدت حتى استولت فكرة واحدة فى آخر الأمر على تفكيره كله ، وهى أن يتم العمل .. فلا بد أن ينتهى به إلى النجاح سواء أكان مرضيا أم سيئا . لقد تولاه ولا بد أن ينجزه .. ينبغى ألا يهزم .

وعلى ذلك واصل النضال . فالأمر لم يكن إلا امتحانا لبأسه . نضال ضد صعوبات مادية ، ولكن أهذا كل فى الأمر ؟ ألم تمر به أوقات شعر خلالها بأنه يشتبك فى نضال مع شىء أكبر .. شىء أسوأ . لقد بدا أن هناك قوة دافعة جديدة تدخلت فى حياته .. هى سوء الحظ .. قوة خارجة عن إرادته بدأت تخاتله .

www.alkottob.com

قد تكون تقديراتك سليمة ، صحيحة فى كل تفصيل من تفصيلاتها ، وبرغم ذلك قد تسير الأمور كلها سيراً خاطئا .

ومن ذا الذى يستطيع أن يدخل فى تقديره أن مهندسا موفور العقل يسكر مصادفة فى يوم من الأيام ، ويصدر أوامر طائشة إلى حد أن يتكلف إصلاح ضررها عشرات الآلاف ؟ أو منذا الذى يتوقع ، على عكس جميع الاحتمالات ، أن دفعة كبيرة من الماء تتغلغل الى النفق ، وتندفع فتجرف الأبنية ، وتغرق المال .. ويترتب على ذلك أن يدور قطار فى الصباح التالى فوق البحيرات المتجمدة محملا بكمية من التوابيت غير المطلية .

وقد وردت فى الصحف ملاحظات وأسئلة أكثر من مرة : « كارثة أخرى فى هلالات بيسنا .. من الملوم ؟ »

ويرجع السبب الى أنه كان متغيبا هو نفسه إذ سافر لإنجاز مهمة ما ، وأهمل « فولكمان » فى اتخاذ احتياطات أولية فحدث أن سقطت الصخرة الكبيرة فى النفق ، وقتلت أربعة رجال ، ودمرت مثقب الصخر البلجيكى قبل أن يبدأ عمله ، وقد دفع فيه مبلغ طيب قدره مائة ألف جنيه . ومثل هذا الحدث لا يرجع إلى تقدير خاطىء فى الحساب .. ولكنه فعل القدر المسيء .

« هيا يا فق ، لابد أن نصل إلى هناك الليلة . إذ ينبغى ألا نتيح للفيضان هذا العام إلقاء اللوم على لأنى لم أكن موجوداً فى مكان العمل . »

ثم إنه — فى سبيل تتويج الكوارث الأخرى — أفلس « المقاول » الرئيسى الذى يورد له مواد البناء ، وارتفعت الآن الأثمان فوق معدل الأسعار التى رضى بها .. وأضاف ذلك آلافا جديدة الى النفقات الزائدة .

ولكنه سينجز هذا العمل حتى ولو خسر فى سبيله مالا .. ومنافسوه الحاقدون الذين بدأوا يسفهون مشروعاته أخيرا فى الصحف الفنية .. إنه سيجعلهم ، مع ذلك ، يبدون حمقى .

وماذا بعد ذلك ؟

www.alkottob.com

حسناً ، ربما كانت الروح « البرومثيوسية »[1] تعد للعالم يوم استقرار فى مكان ما خارج الحياة فى فسحة الأبد . ولكن أى شأن لى أنا بهذا ؟ وماذا عن روحى الأبدية ؟

صمتاً ... عجلوا ، عجلوا ، فقد تهب عاصفة ثلجية فى أية لحظة ... هيا ... تقدم أيها « الزوال » .

إن الحصان الأشهب يجاهد قاطعاً مرحلة تبلغ اثنى عشر ميلا ، وهناك يبلغ الوادى نهايته ، ويطالعهم العمل الشاق من النجد ... وتقع محطة إرسال البريد ، وهى آخر دسكرة فى الوادى ... وهو يدور فى الفناء ، وإذا هو بعد قليل يجلس فى الغرفة مكباً على قدح قهوة و « غليونه » .

ميرل ؟ كيف تمضى الأمور بميرل الآن ؟

آه ! ها هو ذا حصانه هو مقبل — حصانه الأسود الكبير الذى جاء به من جودبراندزدال . إن خبب هذا الحيوان شىء يختلف عن خبب المهر الضعيف .. وطار بمركبة الجليد حتى وصل بها إلى الباب . وفى خلال لحظة كان بير جالساً فى المركبة من جديد ، ملتفاً بمعطفه المصنوع من الفرو .

آه ؟ أى تفريج فى أن يكون للمرء حصان جديد ، حصان يجعل الحمل الذى خلفه خفيفاً .. وينطلق وهو يخب خبباً سريعاً ، رافع الرأس ، مجلجل الأجراس فوق البحيرات المتجمدة . ويبدو هنا وهناك ، فوق منحدرات التلال كوخ أشهب أو كوخان .. دساكر لعلها موجودة هناك منذ ألفى عام دون أن تتغير . ولكن زمناً جديداً سيحل ، ولن تسمع الآذان بعد ذلك أبواق الدساكر ، إذ ستتعالى بدلا منها أهازيج المحركات البخارية .

وإذا ريح ثلجية تهب ، ويلقى الحصان برأسه إلى الوراء وينخر . وتهب مع الريح

---

(١) نسبة إلى برومثيوس الذى سبق تعريفه .

www.alkottob.com

قطع كبيرة من الثلج . ولم تلبث أن ثارت عاصفة ثلجية حقيقية أخذت تلطم وجه المسافر حتى لهث . وابيض أول الأمر عرف الحصان وذيله ، ثم كسا البياض جسمه كله . وكبر حجم قطع الثلج التى يجرفها التيار ، وكان على الحصان الأسود أن يقفز قفزات واسعة ليتحاشى .. مرحى ، أيها الحصان العزيز ! لا بد لنا من الوصول إلى هناك قبل حلول الظلام . وكانت هناك قطع من أغصان الأعشاب موضوعة خلال الثلوج لتبيين الطريق ولكن منذا الذى يستطيع أن يظل يراها وهو يقود العربة وسط ضباب كثيف كهذا ؟ وكان وجه بير نفسه الآن مطلياً بالبياض ، وشعر بالذهول والدوار وهو عرضة للطمات الثلوج .

لقد عمل تحت شمس مصر الحارقة .. وها هى ذى الحال هنا . ولكن الصلب سيظل يمضى قدماً ، وموجته ستشق طريقها طاوية العالم بأسره .

وإذا تحول الثلج المتساقط الآن إلى مطر فسيعنى ذلك جريان سيل جارف . وعندئذ سيضطر الرجال إلى العودة فى هذا المساء ! عملوا على إنقاذ القناطر .

وإذا حلت كارثة واحدة أخرى فسيصعب عليه أن يتمكن من إنجاز العمل فى المدة التى حددها العقد . وإذا حدث وتجاوز العمل تلك المدة فسيعنى ذلك قيامه بدفع ألف كراون تنفيذاً للشرط الجزائى عن كل يوم من أيام التأخير .

وأخذ الظلام يشتد .

وأخيراً لم يعد يلوح شىء فى الطريق إلا كتلة من الثلج ليس لها شكل واضح ، تكافح الزوبعة وهى منحنية الرأس ، وتخوص ركام الثلج الهشة التى كومها التيار خوضاً عميقاً ، ويبدو أنها تخوضها حيثما اتفق .. وتترك وراءها آثاراً متشابكة من بياض لا يمكن وصفه .. بياض كلب . ومن الخلف ينجرف مع مركبة الجليد آدمى يمسك بطوقها خوفاً على حياته الغالية ، وهذا الآدمى هو غلام البريد الذى استقل المركبة من المحطة الأخيرة .

وصارا أخيراً يتحسسان طريقهما إلى الشاطىء حيث تبدو الأضواء الكهربية ضعيفة من خلال الضباب الثلجى . وما كاد بير ينزله من مركبة الجليد حتى توقف

سقوط الثلج فجأة ، وسطعت الشموس الكهربية الخاطفة للأبصار فوق المكان وما عليه من ثكنات العمال ، ومساكن المساعدين ، ومكاتب الموظفين ، وبيته الصغير الخاص به ، المبنى بألواح خشبية ، وخرج مهندسان لمقابلته ، وسلما عليه باحترام .

— حسناً ، كيف تسير الأمور كافة ؟

وأجاب ذو اللحية الشهباء :

— أضرب العمال اليوم عن العمل

— أضربوا ؟ لماذا ؟

— إنهم يطلبون إلينا أن نعيد إلى العمل ذلك الميكانيكي الذى فصلناه منذ أيام لسكره .

ونفض بير الثلج عن معطفه الوبرى ، وتناول حقيبته ، وسار إلى البناء يتبعه المهندسان .. وقال :

— لنعده إذن إلى العمل ، فنحن لا نستطيع السماح بالإضراب الآن .

وبعد يومين كان بير راقداً فى فراشه عندما جيء له بحقيبة البريد ، ونفض الحقيبة فأخرج منها الرسائل ، ووقع بصره على رسالة من كلاوس بروك .

ما هذا ؟ لماذا ارتجفت يده عندما التقط الرسالة ؟ لا شك أنها ليست إلا إحدى رسائل كلاوس العادية الودية .

صديقى العزيز .. إن هذه رسالة تصعب على كتابتها . ولكنى أرجو أن تكون قد أخذت بنصحى ، ونقلت ، على أية حال ، بعض مالك إلى النرويج . حسناً ، موجز القول على قدر الامكان أن فردناندهوكم قد لاذ بالفرار ، أو قد يكون ملقى فى السجن ، ومن الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك .. وأنت أدرى بأنه لا فائدة من توجيه الأسئلة عندما يختفى رجل مرموق فى بلد كهذا . لقد خلق له أعداء يحتلون أكبر المناصب ، كان يلعب لعبة خطرة .. وهذه هى نهايتها .

أنت تعلم ماذا تعنى تصفية عمل من الأعمال هنا حينما لا يوجد فى ذات المكان رجل قوى يتعهد الأمور . نحن الأوربيين نستطيع أن نتأهب لقسمتنا هنا .

www.alkottob.com

وأنا أعلم أنك ستتلقى الصدمة بعدم اكتراث .. إنى فقدت كل قرش أمتلكه ، بيد أنك لا تزال تمتلك ضيعتك هنـاك ومصنعيك . وأنت من الطراز الذى يربح فى المرة التالية ضعف ما ربح ؛ وإن لم يكن الأمر كذلك فإنى إذن لا أعرفك حق المعرفة وأرجو أن يكون مشروع قناطر بيسنا ناجحاً .

المخلص لك دائماً

كلاوس بروك

حاشية : أنت تدرك بالطبع أنه بعد أن ألقى بصديقى الآن فى اليم سيحل دورى بعد ذلك ، على الأرجح ، ولكنى لا أستطيع الرحيل الآن ، فمحاولة ذلك ستثير الشبهات على الفور . وعلينا نحن الأجانب أن نقوم بموازنة عسيرة للحساب ، علينا أن نفلت من السقوط .. حسناً ، إذا تصادف ولم تصل إليك أخبـارى بعد ذلك فلتعلم أن شيئاً ما قد حدث !

وفى الخارج كان الماء يتدفق من الأنفاق متجهاً إلى الشلال . واضطجع بير فترة من الزمن ، ولم تتحرك إلا إحدى ركبتيه صاعدة هابطة تحت ثيابه . وفكر فى صديقيه وفكر فى أنه أصبح الآن رجلا فقيراً ، وأن العبء الأكبر من أمان الأسرة يقع الآن على أكتاف لورينتز . د . أوتهوج الهرم .

ومن الواضح أن القدر مشتغل بمهام أخرى غير تيسير الأمر عليك يا بير . لا بد لك أن تخوض معركتك بمفردك .

www.alkottob.com

الفصل الحادى عشر

فى ليلة من ليالى أواخر الخريف كانت ميرل تجلس ببيتهـا فى انتظار زوجها ، وقد طال غيابه بضعة أسابيـع ، وعلى ذلك كان من الطبيعى أن تعد وليمة صغيرة احتفالا بعودته ، فأضيئت مصابيح الغرف جميعها ، وقمقمت الأخشاب المشتعلة فى جميع المواقد. وانهمك الطاهى فى إعداد ألوان طعامه المفضلة . وكانت لويز الصغيرة ، التى أصبحت الآن فى الخامسة ترتدى ثوبها المصنوع من المخمل الأزرق . وقد جلست على الأرض ترعى دميتها وتثرثر لها قائلة : « احرصى على أن تـكونى الآن بنتاً طيبة فإن جدك سيأتى إلى هنا الآن مباشرة» وأطلت ميرل على المطبخ من خلال الباب : هل أحضرت النبيذ الأحمر يابيرتا ؟ حسنا . الأفضل أن تضعيه قرب الموقد حتى يسخن.» ثم دارت على الغرف جميعها من جديد : وكان الطفلان الأصغران فى فراشهما ... هـل ثمة أى عمل آخر ينبغى أداؤه ؟

لا بد أن تمر ساعة على الأقل قبل أن يتيسر له الحضور . وهى مع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتسمع صوت عجلات العربة طوال الوقت . ولـكنها لم تـكن قد أتمت الاستعداد لقدمه . وأسرعت إلى الحمام فصبت المـاء الساخن فى الحوض . وخلعت ملابسها ، وغطت رأسها بغطاء من المشمع حتى لا يبتل شعرها . وبعد لحظة كانت تضرب الماء بالإسفنجة والصابونة فيتطاير رشاشه . لماذا لا تجعل نفسها جـذابة على قدر استطاعتها حتى ولو بدت لها الأمور مظلمة فى الوقت الحاضر ؟

وجرى فى ذهنهـا فيض صغير من الحـديث . غريب أن جسم إنسان يمكن أن يحدث مثـل المتعة الـكبرى لإنسان آخر ... لقد قبلك هنا ... وهنا ... وهنا ... وغالبـاً مابدا أنه خرج عن طوره من فرط الابتهاج ... وهل تتذكرين ... ذلك العهد ؟ ... كـنت تمرضين ، كنت غالباً غير مبالية ... بل لعلك كنت غير مبالية فى أغلب الأحيـان ... فهل أصبح الوقت متأخراً جداً الآن ؟ آه ! إن له أشياء أخرى يفـكر فيها الآن . وقد مضى الوقت الذى كنت تستطيعين فيه أن تسرى عنـه كل

www.alkottob.com

همومه . ولـكن ، أمضى ذلك الوقت بلا رجعـة ؟ أواه ، نعم ، فهو لم يبد عليه إلا بصعوبة أنه لاحظ ، فى آخر مرة عاد فيها إلى بيته ، أننا رزقنا طفلة صغيرة جـديدة لم يرها من قبل قط : حسناً ، لابد أن الأمر كذلك دون ريب . إنه لم يشتك ، بل كان هادئاً ساكناً ، ولـكن ذهنه كان مكتظاً بعالم كامل من الأمور الجدية ... عالم لامكان فيه لزوجة أو لأطفال . فهل يتكرر منه ذلك هـذا المساء أيضاً ؟ هل يلاحظ أنك عنيت بلبسك كل هـذه العناية لترضيه ؟ أهو لن يجد بعد ذلك متعة فى شعوره بأن ساعديك تطوقانك ؟

ووقفت أمام المرآة الـكبيرة المحاطة بإطار أبيض ، وألقت على نفسها نظرة ناقدة ، لا ، إنها لم تعد فى ريعان صباها كما كانت من قبل ... فاحمرار خديها ذوى قليلا فى هذه السنوات الأخيرة القليلة ، وتجعد وجهها فى موضع أو موضعين تجعـداً لا يتيسر إخفاؤه . ولـكن حاجبيها — وكان مغرما فى وقت ما بتقبيلها — لا شك أن حاجبيها لم يتغيرا قط عن ذى قبل . ومالت دون قصد صوب المرآة ، وربتت الاكتناز الداكن الذى يعلو عينيها ، وكأنما كانت يده هو التى تداعبها .

ونزلت أخـيراً إلى سفل الدار ، مرتدية ثوباً أزرق فضفاضـاً ذا طوق عريض مزركش ، وحاشيتين صفراوين فى طرفى كميه الواسعين ... واتزرت بمئزر مزخرف بزهر أحمر حتى تبـدو أنها لم تـكثر من التبرج ، وحتى تخلع على نفسها هيئة ربة البيت .

لقد تجـاوز الوقت الآن الساعة السابعة . وأقبلت لويز صوبها باكية . وغاصت ميرل فى مقعد قريب من النافذة ، ووضعت طفلتها فى حجرها ، وظلت تنتظر .

إن صوت عجلات العربة فى ظـلام الليل قد يعنى اقتراب القدر نفسه . قد يعنى قراراً ما ، أو كلمة نهائية ماتلقى بنا فى لحظة من حالق الغى الى الدمار ... من يدرى ؟ كان بير فى انجلترا أخيراً ، محاولا أن يصـل مع الشركة إلى اتفاق ما . منه ! أليس هذا صوت عجلات ؟ ... ونهضت مرتجفة ، وتسمعت .

لا ، فقد اجتازت المركبة البيت .

www.alkottob.com

أمست الساعة الآن الثامنة . وهذا هو وقت ذهاب لويز إلى فراشها . وأخذت ميرل تخلع لهـا ملابسها . ولم يمض إلا قليل حتى كانت الطفلة راقدة فى فراشها الأبيض الصغير ، والى كل جانب من جانبيها دمية ... وغمغمت قائلة : « امنحى أبى « كبلة » نيابة عنى ، وبلغيه حبى ... وهل تظنين يا أمى أنه سيسمح لى بالذهاب إليه صباح غد ، والرقاد معه فى فراشه قليلا ؟ »

ـــ أوه ، نعم ، أنا واثقة من أنه سيسمح بذلك . والآن ارقدى ونامى ... هأنت ذى فتاة لطيفة .

وعادت ميرل فجلست تنتظر فى الغرفة . ولـكنها نهضت فى النهاية ، ووضعت معطفاً على أكتافها وخرجت .

وثوت البلدة هناك فى ظلام الخريف تحت ضباب نور لبنى اللون ، وارتفع عالم من النجوم فوق التلال المحيطة بالبلدة من كل ناحية . وبير فى مكان ماهناك خارج منزله ، وقد يكون بعيداً يقطع طريقاً ريفياً ، وحصانه يسير على هواه متثاقلا خلال الظلام ، فى حين يجلس سيده مطأطىء الرأس مفكراً .

« ساعدنا يا إلهنا العلى ... وساعده هو على الأخص ، فقد عانى كثيراً من الشدائد فى هذه الأيام الأخيرة . »

ولـكن القبة المرصعة بالنجوم بدت باردة كالثلج ... فقد سمعت ملايين وملايين الدعوات من قبل ... إن قلوب البشر لاتعنى شيئا يذكر فى نظر هذا العالم اللانهائى .

وأحنت ميرل رأسها ، ودخلت المنزل ثانية .

وكان الليـل قد انتصف عند ما أخذ بير يصعد فى التل متجهاً صوب منزله . وإذا منظر البيت الـكبير ، بنوافذه المتـلألئة الأنوار ، يرج ذهنه المـكدود رجاً عنيفاً إلى حد أنه ضرب حصانه بصوته ضربة قوية دون وعى .

ورمى اللجام إلى « السايس » الذى خرج إليه يحمل مصباحاً ، وصعد فى درجات السلم . وتنقل فى البيت الـكبير وقد ساوره على الأغلب شعور بالوجل ، وكأنما أصبح هذا البيت مملوكا لغيره فعلا .

www.alkottob.com

وفتح باب غرفة الاستقبال ... لا أحد هناك ... ليس هناك إلا نور ... نور وراحة . وانتقل إلى الغرفة التالية ، وكانت ميرل هناك بمفردها جالسة فى مقعد ذى ذراعين ، نائمة وهى تسند رأسها إلى ذراع المقعد .

هل انتظرته هذه المدة الطويلة .

وسرت فى جسمه دفقة من الدفء ، ووقف ينظر إليها جامدا فى مكانه ، ثم لم تلبث قامتها المنحنية أن اعتدلت ، وانفرج وجهها الشاحب عن ابتسامة . وانتقل دون أن يوقظها إلى غرفة الأطفال حيث كانت المصابيح لا تزال مشتعلة ، ولكن الأنوار هنا كانت تسطع فوق ثلاثة أطفال فقط وهم يرقدون فى فراشهم ، مرتدين حلل النوم النظيفة ، مستغرقين فى منامهم .

وعاد إلى غرفة الطعام ، وكانت هناك أضواء أشد .. ومائدة معدة لشخصين ، وغطاء فى لون الثلج الابيض ، وأزهار .. وقرنفلة واحدة ماصفة بمشفته .. لا بد أنها من لويز الصغيرة .

وأخيراً استيقظت ميرل بلمسة من يده لكتفها :

ـــ أوه ؟ أأنت هنا ؟

ـــ مساء الخير ، يا ميرل !

وتعانقا ، وقبلها من جبينها . ولكنها استطاعت أن تتبين أن ذهنه مشغول بأمور أخرى .

وجلسا إلى المائدة ، وبدآ تناول عشائهما . وكانت تستطيع أن تقرأ التعبير البادى فى وجهه ، وفى صوته ، وهيئته الهادئة .. وأدركت أن ذلك يعنى سوء الأخبار .

ولكن فات الوقت الذى كانت فيه مداعبة غير متوقعة منها كافية لجعله يثور غيظه . وجلست هناك وهى ترتجف فى أعماقها من القلق ، وتتساءل أيمكن أن يفطن إلى وجودها .. أيستطيع أن يجد أى عزاء فى وجودها معه ، وهى التى لا تزال محتفظة بصباها ، وبقية باقية من جمالها ؟

www.alkottob.com

وألقى عليها نظرة مصحوبة بابتسامة لاحت من بعيد .. وسألها :

ـــ ميرل ! كم يبلغ كل ما يمتلك أبوك ، بحسب ظنك ؟

وجاءت هذه الكلمات كأنها أمر هادىء صدر من ربان واقف على ظهر سفينته وهى تغرق .

ـــ أوه ، يا بير ، لا تفكر هذه الليلة فى تلك الأمور كلها .. مرحباً بك فى بيتك !

وابتسمت ، وتناولت يده ، فقال لها :

ـــ شكراً .

وضغط أصابعها بيده ، ولكن خواطره كانت لاتزال بعيدة جداً . وواصل الأكل دون أن يدرى أية أصناف كان يأكل .

وما رأيك ؟ لقد بدأت لويز تتعلم العزف على الكمان . وأنت لاتتصور الى أى مدى تقبل هذه الصغيرة على ذلك .

ـــ أوه !

ـــ ونبتت سن جديدة « لأستا » .. وبينما كانت السن تشق طريقها قضت الصغيرة المسكينة وقتاً عصيبا .

وكانت كأنها تجذب الأطفال إليه لتريه أنه ، على الأقل ، لايزال يملكهم .

وتطلع إليها لحظة :

ـــ ميرل ، كان ينبغى ألا تتزوجى أبداً ، فهذا كان أولى بك ، وبأهلك أيضاً .

ـــ أوه ، هذا هراء ، يابير .. أنت تعلم أنك قادر على تقويم الأمر ثانية .

وصعدا إلى غرفة نومها ، وخلعا ملابسهما فى بطء . وقالت ميرل لنفسها : « إنه لم يفطن إلى وجودى بعد . » وضحكت قليلا ، ثم قالت له :

ـــ كنت جالسة هذا المساء أفكر فى أول يوم التقينا خلاله ... وأنت فيما أظن لاتفكر الآن فى ذلك اليوم أبدا ؟

www.alkottob.com

ودار بوجهه — وقد تجرد من نصف ملابسه — وتطلع إليها . وكان للهجتها المرحة فى أذنه وقع غريب ، وخطر له: « إنها لاتسألنى على أى نحو تقدمت فى العمل، أو كيف تسير الأمور . » ولكنه بعد أن ظل ينعم النظر إليها ، بدأ يلمح أخيرا ، من خلال ابتسامتها ، قلبها القلق المتوارى خلف تلك الابتسامة .

آه ، نعم إنه يتذكر جيداً ذلك الصيف البعيد إذ كانت الحياة عطلة عيد فوق التلال ، واذ ابتسمت له ابتسامتها الأولى فتاة عاكفة على النار تعد القهوة . وهو يتذكر ليلة حبه الأولى التى اصطبغت باحمرار الشمس الغاربة ، والتى قضاها فوق مرآة البحيرة الساطعة . وقد امتلأ قلبه حينذاك بنشيد عظيم منطلق الى السماء والأرض .

وجلست هناك ساكنة . إنها لا تزال له . ولكنها أقبلت عليه خاضعة و لأول مرة فى حياتهما ، متوسلة إليه أن ينعم بها على قدر مايستطيع وهى بالحالة التى هى عليها.

وأخذ دفء صامت يتدفق فى قلبه المثقل بالهموم ، ولكنه لم يندفع إليها ليحتضنها ويدور بها فى دوامة من الابتهاج الحماسى . ووقف ساكناً ، ونظر أمامه محملقاً ، ونصب قامته ، وأقسم وهو يطبق شفتيه بقوة ، أقسم إن لا بد من شق طريق له ، ومن إنقاذ الأمور لهما كليهما ، حتى مع كل ما حدث .

وأطفئت الأنوار ، ولم يلبثا أن رقد كل منهما فى فراشه المنفصل ، وصعد فى الظلام أنفاساً ثقيلة . وتمدد بير ، رافعاً رأسه الى أعلى ؛ واسترسل فى التفكير مغمض العينين . كان يبحث فى الظلام عن وسيلة لإنقاذ أعزائه . ورقدت ميرل مدة طويلة تنتظر منه مداعبة من مداعباته ، حتى إنها اضطرت أخيراً أن تخرج منديلها ، وتضغط به عينيها ، فى حين اهتز جسدها بنشيج مكتوم .

www.alkottob.com

الفصل الثانى عشر

نادراً ما كان لورنتز . د . أوتهوج يزور أخته الغنية القاطنة فى بروسيث ، ولكنه اتخذ اليوم الطريق الشاق إلى هناك ، وجلس كل من الأخوين المرمين المتسلطين فى مواجهة الآخر ، وقالت العمة ماريت وهى تميل بصدرها الضخم إلى الأمام ، وتصك ركبتيها كما يفعل الرجل :

وهكذا (دبرت أمرك) على أن تلتمس طريقك إلى هنا ؟

وقال أوتهوج وهو يبسط كتفيه العريضين :

— رأيت أنى أريد أن أعرف كيف تسير أمورك .

— إنها تسير على أحسن حال .. شكراً ... وما دام ليس لى صهر فلعله لا يحتمل أن أفلس .

وقال أوتهوج المسن وهو يحدق فى وجهه بعينيه الحمراوين :

— وأنا أيضاً لم أفلس .

— ربما كان الأمر كذلك . ولكن ماذا عنه هو ؟

— هو أيضاً لم يفلس . وعما قريب سيصبح غنياً .

— هو ! ... غنى ! أقلت غنى ؟

وأجاب الرجل المسن فى هدوء :

— سيصبح كذلك قبل مرور عام ، ولكن عليك أن تمدى يد المساعدة .

— أنا !

ودفعت العمة ماريت مقعدها إلى الوراء ، فاغرة الفم :

www.alkottob.com

— أقلت « أنا » ؟ ها ها ها ! خـــبرنى فحسب كم من مئات من آلاف الـكراوانات أضاعها ســدى فى مشروع ذلك الخندق أو المصرف أو أياً كان اسمه ؟

— لست أجهل أنه تأخر فى إتمـام العمل ستة أشهر ، ولـكن الشركة وافقت على إنقاص التعويض عن التأخير إلى النصف بعد أن رأت أى عمل فريد أتمه .

— آه ، نعم ... وماذا عن « المقاولين » الذين سمعت أنه عجز عن سداد ما فى ذمته لهم ؟

لقد دفع لهم أموالهم غير منقوصة ، « فالبنك » سوى الأمور .

— فهمت ... إن ذلك تم بعد أن قمتما أنتما الاثنين برهن كل ما تمتلـكان من حطام الدنيا ... إنكما كليكما تستحقان ضرباً طيباً بالسياط !

ومسح أونهوج لحيته :

— إنى أقر أن المشروع من الوجهة المالية البحتة لم يكن ناجحا. ولـكنى أستطيع أن أريك هنا ماذا يقول رجال الهندسة عنه فى الصحف الفنية . ها هو ذا مقال مزين بصورته وصورة الخزان .

وقالت الأرملة دون أن تلقى بالا إلى الصحيفة التى عرضها عليها :

— حسناً . . . أولى به إذن أن يعول أسرته بالصور التى تنشرها له الصحف .

وقال أخوها وهو يعيد الصحيفة إلى جيبه :

— سيعود إلى القمة عما قريب .

وجلس هناك أمامها دون أن يساوره قلق . فهو سيبين للناس أنه ليس بالرجل الذى ينهار لدى أول إخفاق ، وأن هناك أشياء أخرى يقدرها غير النقود .

وكررت الحمة ماريت القول :

— سيعود إلى القمة عما قريب ؟ هل تخايل عليك مرة أخرى بهراء جديد ؟

www.alkottob.com

— لقد اخترع آلة حصاد جديدة ، وكاد يتم صنعها ، ويقول الخبراء إنها ستساوى مليون كراون .

وتراجعت الأرملة بمقعدها مسافة قليلة أخرى :

— هوه ! وتريد أن تقنعنى بحكاية كهذه ؟

— لا بد لك أن تعاوننا نحن الاثنين على مواصلة العمل بنجاح هذا العام ... وإذا قدمت للبنك ضماناً بمبلغ ثلاثين ألفاً . . .

ودفعت العمة ماريت ركبتيها بيديها فى قوة :

— لن أفعل شيئاً من هذا القبيل ؟

— بمبلغ عشرين ألفاً إذن ؟

— لا ، ولا بمبلغ عشرين قرشاً !

وحدق لورينتز أوتهوج فى وجه أخته دون أن يتحول ببصره عنه . وبدأت عيناه الحمراوان تومضان ، وقال فى هدوء .

— لا بد من قيامك بذلك يا ماريت .

وأخرج غليوناً من جيبه ، وعكف على حشوها وإشعالها .

وجلسا فترة ينظر كل منهما إلى الآخر ، ويتحرز خوفاً من أن يبرهن الآخر على أنه الأقوى . وطال نظر كل إلى صاحبه حتى إنهما ابتسما آخر الأمر دون عمد . وسألت الأرملة فى النهاية وعيناها تجهران بالسخرية :

— أظنك أخذت تذهب الآن إلى الكنيسة مصطحباً زوجتك ؟

— إذا أنا اكتفيت بالثقة فى الله فقد أقبع فى مقعدى وأصلى ، وأدع الأمور تسير إلى الدمار . . . والواقع أنى أثق فى اجتهاد الإنسان أولا ، ولهذا تجدينى هنا الآن .

www.alkottob.com

وأعجبها هـذا الرد . فهذه الأرمـلة القاطنة فى بروسيث لم تعـد تتردد على الكنيسة . فقد دخل فى روعها أن القدر أخطأ فى حرمانها الذرية . وسألت وهى تنهض من مقعدها :

ـــ أتريد قدحاً من القهوة ؟

وقال أخوها :

ـــ أنت تقولين الآن قولا معقولا .

وأومضت عيناه . كان يعرف أساليب أخته . وأشعل الآن « البيبة » ، واستلقى على ظهره مستريحاً فى مقعده .

www.alkottob.com

الفصل الثالث عشر

ووقف بير مرة أخرى في غرفة عمله بالمسبك مشتبكا في صراع مع النار والصلب .

إن القيام برسم العمل شيء مفيد ، والفكرة في ذهن صاحبها شيء حسن دائماً . ولكن الرجال الذين استخدمهم في تحويل مشروعاته إلى رسوم نموذجية واضحة يعملون في بطء ، فلماذا لا يستعمل هو يديه لصنع ماينبغي صنعه ؟

ولدى وصول المال الى المسبك صباحا كان صوت المطرقة يتردد في الغرفة الصغيرة . ولدى انصرافهم مساء تركوا صاحب العمل وهو لم يفرغ من عمله بعد . وإذا أوى المواطنون الطيبون في رينجي الى غرفة نومهم ، وشاءوا أن يطلوا من نوافذهم رأوا النور في غرفته مازال مضاء .

وكانت هناك أشياء كثيرة تتعب بير حتى قبل أن يبدأ عمله هنا . ولكن لم يكن هناك قط في الأيام السالفة من يسأله القوة الكافية للاضطلاع بهذا العمل أو ذاك . وهو كذلك لم يسأل نفسه قط هذا السؤال . والمسألة الآن ما زالت ، كما كانت من قبل ، مسألة إتمام عمل ما بأي ثمن . ولم يحدث من قبل قط أن تعرض للخطر مثل هذا القدر الكبير من الأشياء .

وتم فعلا صنع النموذج الخشبي للآلة الجديدة ، كما تم تركيب أجزائها المسبوكة . وبدت في مجموعها بسيطة نوعا ، وبرغم ذلك ... أي فارق كبير بين الآلة البدائية الأولى وبين هذا الشيء الذي يكاد يبدو حياً ... شيء له ، على الأقل ، عقل معدني ... ألم يكن لهذه العجلات ومحاورها آباء وجدود ... وأسلافها تمتد إلى أغوار القدم ؟ إن الصلب أنجب ، وذريته تنجب بدورها ، متقدمة دائماً إلى ماهو أرفع وأقوى وأقدر . وها هي ذي آخر مرحلة يصل اليها حتى الآن ، في هذا النوع من العمل ، بفعل اختراع الإنسان — ومع ذلك هل هي بعد صالحة الى الحد الكافي ؟ إن الاختراع الذي ينجح نجاحا كافيا في توفير المال للمخترع ... ليس كل ماهو مطلوب ، فلا بد أن

www.alkottob.com

يكون الاختراع أكثر من ذلك ، لا بد أن ينجح نجاحاً عالياً ، لابد أن يشق طريقه عبر البرارى ...عبر السهول الشاسعة فى الهند ومصر ... هذا هو المطلوب ... النوم ؟ والراحة ؟ والغذاء ؟... ماقيمة هذه الأشياء عند مايتعرض للخطر ذلك القدر الكبير من الأمور !

ولم يعد يتردد على أذنه هذا التساؤل : لماذا ؟ إلى أين ؟ وماذا بعد ؟ لا جدوى من التفكير فى هذه الأمور . إن أفقه ضاق عن أن يتضمن شيئا أكثر من هذه المشكلة وحدها ... كان يحلم فى وقت ما بتحقيق عمل يرتبط بأحلامه عن الأبدية . وهذه المشكلة الراهنة ليست كذلك بالتأكيد . ومع ذلك ما مدى مايصل إليه مكسب الإنسانية عند ماتظفر بآلة واحدة مرة أخرى تضاف إلى مالديها من آلات ؟ هل يضيء ذلك شعاعا واحداً آخر من أشعة الفجر فى روح الإنسان ؟

وبرغم ذلك أصبح هذا العمل الآن ، وهو على ماهو عليه ، كل شيء بالنسبة لبير ، . لا بد أن يكون كل شيء . . ينبغى أن يكون كذلك . وأصبح بير مرتبطا به ارتباطا وثيقا .

وكان كلما رفع بصره الى النافذة خيل إليه أن وجوها تحدق فيه من وراء كل لوح زجاجى من ألواح النوافذ ، وكأنما كان أصحابها يتساءلون : « ماذا ؟ ألم يتم الاختراع بعد ؟.. فكر فيما يعنيه إخفاقك ؟ » وكأنما كانت وجوه ميرل وأولاده تقول : « أيتحتم طردنا من لورينج إلى حيث يكون نصيبنا الإهمال ؟ » وكذلك وجه أوتهوج الهرم وزوجته يقولان : « أمن أجل هذا انضممت إلى الأسرة المحترمة ؟.. من أجل إلحاق الدمار بها ؟ » ومن وراء هؤلاء يتدافع أهل البلدة جميعا .. كان الجميع يعرفون ما يجازف به ، وما يدعوه الى الكد على هذا النحو . ودأبوا على التحديق فيه منتظرين . وظل مدير البنك هناك ينتظر هو أيضاً ، شأنه فى ذلك شأن الآخرين .

يستطيع المرء أن يمسك خناق امرأ آخر ويقول ستفعل ! أأنت متعب ؟ أهناك عوائق ؟ هل الوقت ضيق ؟. . إن هذا كله لا وجود له .. ستفعل ! . . أهذا الشيء أو ذاك غير ممكن ؟ . . حسنا ، اجعله ممكنا ، فمهمتك أن تجعله ممكنا .

لم يكن يقضي فى بيته إلا وقتا قليلا ؛ واتخذ من مظهر مستطيل فى معمله فراشا له .

www.alkottob.com

وكثيراً ما كانت ميرل تحضر إليه ، وتحمل له الطعام ، وترى كم هو شاحب ، مغبر الوجه ، منهوك القوى ، ولا تجرؤ على سؤاله ، بل تحـــاول ، بدلا من ذلك ، أن تمازحه . وقد تدربت منذ طويل على اصطناع المرح فى بيت تطرد فيه الضحكات الأشباح .

ولـكن حـدث ذات يوم أن استوقفها وهى تهم بالانصراف ، ونظر إليها وعلى ثغره ابتسامة غريبة ... وقالت له وهى تنظر إليه نظرة متسائلة :

ـــ حسناً ، ياعزيزى؟

ووقف ينظر إليها كما كان ينظر من قبل ، وعلى ثغره نفسه الابتسامة البادية من بعيد . كان ينظر من خـــلال زوجته إلى العالم الصغير الذى تناصره ... أهذا البيت والأسرة اللـذان ظفر بهما عن طريقها ، وهو الذى لم يكن له مأوى قبـل ذلك ، أسينهاران معاً ويتحطمان ؟

ثم قبل عينيها وتركها تنصرف .

وبعد أن تبدد وقع أقدامها وقف لحظة مدفوعاً برغبة مباغتة فى الالتجاء إلى قدرة عليا يبتهل إليها أن تمـكنه من التوفيق فى عمله . ولـكن هل هناك قـدرة تحقق له ذلك ؟ وفى آخر الأمر تحولت عينـاه مرة أخرى إلى الحديد والنار ، وإلى أدواته ، ويديه ذاتهما ، وكأنه وجه دعواته إليها قائلا : « ساعدينى .. ساعدينى لعلى أستطيع أن أنقذ زوجتى ، وسعادة أطفالى . »

النوم ؟ الراحـة ؟ التعب ؟ ليست لديه مهلة إلا عاماً واحـداً . لن ينتظر البنك إلا عاماً واحداً .

ومر الشتاء ، ومر الربيع . وفى يوم من أيام يوليو جاء إلى البيت ، واندفع إلى ميرل صائحاً .

غداً يا ميرل ! سيحضرون إلى هنا غداً !

ـــ من هم أولاء ؟

ـــ القوم الذين سيشاهدون آلة الحصاد. سنجربها غداً.

وقالت مبهورة الأنفاس، محدقة فيه :

www.alkottob.com

ـــ أوه يابير !

وواصل قوله :

ـــ إنه لأمر طيب أن تكون لى صلات بأناس فى الخارج . فهناك رجل سيحضر من قبل شركة إنجليزية ، وسيحضر آخر من أمريكا ، ينبغى أن يكون هـذا الأمر مشروعاً تجارياً ضخماً .

وأقبل الصباح، ووقفت ميرل تشيع زوجها بنظراتها وهو يرحل بعربته ، واضعاً قبعته خلف رأسه ، مخترقاً الضباب الذى أعقب أمطار المساء . ولـكن لم يكن لديها فراغ من الوقت لتقف مرتعدة ، فثمة ضيوف سيتناولون العشاء على مائدتها ، ولا بد أن تهتم بذلك.

وقامت الآلة (جاهزة) فى الحقـل ، وكانت شيئاً رشيقاً مطلياً بطلاء حديث . ووقف صبى بسرج الخيل .

وأقبل رجلان يلبس كل منهما قبعة لينة ومعطفاً خفيفاً ، وكانا أوتهوج الحرم ، ومدير البنك . وتوقفا ، ودارا بنظرهما فيما حولهما وقد اتكأ كل منهما على عصاه ، ولم تـكن النتائج المرتقبة فى ذلك اليوم شيئاً لا أهمية له قط بالنسبة لهذين السيدين . آه ! ها هى ذى العربة الـكبيرة الآتية من لورينج تقل الغريبين ، وتقـل معهما بير نفسه الذى ذهب إلى فندقهما ليحضرهما من هناك .

وكان شاحب اللون قليلا عندماتناول اللجام ، وامتطى مقعده على ظهر الآلة بقصد قيادتها بنفسه خلال المرج ذى الحشائش الـكثيفة العالية .

ونص الحصانان آذانهما ، وحاولا أن ينطلقا بالآلة عدواً ، وأفزعهما صوتها فى بادىء الأمر كما هى العادة ، ولـكنهما لم يلبثا أن استقرا على السير فى خطوات ثابتة منتظمة . وأخذت الذراع المصنوعة من صلب ، الحاملة للمقص ، تدور دورات واسعة خلال المرج حيث تقوم الحشائش ساطعة بعد هطول الأمطار .

وسار الغريبان فى بطء وراء الآلة ، وطفقا ينحنيان بين حين وحين ، وينظ

www.alkottob.com

إلى أعقاب الحشائش ليريا هل المقص يجز الأعواد جزاً عميقا نظيفاً . وكان الرجل الطويل القامة ، الكثيف اللحية ، ذو النظارة الزنبركية ، وكيل محل « جون فاولار » في ليدز ، أما الرجل القصير ، الحليق الوجه ، ذو الأنف الشبيه بأنف اليهود ، فهو يمثل شركة « هارو » في « فيلا دلفيا » .

وكانا من حين إلى حين يناديان بير أن يتوقف ليمتحنا بعض أجزاء الآلة .

ثم طلبا إليه أن يجرب السير بالآلة على أراض طبيعتها مختلفة .. على أرض منحدرة وعرة ، وعلى بعض الأعشاب الكثيفة المتفرعة . وأراد وكيل محل فاولار ، في آخر الأمر ، تجربة السير بالآلة على بقع من أرض حجرية . ولكن ألا تفسد مثل هذه الأرض المقص ؟.. هذا محتمل جدا ، ولكن وكيل فاولار يود أن يعرف إلى أي حد يتأثر المقص بالأحجار المنتثرة على الأرض .

وانتهى الاختبار أخيراً ، وأومأ كل من الزائرين إلى الآخر متأملا . وكان من الجلي أنهما صادفا هنا شيئا جديداً . فهناك إمكانيات لهذه الآلة قد تبعد عن الميدان أغلب أنواع الآلات الأخرى حتى في معمعان المنافسة الشديدة المحتدمة في أرجاء العالم حول الآلات الزراعية .

وقرأ بير التعبير البادي في عيونهما . إن هذين الخبيرين الجامدي العاطفة رأيا رؤيا . . رأيا ذهبا .

ولكن مع ذلك هناك عقبة . . عقبة صغيرة .

وانتهوا من العشاء ، وانصرف الزائران وأمسى بير وميرل وحدهما . ورفعت إليه عينيها مستفسرة ، وسألت .

— أسار الأمر إذن سيراً حسنا ؟

— نعم ، ولكن هناك فقط عيبا طفيفا يتطلب الإصلاح .

— ألا يزال هناك شيء يتطلب الإصلاح . . بعد أن قمت طوال هذه الشهور كلها بذلك العمل البالغ المشقة ؟

وجلست ، وسقطت يداها في حجرها .

www.alkottob.com

وقال فى حماسة وهو يذرع الغرفة ذهابا وإيابا .

— إنها ليست إلا مسألة تفصيلية بسيطة ، فالحشائش فى حالة ابتلالها تلتصق بأصابع الصلب التى تعلو سلاحى المقص ، وتتجمع هناك وتعوق الحركة . والذنب ذنب الشيطان فى أنه لم يخطر ببالى قط أن أختبر الآلة بنفسى فى جو مبتل . ولكنى حين أصلح هذا الخطأ يا فتاتى فستحقق الآلة نجاحا عالميا .

ونصبت الآلة مرة أخرى فى المصنع ، ودار بين حولها يراقبها ويمحصها ، ويفكر ويكد ذهنه ليستنبط حيلة صغيرة تجعلها صالحة تماما . وكل ماعدا ذلك المعمز كان قد بلغ حد التمام ، وبرىء من كل عيب ، ولكن لم تتوفر إلى الآن هذه الفكرة المفردة السعيدة ، هذه الومضة من الإلهام .. هذا الشىء المعين الذى يتوفر فى لحظة من لحظات العمل قد يكفى لبث الروح فى هذه القطعة من الصلب ، وإمدادها بأجنحة تطير بها فى أرجاء العالم الفسيح .

وقد تجىء هذه الفكرة السعيدة فى أية لحظة . وطاف حول الآلة مرة بعد مرة وهو يشد أصابع قبضتيه بقوة ، يائسا بسبب تلكؤ الفكرة فى مجيئها .

إن اللمسة الأخيرة فقط .. إن وضع النقطة تحت الباء هو الذى ينقصه .. ما الذى يعوزه ؟ أهو تغيير بسيط فى شكل أصابع الآلة أو وضعها ؟ .. أم فى طول سلاحى المقص ؟ . كيف يستطيع أن ينام فى تلك الليلة .

وأحس أنه يواجه مشكلة كان من الميسور أن تحل فى سهولة لو أنه جاء يعمل متجدد القوى منتعشا ، ولكن ذهنه المكدود كان منهمكا إلى حد لا يستطيع معه التغلب عليها .

ولكن عند ما يتهيأ الجواد العربى للسقوط من شدة الإعياء ، فإنه عندئذ ينطلق عدوا .

لم يكن يستطيع أن ينتظر ، فهناك الوجوه تبدو ثانية من وراء النوافذ صدقة متسائلة : « ألم تتم العمل بعد ؟ » . وهناك ميرل والأطفال ، وأوتهوج وزوجته ، ومدير البنك .. وهناك منافسوه فى أرجاء العالم أجمع .. إنه يسبق هؤلاء الآن

www.alkottob.com

بشوط ، ولكنه قد يتخلف عنهم غدا . أينتظر ؟ أيستريح ؟ لا !

وحل الخريف الآن ، وألجأه السهر طوال الليالى إلى الطبيب الذى وصف له الاستحمام بالماء البارد ، والاستجمام التام ، وتجرع الأشربة المنومة ، والأشربة المعدنية . آه ، نعم . فى وسع بير أن يبتلع الأدوية الموصوفة جميعها .. ولكن الشىء الوحيد الذى لا يستطيعه هو الراحة والنوم .

إنه ليجلس إلى ساعة متأخرة من الليل ، مكبا من شدة الإرهاق ، وعيناه ترقبان جمرات الكور الخامدة ، وقطع الصلب والأدوات . وإذا عدد لايحصى من الشرار يبدأ فى التطاير أمام عينيه ، وتزحف هنا وهناك فوق الحيطان والأرض كتل من الحديد المنصهر وكأنها أشياء حية . وبدا من عل ، إلى جانب الكور ، شىء أكثر تحددا ، بدا شكل ضبابى أخذ يزداد حجما ووضوحا حتى انتصب أخيراً مخلوقا هو نصف إله ونصف إنسان ، له لحية ، ولا يستر جسده ثوب ، وفى إحدى يديه نار ملتهبة ، وفى الأخرى مطرقة هائلة :

— ماذا ؟ . . ماهذا ؟

— ألا تعرفنى يا رجل ؟

— إنى أسألك من أنت ؟

— لدى قول أفضى به إليك . . لا طائل من وراء بحثك عن إيمان غير إيمانك بتطور الكون إن الصلاة لن تفيدك شيئاً . وقد تبتعد بأحلامك عن الصلب والنار ، ولكن لابد لك آخر الأمر من أن تهب نفسك لهما . إنك مقيد إلى هذه الأشياء برباط وثيق ، وروحك يصبح عدما إذا خرجت عن نطاقها . الخالق ؟ والسعادة ؟ ونفسك ؟ . وحياة أبدية لك ؟ إن هذه الأشياء لا وجود لها بالنسبة إليك . إن إرادة الكون تتدرج صوب هدفها الأبدى ، وليس الفرد إلا وقوداً للنار .

وقد يهب بير واقفاً ، معتقداً للحظة من اللحظات أن أحداً موجود هناك فعلا . ولكن لم يكن هناك شىء إلا الفراغ التام .

وكان يذهب من وقت لآخر إلى بيته فى لورينج ، ولكن كل شىء بدا كأنه يمر

www.alkottob.com

خلال ضبابه . ولم يغب عنه أن عيني ميرل كانتا حمراوين برغم أنها اعتادت أن تغفى وهى تتنقل فى المنزل . وخيل إليه أنها ترجوه أن يأوى إلى فراشه ويستريح ، وأوى الى فراشه . وإنه لمن المبهج أن ينام ، ولكن كانت تستحوذ عليه ، عندانتصاف الليل ، فكرة أن العيب ، مع ذلك كله ، يكمن فى شكل المقص .. ومن ثم لايقف فى سبيله شىء يمنعه من النهوض والإسراع إلى المصنع . وعاد الشتاء من جديد وهو يناضل ليشق طريقه وسط عاصفة ثلجية .. ويضيء مصباحه وسط الليل الساكن ، ويشعل النار فى الكور ، ويلوى سلاحى المقص مرة أخرى . ولكنه بعد أن يعدلهما ، وينبتهما ثانية فى موضعهما ، يدرك من فوره أن العيب لا يمكن فيهما بحال من الأحوال .

والقهوة تفيد فى الاحتفاظ بصفاء الذهن ، واعتاد أن يعدها لنفسه فى مصنعه . وكانت بضعة أقداح منها تفيده ، لاسيما فى أثناء الليل ، وتكفيه أيضاً إلى حد أنه لم يكن يشعر بأية رغبة فى تناول الطعام . وعند ما انتهى به التفكير إلى أن أفضل شىء هو أن يعود فيصنع من جديد كل جزء من أجزاء الآلة على حدة ، وجد فى القهوة معونة كبيرة لأنها مكنته من قضاء ليال طويلة كثيرة ساهراً .

وبدأ يظهر له أن ميرل وحماه ومدير البنك أخذوا يتربصون مكانه ليل نهار ، مترقبين متجسسين ليروا هل العمل أوشك أن يتم . كيف لايستطيعون ، بحق الشيطان ، أن يتركوه فى سلام .. مدة أسبوع واحد آخر ليس إلا ؟ .. والآلة لا يمكن تجربتها ، على أية حال ، قبل حلول الصيف المقبل . وكان عمال المسبك يجفلون فى بعض الأحيان من خروج رئيسهم مندفعاً من غرفته الداخلية ، صائحاً فى عنف .

« لا ينبغى لأحد أن يدخل هنا .. أريد أن تتركونى فى سلام ! »

وكان كل منهم ينظر إلى الآخر عقب رحيل بير ، ويهز رأسه .

وجاءت ميرل ذات صباح ، واجتازت الجزء الخارجى من المصنع ، وطرقت باب غرفة زوجها ، ولم تتلق جوابا ، ففتحت الباب ودخلت .

ولم تمر لحظة حتى سمع العمال صرخة امرأة . وكانت ميرل ، لدى دخولها الغرفة عدوا ، تنحنى على زوجها الجالس على الأرض ، الشاخص إليها بعينين فارغتين ، غير مدركتين .

www.alkottob.com

وصاحت وهى تهز كتفه : « بير ! بير ! أتسمعنى ؟ أوه ، قل لى بحق ربك ماذا جرى ياحبيبى .. »

* * *

فى يوم من أيام إبريل حدث هرج ومرج فى بلدة ريمجيبى الصغيرة ، وانطلق منها فيض من الناس يرتدون أبهى حللهم ، (برغم أن اليوم كان يوم الأربعاء) وساروا على طول طريق الفيورد المؤدى إلى لورينج . وكان بينهم رئيسا التحرير اللذان حسما أخيراً خلافاتهما الدائمة . والمحاميان اللذان لا يزال كل منهما ينوى أن ينتزع لنفسه أى جزء من مهمة قضائية تسنح له ، وكان هناك تجار وأصحاب حرف ، وقد ارتدى ، جميعهم تقريباً ، معطفاً طويلا ، وقبعة صوفية رمادية ، ولكن الدباغ لبس قبعة حريرية عالية ليبدو أطول قليلا .

وفى موضع خروج الطريق من الغابة توقف أغلبهم عن السير لحظة لينطلقوا إلى لورينج . وبدا البيت الأبيض الكبير كأنه تربع عاليا فوق التل ليشرف إلى مسافة بعيدة وواسعة على البحيرة والريف المحيط به . وتحدث الرجال عن الأمور الجسام .. عن الحفلات ، وعن العظمة التى عهدها المنزل الكبير فى الأيام الخالية منذ أن كان مقراً رسميا للحاكم إلى بضع السنوات الأخيرة التى كان المهندس هولم خلالها فى أوج مجده .

ولكن العقار معروض اليوم للبيع بالمزايدة العلنية هو مايشتمل عليه من جهاز وأثاث . وسار الناس إليه ، أو اقتيدوا إليه من أماكن بعيدة محيطة به . ذلك أن ادارة البنك شعرت بأنه لم يعد هناك مبرر لمنح أية مهلة جديدة لبير وهو يرقد الآن مريضاً فى المستشفى ، وما من طبيب يأخذ على عاتقه أن يقرر هل يمكن أن يصبح المريض أهلا للاضطلاع ثانية بالعمل فى يوم من الأيام .

ولم يلبث الفناء أن ازدحم بالناس . وفى الردهة الكبرى داخل الدار كان دلال المزايدة قد بدأ بالفعل فى إعداد القطع المعروضة للبيع ، ولكن أغلب الناس توقفوا إلى الوراء قليلا ، وكأنهم يشعرون بالامتعاض من الدخول . وذلك أن الجو هناك فى الداخل مشحون بذكريات متخلفة عن العظمة وكرم الضيافة ابتداء من الأيام التى

www.alkottob.com

كان الفرسان المتحلون بالأطواق والمهاميز الذهبية يكرمون السيدات اللواتى يجررن أذيال ثيابهن الحريرية .. ابتداء من تلك الأيام الى عهد الولائم المرحة التى كان المهندس الشهير القادم من مصر يحلو له أن يدعو اليها فى أيام عزه جميع سراة القوم القاطنين حوله .

وقف أغلب الناس على درجات السلم أو فى مدخل البيت . وكانوا بين الحين والحين يختلسون لحة الى امرأة شاحبة ، مجللة بالسواد ، ذات حاجبين كثيفين ، تجتاز الفناء الى بيت أحد الخدم ، أو الى مخزن من المخازن لتأمر بنقل بعض الأشياء . هذه المرأة هى ميرل التى لم تعد الآن سيدة هذا المكان .

وعلى درجات السلم قابل لورينتز أوتهوج الهرم أخته سيدة بروسيث القادرة ، ونظرت إليه ، وأشعت من عينيها الضيقتين ومضة من سخرية ، ولكنه نصب قامته ، وقال وهو يمر بها :

ـــ ليس ثمة شىء تخشينه ، فقد سويت الأمور على نحو جعلنى لم أفلس بعد .. وستنالين نصيبك كاملا .

وأوسع فى خطاه الى الداخل ، عريض الكتفين ، مرفوع القامة ، ناظراً الى جميع الرجال فى هدوء حتى يمكنهم أن يروا أنه ليس بالرجل الذى يسحقه اخفاق .

وفى ساعة متأخرة من النهار عرض الحصان بيجو للبيع ، واقتيد ملجما عبر الفناء . واذ أقبل توقف لحظة ، وصهل ، وأجابته الجياد الأخرى بالصهيل متصاعداً من الإسطبل . أكان ذلك وداعاً ؟ أهو يتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه أول ماجاء منذ سنين ، راقصا بأقدامه المكسوة بالجوارب البيض ، ممتلئا شباباً وقوة ؟

ولكن كان هناك تحت المظلة الخشبية كالعادة رجل مسن ، أشهب قليل الحجم ، منهمك فى نشر الخشب وتقطيعه ، وكأن ما يحدث لم تكن له أية أهمية . لقد غادر القصر سيد وحل محله سيد آخر وبدا لذلك الرجل أن كلا من السيدين يحتاج الى خشب الوقود كما يحتاج اليه الآخر تماما . وإذا جاءوا إليه ليبدوا له أية ملاحظة ، فهو والحمد لله أصم كالحجر ، وصوت ضربات الفأس يظل يتوالى .

www.alkottob.com

وأقبل شاب فى عربة صعد بها التل . . شاب وجهه نضير ، وعيناه شديدتا الزرقة . وخلع معطفه فى ممر الدار فكشف عن سترة سوداء طويلة تحت المعطف من نوع « الفروك » ، وعن صدار عريض . كان ذلك القادم هو أوتهوج الابن ، الوكيل العام لبيع الأنسجة الإنجليزية ، وهو لم يشترك فى شئون زوج أخته المالية ، وعلى ذلك يستطيع أن يعين أباه على أزمته .

ولكن المزايدة فى لوربنج ظلت مستمرة لبضعة أيام .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الكتاب الثالث

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الأول

ومرة أخرى يمتد واد عميق آهل بمزارع مغمورة بأشعة الشمس تقع فى جوانب التلال بين النهر وصف الجبال الممتدة وراءه .

وفى يوم من أيام منتصف الصيف كان راستاد الهرم نفسه هو الذى جاء يستقبل القطار وهو يقود عربة ركوب تتبعها عربة نقل .. فهل هو ينتظر ضيفانا ؟ وسأله القوم الذين كانوا فى المحطة هـذا السؤال ، فأجاب راستاد الهرم وهو يمسح لحيته الكثة : « قد يكون الأمر كذلك » . وتنقل وهو يظلع متفقداً حصانى عربته ... أهم القوم الذين أعد لهم « البيت الكبير » ؟ وأجاب الرجل الهرم : أكبر الظن أنهم هم أنفسهم . »

ودخل القطار المحطة، وخرج منه رجل شاحب اللون ، أشهب شعر الرأس واللحية يستعمل نظارة زرقاء ، وكان يصطحب زوجة وثلاثة أولاد .. وسأل هذا الغريب : « بول راستاد ؟ » وأجاب الرجل الهرم : « نعم ، أنا بول راستاد » ورفع الغريب بصره إلى الجبال الشاهقة الواقعة إلى الشمال ، المتعالية إلى السماء على نحو يصيب المرء بالدوار ، وقال :

ـــ لا بد أن الجو طيب هنا .

وقال راستاد :

ـــ نعم ، يجمع الناس على أن الجو طيب جداً .

وبدأ ينقل الأمتعة إلى العربتين .

وصعدتا براكبيها فى طريق التل . واستقل الرجل وزوجته عربة الركوب ، وكانت المرأة تحمل طفلا على حجرها ، ولكن الغلام والفتاة جلسا فوق أحمال عربة نقل الأمتعة خلف راستاد .

www.alkottob.com

وسألت المرأة وهى تدور برأسها :

ـــ أنستطيع أن نرى الضيعة من هنا ؟

وقال الرجل الهرم مشيراً بيده :

ـــ ها هى ذى هناك .

ونظروا فرأوا على منحدر تل مشمس ، ضيعة عالية تقع تحت قمته مباشرة ، وعلى مقربة منهـا يقوم منزل مستطيل وطىء ذو سقف هرمى مبنى بحجر الأردواز . وهو من نوع المنازل التى اعتاد موظفو الأقاليم أن يسكنوها فى الأيام الخالية .

وعادت المرأة فسألت :

ـــ أهذا هو المنزل الذى سنسكن فيه ؟

وقال راستاد الهرم :

ـــ نعم ، هو بعينه ؛ هذا صحيح .

واستحث حصانيه على سرعة الجرى .

وأطالت المرأة نظرتها إلى الضيعة وتنهدت ... هذا سيكون إذن منزلهم الجديد ، وصار عليهم أن يعيشوا هنا بعيدين عن جميع أصدقائهم . فهل يمكن أن يعيد له هذا عافيته بعد أن عجزت أدوية الأطباء جميعها عن شفائه ؟

وقابلهم كلب من كلاب « لابلاند » عند باب حديقة المنزل ، ونبح فى وجوههم . ونزل خنزيران إلى الطريق ، ووقفا ، وأخذا يتحنان القادمين الجدد فى اهتمام شديد ثم دارا فجأة ، وانطلقا يعدوان بين البيوت .

وكانت زوجة وكيل المزرعة تنتظرهم بنفسهـا خارج المنزل . وهى امرأة طويلة القامة ، ذات غضـون ، تضع على رأسها قبعة سوداء . وقالت وهى تمد يداً خشنة غليظة العظام :

www.alkottob.com

— مرحباً بكم .

وكانت غرف المنزل فسيحة ، وطيئة الأسقف ، ذوات مواقد كبيرة تحتاج إلى كمية كبيرة من خشب الوقود فى أثناء الشتاء . وكان الأثاث خليطاً من كل نوع وكل طراز .. مقعد مستطيل من خشب « الماهوجنى » ، و «بوفيهات» إطارها مزخرف بورد ملون ، ومقاعد منقوشة بنقوش « أولد نورس » ، ولوحات مزعجة لأسرملوك أجانب ، ولصلب المسيح . وقالت ميرل وهما يتجولان فى الغرف وحدهما :

— يا إلهى ! كيف يمكن أن نعتاد كل هذا فى يوم من الأيام ؟

ولكن لوبز اقتحمت الغرفة فى هذه اللحظة بالذات ، وأفضت بنبأ بهر أنفاسها :

— أبى ... أمى ... توجد معز هنا !

ودلف لورنتز الصغير فى إثرها ، وصاح وهو يتعثر فوق درجة الباب :

— معز يا أمى .

ظل هذا البيت القديم خاوياً ميتاً لمدة سنوات وبدا الآن كأنه استيقظ . وتردد وقع الخطوات الداخلة والخارجة . وقعقعت درجات السلم مرة تحت وطء الأقدام .. أقدام صغيرة تدق الأرض وتستكشفها ، وأقدام كبيرة تتجول لإنجاز المهمات الكبيرة كانت هناك حركة فى كل ركن ، وتردد فى المطبخ رنين الآنية والأوعية ، وتوهجت النيران ، وأخذ الدخان يتصاعد من المداخن ، وتطلع المارون فى الخارج إلى أعلى ، ورأوا البيت القديم الميت وقد دبت فيه الحياة من جديد .

وكان بير لا يزال ضعيفاً بعد مرضه ، ولكنه استطاع أن يساعد قليلا على فك رباط الأمتعة . بيد أن قليلا من الجهد المبذول جعله يلهث ويشعر بالدوار ، وكانت هناك فى مكان ما بمؤخر رأسه مطرقة كبيرة تدقه باستمرار .. افترضى — افترضى مع ذلك أن تغيير الجو هنا لا يفيدك ؟ . . إنك فى المرحلة الأخيرة ، إنك دبرت أمرك لاقتراض المال الذى يمكنك من البقاء هنا عاماً واحداً ، فماذا يكون الأمر بعد ذلك ؟ . زوجتك وأولادك ؟ صه ! . . خير لك ألا تفكر فى هذا .. ليس هذا ، فكر فى أى شىء آخر ، فى أى شىء إلا هذا .

www.alkottob.com

لا بد من نقل الملابس إلى الطابق العلوى . نعم ، نعم .. والتفكير ينتهى كله إلى أنك تعيش على إحسان الآخرين . وحتى ذلك لن يستمر طويلا . وإذن أنت لم تصبح أحسن حالا فى الصيف المقبل .. أو منذ الآن إلى عامين مقبلين ؟ ماذا سيكون الأمر عندئذ ؟ أما عن نفسك أنت فهناك مخرج لك دائماً .. نعم ، ولكن ميرل والأولاد ؟ صه ، لا تفكر فى ذلك ! كان واجبك كله فيما مضى أن تتم عملا معيناً فى وقت معين . وواجبك الآن أن تسترد عافيتك ثانية .. أن تصبح قوياً كالحصان فى العام المقبل . هذا هو واجبك ، آه لوأن هذه المطرقة الكبيرة تتوقف فقط عن الدق ... المطرقة التى تدق مؤخر رأسك .

ولعل ميرل فى أثناء دخولها وخروجها تفكر فى نفس الشىء . ولكن ذهنها كان مكتظاً بأشياء كثيرة أخرى .. بتنظيم الأشياء ، وإدارة شئون المنزل . فلا بد أن تشترى الأطعمة من الدكان المحلى . وكم لتر من اللبن ستحتاج إليه فى الصباح التالى ؟ ومن أين تحصل على البيض . عليها أن تذهب من فورها إلى منزل راستاد وتسأل عن ذلك . وعلى ذلك سارت المرأة الشاحبة اللون ، المتحشة بثوب أسود ، بطيئة الخطوة ، منحنية الرأس ، مجتازة الفناء . ولكنها إذ تقف لتتحدث إلى الناس المحيطين بالمكان كانوا ينسون آداب المجاملة ويحدقون فيها ، نظراً إلى أنها كانت تبتسم ابتسامة شديدة الغرابة .

وقالت لويز وهى ترقد فى فراشها ، وتطوق عنق بير محيية قبل نومها .

ــ أبى ، يوجد قفص للزرازير معلق هنا بالحائط ، ويوجد كذلك عش لعصفور الجنة تحت طنف السقف .

ــ أوه ، نعم ، ستكون لنا تلهيات هائلة فى راستاد .. ما عليك إلا أن تنتظرى لترى .

ولم تلبث ميرل وبير أن رقدا فى فراشيهما الغريبين ، متطلعين إلى الليلة الصيفية القمراء .

إنهما مثل قوم كانوا على ظهر سفينة تحطمت فقذفهم الموج إلى الشاطىء . ولكن لم يبد فى وضوح أنهما نجوا تماماً .

www.alkottob.com

وتقلب بير على جنبيه متململا . وكان منهك الجلد والعظم إلى حد أن أعصابه بدت كأنها ترقد عارية ، فهو لم يستطع أن يجد راحة فى أى وضع من الأوضاع . ثم إنه كانت هناك ثلاثمائة عجلة ترن فى رأسه ، وتقدح شرراً يتطاير ويتحول إلى رؤى .

راحة ؟ لماذا لم يرض بالراحة قط فى الأيام التى سارت الأمور كلها على أحسن حال ؟

لقد حقق مرامه عند ما شيد أول خزان .. نعم ، وكسب مالا كثيراً من وراء مضخته الجديدة . ولكن كانت هناك دائماً تلك الأسئلة التى تنهشه . لماذا ؟ إلى أين ؟ وماذا بعد ذلك ؟ كان رئيساً للمهندسين ، ومد خطاً حديدياً ، وكان فى وسعه أن يناط به مد خطوط حديدية أخرى .. ولكن كانت تعاوده هذه الأسئلة ثانية : لماذا ؟ وماذا بعد ؟ الوطن ، الوطن ، ثم مد جذوره فى تربة وطنه الأصلى .. حسناً ، فهل جلب له ذلك راحة البال ؟ وما الذى أبعده ثانية ؟ .. الصلب .. الصلب والنار .

آه من ذلك اليوم الذى نزل فيه من فوق آلة الحصاد فأسرته فكرة تحسينها . لماذا اضطلع بهذا العمل ؟ أكان فى حاجة إلى مال ؟ لا . أم العمل كان معطلا ؟ لا . ولكن الصلب يريد أن يواصل التقدم ، ويحتاج إلى رجل ، فأمسك به من خناقه وقال له : « ستضطلع أنت بذلك ! »

السعادة ؟ الراحة ؟ آه لا ! فأنت ترى أن كمية كبيرة مختزنة من المعرفة والتجربة تتحول فى يوم مؤات إلى جيش من قوى الشر يسوقك إلى الأمام دون انقطاع . وقد تتعثر ، وقد تسقط .. ولكن ما أهمية ذلك ؟ إن الصلب يعتصر الرجل حتى نخاعه ، ثم يمسك بمن يليه .. ولهيب الدنيا يحتاج إلى وقود .. فاحن رأسك يا « رجل » ، واقذف بنفسك إلى النار .

إنك تفلح اليوم .. وغداً يلقى بك فى جحيم مقام فى هذه الأرض . وما أهمية ذلك ؟ أنت وقود للنار .

ولكنى لا أريد ذلك . لا أريد أن يلتهمنى لهيب الدنيا ، حتى ولو كان هو اللاهوت الوحيد فى هذا الكون . سأنتزع نفسى منه انتزاعاً ، وأصبح هيئاً فى ذاتى ، شيئاً لنفسى . وسيكون لى روح أبدى . وتطور العالم الذى أحدثه التقدم منذ ألف عام — ما أهميته بالنسبة لى ؟

www.alkottob.com

روحك ؟ فكر فقط فى مشاعرك النبيلة حيال أخيك الشرعى غير الشقيق .. ها .. ها .. ها ! كان شيكسبير مخطئاً .. إن الإبن غير الشرعى هو الذى يغرر به .

— يا عزيزى بير ، حاول بالله عليك أن تنام .

— أوه ، نعم . سمعاً وطاعة ، سأنام . ولكن الجو حار جداً .

وأزاح عنه أرديته ، ورقد يتنفس فى صعوبة .

— أنا واثقة من أنك تفكر وأنت راقد فى أمور كثيرة وتقلبها على مختلف وجوهها ، ألا تستطيع اتباع ما قاله لك الطبيب السويدى ؟ .. حاول فقط أن تذكر أن كل شىء حولك يكتنفه الظلام .

ويدور بير بنظره فيجد كل شىء حوله يكتنفه الظلام ، ولكن فى قلب ذلك الظلام ترتفع أمواج .. أمواج من النغم المتسق تتوالى مقتربة أكثر فأكثر .. إنه صوت نشيد .. إنها لويز تعزف واقفة .. لويز أخته .. أى سلام يا رباه ! .. أى سلام ! وأية راحة !

ولكن لويز لا تلبث أن تتوارى .. إنها تتوارى وتتبدد كما ينفخ فى اللهب فينطفىء ، ومن ثم تترامى ضوضاء هادرة ، وتقترب شيئاً فشيئاً طاحنة ساحقة مجلجلة وهو يعرف الآن هذه الضوضاء حق المعرفة . إنها أغنية الصلب .

هو هدير الصلب منبعث من السفن ، ومن قطارات السكك الحديدية التى يندفع كل منها بعينيه الصفراوين الشريرتين ، ممتلئاً بالأسرى الآدميين ، فإلى أين ؟ .. إنه يزداد سرعة ، مدفوعاً بدافع المنافسة .. بدافع شيطان الصلب الذى يتصيد الرجال دون ما راحة أو إمهال ، مسرعاً ، على وقع نبضات العالم ، إلى الحمى .. إلى الهذيان إلى الجنون .

إن تحطم « كمرات الصلب المتساقطة ، وأزيز العجلات ، واصطدام آلات الرفع والسلاسل ، وقعقعة المطارق الضخمة فى أثناء عملها .. كل هذا متداخل فى تلك الضوضاء . إن النار تتأجج بعينين جهنميتين فى كل ركن مظلم ، والرجال يتزاحمون حول الوهج الأحمر كأنهم ملائكة أشرار ، إنهم عبيد الصلب والنار مسوقين إلى الأمام دون أن يرتاحوا أبداً .

www.alkottob.com

أهذا روح برميثيوس ؟ أنظر ، إن إرادة الحديد تقذف بالرجال إلى الهواء الآن إنها تقهر السماوات . لماذا ؟ لتستطيع أن تندفع بسرعة أكبر ، إنها تتوق مع ذلك إلى مزيد من العجلة ، فتصبح أسرع ... أسرع ... برغم دوارها ... تسرع ... لماذا ! وإلى أين ؟ وا أسفاه ! إنها لا تعرف نفسها .

أأصبح أبناء هذه الأرض لا مستقر لهم إلى ذلك الحد ؟ . . أهم يخافون أن ينالوا قسطاً من الراحة لدقيقة واحدة ؟ أيخشون أن ينظروا إلى داخل أنفسهم ويروا فراغهم ؟ أيتوقون إلى شيء افتقدوه ... إلى نشيد ما ... أو لحن ما ... أو معبودما ؟ . .

معبود ؟ إنهم يجدون إلهاً جباراً ، وناسكا ممدداً على صليب ... ما هذه الآلهة في نظر رجال الصناعة الماديين الحديثين ؟ إنها تاريخ ديني ، ولبست ديناً .

وقالت ميرل ثانية :

— يا بير ، حاول أن تنام بالله عليك .

— أتظنين يا ميرل أني سأشفى هنا ؟

— لم السؤال ؟ ألم تشعر منذ الآن كم الجو رائع ؟ إنك ستشفى بالطبع .

ووشج أصابعه في أصابعها . وعاوده آخر الأمر صوت نشيد لويز ، ورفعه ، وهدهده في رفق حتى أغمض عينيه .

www.alkottob.com

الفصل الثاني

طريق ضيق يتمرج بين أشجار الغابة ، وليس به إلا أثر مرور عجلتين بينهما بساط رمادى من أشواك الصنوبر ، ولكن هناك الشجر والسماء والهدوء والسلام ، حتى أن التريض هناك هو نعمة حقيقية . فالطريق يرتفع وينحدر فى رفق إلى حد أن أحداً من مرتاديه لاتنقطع أنفاسه لهثاً . وهو يبدو كأنه يساير المرء طوال الوقت لمحض الصداقة ، وكأنه يهمس فى أذنه : « هون عليك الأمر ، تمهل ، استمتع براحة طيبة هنا . » وهكذا يمتد الطريق متمرجاً بين جذوع الأشجار ، ممشوقاً رخصاً كأنه الغادة الهيفاء .

إن بير يتمشى هنا كل يوم ، وإنه ليتوقف وينظر الى أعلى أشجار الصنوبر ، ويواصل سيره ثانية ، ثم يجلس لحظة من اللحظات فوق حجر مكسو بالطحلب . ولكنه لا يجلس إلا لحظة واحدة . . فهو يسارع دائماً الى النهوض ، ومواصلة السير ، برغم أنه لم يكن له مكان معين يقصده . ولكن السلام ، على الأقل ، كان سائداً هنا . وهو قد يتريث ويرقب حشرة تزحف فوق فرع من أفرع شجرة صنوبر ، أو ينصت الى خرير نهر يخترق الوادى بعيداً فى أسفل التل ، أو يستنشق رائحة صمغ الصنوبر الكثيفة فى الجو الدافىء ، تلك الرائحة التى ترد للمرء عافيته .

إن حياته الراهنة هذه كانت أسلوباً خاصاً من أساليب العيش . فهو إذ يرقد بعد ليلة لم يذق خلالها طعم النوم ، ويرقب النافذة التى يتزايد نورها مع بزوغ الفجر ، يخطر له : هاهو ذا بعد يوم جديد . . وليس ثمة شىء أستطيع القيام به خلاله .

وكان عليه مع ذلك أن ينهض من فراشه ، ويرتدى ملابسه وينزل الى الطابق السفلى ويتناول طعامه . وكان للخبز الذى يأكله طعم خفيف المرارة . كان له طعم الإحسان والاعتماد على أرملة بروسيث الغنية ، ووكيل شركات « الأقمشة » الإنجليزية . وكان على بير أن يذكر ضرورة تناول الطعام على مهل ، ومضغ كل لقمة بعناية ، والاستراحة بعد وجبات الطعام ، ثم عليه ، قبل كل شىء ألا يفكر . . ألا يفكر فى

www.alkottob.com

أى أمر من أمور الدنيا الواسعة . وسيكون فى وسعه بعد ذلك أن يخرج ويدخل كسائر خلق الله . وما عليه إلا أن تكون تنقلاته وأفعاله غير ذات فائدة ، ولا معنى لها فى ذاتها ، فهو لا يؤديها إلا فى سبيل صحته ، أو فى سبيل إبعاد الأفكار عن ذهنه ، وإزجاء الوقت .

وكيف جرى هذا ؟ إنه لا يزال يجد من المستحيل أن يدرك كيف يمكن أن تقع مثل هذه الأمور التى لامعنى لها دون أن تكون هناك أقدار تتدخل لتعيدها إلى نصابها . لماذا قضى عليه أن يدمر على هذا النحو المفاجىء ؟.. أيام وأسابيع وشهور من أوج عهد رجولته تتسرب إلى عدم أجوف .. لماذا ؟.. أرق وأعصاب مرهقة تدفعه الى ارتكاب أفعال تنكرها إرادته . إنه قد يثور على زوجته وأولاده إذا حدث أن وقع عقب شىء صغير على الأرض .. ولا جدوى من الندم الذى يعقب ذلك ، وينتهى أحياناً الى ذرف دموع صبيانية .. لأن الشىء نفسه يحدث ثانية ، أو يحدث على نحو أسوأ . هذا هو عبؤه فى يومه .. هذه هى الحياة التى قدر له أن يحياها .

ولكنه لا يغير أحداً هنا وهو فى أعلى ممر الغابة الصغير . وليست ثمة ضوضاء مؤقتة تتراءى وتنفذ مدى حادة فى سلسلته الفقرية . هنا سلام شامل ، سلام يفيد الإنسان .. وفى أسفل التل يقوم على المنحدر المشوشب مخزن متداع للمحصولات الزراعية ، أشهب اللون ، يذكره بحصانه المجوز ، الخائر القوى ، الذى يرفع رأسه عن الكلأ لينظر إليه .. وهو على مايبدو مخلوق وحيد منبوذ .. وفى غد سيسقط على الأرض ولا ينهض بعد ذلك أبداً ، بيد أنه يقبل نصيبه فى هدوء وصبر .

أج ! .. لكم ابتعد عن راستاده وانبثق فى جسده كله عرق باردخشية ألا تكون لديه قوة كافية تمكنه من العودة أدراجه صاعداً فى التل .. حسناً ، استجمع قواك ، استرح قليلا .. واستلق على ظهره ، راقداً فوق حقل مزروع برسيما ، محدقا فى السماء البادية فوقه .

يتدفق طوال النهار على امتداد الوادى تيار هواء نقى ، رطب بسبب مروره فوق الثلوج ، وكأنما « جوتنهايم » نفسها ، حيث تقبع هناك تحت قبة السماء ، تتنفس فى رغد من العيش ، وملأ بيرر ئتيه بأنفاس طويلة عميقة ، متجرعا الهواء كأنه جرعات من دواء شاف .. « ساعدنى إذن أيها الهواء ، وأيها النور ، وأيتها الوحدة . ساعدينى

www.alkottob.com

حتى أصبح معافى مرة أخرى ، صالحا للعمل ، فالعمل هو العقيدة الوحيدة المتبقية لأتعلق بها . »

ومن فوقه ، بين صفى الجبال ، يعلق جامدا فى مكانه عباب أزرق ، وفى الأعماق ترقد الراحة الأبدية . ولكن هل هناك أيضاً إرادة تعنى بالناس فوق هذه الأرض ؟ أنت تزعم أنك لا تؤمن بها ، ومع ذلك تتصاعد إليها صلاة قصيرة ! « ساعدينى .. أنت أيضاً .. من ؟ . أنت التى تسمعين كل شىء .. إذا كنت تهتمين أقل اهتمام بتلك الأشياء التى تسمى رجالا ، وتزحف على وجه الأرض ، فساعدينى ! .. إنى إذا كنت قد ابتهلت يوما لأتمكن من تحقيق أعمال كبرى تشيع جوعى الى الأشياء الأبدية ، فإنى لنادم على ذلك الآن ، وإنى لأعترف أن الأمر كان زهوا وغرورا .. اجعلينى عبدا يكد مضطلعا بأعمال حقيرة فى سبيل لقمة العيش حتى لاتنتزع منى ميرل ، ولا ينتزع منى أطفالى .. أتسمعين ؟

أهناك كائن يجد سلوى فى رؤية القدر الأعمى يعذب الرجال ؟ هل زوجتى وأطفالى عبيد حظ لا معنى له ؟ .. ومع ذلك يستطيع هذا الكائن أن يبتسم ويضحك ؟ أجيبينى أيتها الإرادة إذا كنت تعيرينى سمعك ... أنت يا صاحبة الأسماء المتعددة .

وأخذ جندب يعبر بين الحشائش من حوله . وعلى حين فجأة هب جالساً ، فهناك من تحته يمر قطار السكة الحديدية صارخا :

وعلى هذا النحو توالت الأيام .

وكانت ميرل فى كل صباح تختلس نظرة إلى وجه زوجها لترى أنام ليلته أم لم ينم .. لترى أعيناه ثقيلتان منتفختان أم هادئتان ؟ لاشك أنه سيصبح أحسن حالا عما قريب ! لاشك أن مكثهم هنا سيفيده . وقد فقدت هى أيضاً الثقة بالأطباء ، ولكن هذا الهواء ، وهذه الحياة الريفية ، والوحدة .. الراحة ، الراحة .. لابد أن تظهر عما قريب أدلة لاريب فيها على هذا كله سينجده .

وكم من مرة نهضت فى الصباح دون أن تغمض عينيها طوال الليل . ولكن كان هناك الأولاد الذين عليها أن تعنى بأمرهم ، والبيت الذى تتعهد شئونه . وكان رأيها

قد استقر رأيهما على أن تستغنى عن خادمة فيما إذا كان فى مقدورها .

وسألته ذات يوم :

ـــ ما الذى شغلك فى الضيعة فأخرك كل هذا التأخير ؟ إنك ظللت جالسا هناك مع راستاد الهرم مدة ساعات طويلة .

وقال :

ـــ أنا .. أنا أذهب إلى هناك لأتسلى ، وأزجى الوقت .

ـــ أتتحدثان فى شئون السياسة ؟

ـــ لا .. نحن نلعب الورق . لماذا تنظرين الى على هذا النحو ؟

ـــ أنت لم تلعب الورق قط من قبل .

ـــ لا ، لم ألعبه .. ولكن ، بحق الشيطان ماعساى أن أفعل ؟ أنا لا أستطيع القراءة بسبب عينى هاتين اللعينتين .. وبسبب الطرق المستمر فى رأسى ... وقد أعممت الآن عد جميع المزارع القائمة فى أعلا الوادى وأدناه إنها فى مجموعها تبلغ خمسين مزرعة . وهذه الضيعة هنا تضم على وجه التحديد واحداً وعشرين بيتاً سواء فى ذلك الكبير منها والصغير . فبحق الشيطان ما الذى أهتم به بعد ذلك ؟

وتنهدت ميرل وقالت :

ـــ هذا أمر عسير ، ولكن ألا تستطيع الانتظار حتى المساء لتلعب الورق ؟.. ألا تستطيع الانتظار حتى ينام الأطفال .. وعندئذ أستطيع أنا أن ألعب معك .. إن هذا يكون أفضل .

ـــ أشكرك شكرا جزيلا .. ولكن ماذا عن سائر اليوم ؟ أتعرفين كيف تكون حال تجوالك منذ الفجر حتى حلول الظلام وأنت تشعرين بأن كل دقيقة تبددت .. تبددت هباء ؟ لا ، أنت لاتستطيعين معرفة ذلك .. ماذا أصنع بنفسى فى أثناء يوم من هذه الأيام القاتلة التى لاتنتهى ؟ أأشرب الخمر حتى أسكر ؟

ـــ أما فى وسعك أن تحاول تمضية وقت قليل فى الاحتطاب ؟

www.alkottob.com

ـــ الاحتطاب ؟

وصفر صفيرا خافتا .

ـــ حسنا .. إنها لفكرة ، نـ .. مم . لنحاول قطع حطب للوقود فى سبيل تبديل الحال .

صوت ضربات ، ضربات ، ضربات !

ولكن بينما هو ينصب قامته ليفسح مكانا لتنفسه ترامى إليه أزيز آلة حصاد « راستاد » منبعثا من منحدر الوادى القريب حيث تعمل تلك الآلة ، فضم أسنان فكيه بقوة كأنما قد آلمته . إن « راستاد » يقود آلة الحصاد التى اخترعها هو ، والسماء تمطر دون انقطاع ، والحشائش لاتزال تلتصق ، وتلتصق .. فكيف يصلح الخلل .. يصلحه ؟ وأحس كأن لطمات تتهاوى على جراح متقيحة فى رأسه ، وتحمله على الرقص من شدة الألم .. صوت قطع الخشب ، صوت قطع الخشب ، قطع الخشب !.. أى صوت يعرف أزيز هذه الآلة .

ولكن الإنسان قد يستعمل الفأس بيديه ، وتساوره مع ذلك تخيلات ممتوهة تظل طوال الوقت تفور فى رأسه وتمور . ولعل بير قد فقد قدرته على صد نزوات الخيال ، فهى تزحف إليه محتشدة من كل جانب ، وتنقض عليه انقضاض جوارح الطير .. وكأنما هى تثأر لنفسها منه لطول أبعادها فى الزمن الخالى ، فهى تصيح : هأنذا ! لقد عاد فوقف وقفة تلميذ فى الأعمال الميكانيكية ، وعمل على تثبيت صفائح مرجل هائل بوساطة هواء مضغوط فى أنبوب .. وتوالى الصوت : « كلينج .. كلانج » ، وانتشر صوت المرجل النائح فى البلدة بأسرها .. والآن يكمن نفس للمرجل فى رأسه : « كلينج .. كلانج » .. « أج » ! وانبثق من جسده عرق بارد ، فرمى الفأس .. لابد أن ينصرف ، ويولى الأدبار .. يهرب الى مكان ما ... بيد أنه لايدرى الى أين . إن الوجوه التى يمقت التفكير فيها تطل عليه من كل ركن صائحة : « هيه !.. ألم نقل لك ؟... أنت اليوم سائل يستجدى ، وفى غد ستصبح مجنونا مسجونا فى قفص . »

ولكن قد يحدث أيضاً أن المعونة تأتى فى أثناء الليل . وهناك تعود إلى ذاكرة

www.alkottob.com

الإنسان تلك الأشياء التى يطيب له أن يتذكرها .. فذاك الوقت .. أو غيره من الأوقات .. امرأة هناك .. وتلك المرأة التى قابلتها فى ذاك المكان .. وهناك لوحة فى متحف اللوفر رسمها « فيرونيز » : امرأة فى مقتبل العمر من البندقية تصعد فى سلم مرمرى لأحد القصور ، ممسكة بيد غلام ذهبى الشعر ، إنها ترتدى ثوباً من المخمل الأسود ، وتتألق شباباً وسعادة . أكان هناك موعد لقاء مع حبيبها فى حديقتها ؟ وقبلة أولى! وضوء القمر ، وعزف على العود !

وسرت فى جسده المنهوك رجفة من السعادة . وحومت صوبه زرافات من الذكريات والانطباعات المشرقة وكأنها أرواح من نور .. واستطاع أن يسمع رقيق أجنحتها المندفعة إليه .. وناداها طالباً العون ، وأحاطت به ، وصارعت أرواح الظلام لإنقاذ روحه ... لقد عرف فى حياته قدراً كبيراً من الاشراق والجمال ... والأرواح المشرقة هى الأقوى بالتأكيد ، ولا بد أن تنتصر .. آه ! لماذا لم يعش عيشة الملوك بين النساء والأزهار وأقداح النبيذ ؟

وقال ذات يوم وهو ينهض من فراشه :

— ينبغى لى يا ميرل ... بل إنى سأضطلع بعمل ما يدفعنى إلى النوم وقد برح بى التعب .

وأجابت ميرل :

— نعم يا عزيزى ، حاول أن تفعل ذلك .

— سأبدأ بمحاولة نقل أحجار على « عربة يد » وإذا لم ينم المرء ، بعد يوم عمل كهذا فلا بد أن يكون يوما عامرا بالشيطان .

وعلى ذلك حمل الأحجار فى ذلك اليوم وفى أيام كثيرة تالية ونقلها على عربة من أرض تقع إلى جانب التل تشققت حديثاً ، وحملها إلى خندق يمتد إلى جانب الطريق .

أيام هادئة ذهبية من أيام الخريف .. ومزرعة فوق مزرعة ترتفع بالتدريج إلى قمة الصف ، وتقع جميعها وسط حقول صفر نامية الزرع . وهناك فوق القمة تماما

www.alkottob.com

يقع كوخ صغير تجاه السماء نفسها ، ولهذا الكوخ أيضاً رقعته الصغيرة ذات سنابل القمح الأصفر . وهناك نسر يسبح على مهل من قمة إلى قمة عبر الوادى العميق .

وحملق المارة فى بير وهو يروح ويغدو عارى الرأس ، فى قميص بلا سترة ، دافعاً أمامة عربة الأحجار . وقد يقولون وهم يهزون رؤوسهم : « نعم ، إن لسراة القوم آراء عجيبة . »

وظل صوت جاف أجش يتردد فى رأس بير قائلا : « هو ذاك .. الزم هذا العمل .. هذا بله ، ولكنه مكتوب عليك . جر العربة فى جد برجليك الهزيلتين . وكم من حصان منهوك اضطر قبلك إلى القيام بنفس هذا العمل . لابد أن تنعم الليلة بشىء من النعاس .. لم يبق أمامك الآن إلا عشرة أشهر ، وستجد الشيطان بعد ذلك قادما إلى مفترق الطرق مرة أخرى .. مسكينة ميرل ، لقد بدأ شعرها يشيب . والأطفال الصغار المساكين .. لعلهم يحلمون بأن أباهم يضربهم ، فهم كثيراً مايصرخون فى أثناء نومهم . لتمض الآن ، ادفع العربة ، انته الآن من هذا الحمل ، وعد لتنقل غيره .

« أنت الذى تطلع يوما إلى عمل بلا روح فى سبيل لقمة العيش ، لقد غصت الآن إلى حضيض أشد تعاسة . أنت تجر الآن حملا ، وعملك هذا محض حماقة ... أنت عبد من العبيد المحكوم عليهم بالتجذيف فى السفن . والكارثة هى سيدك المشرف على عملك . وأنت كلما تحركت تعالى صليل السلاسل ، وهذا هو يومك . »

ونصب طوله ، وجفف عرق جبينه ، وبدأ يلقى الأحجار فى « عربة اليد » من جديد .

إلى متى تستمر حياة القيود والأغلال هذه ! أتذكر أيوب ! أيوب ! نعم ، ولابد أنه كانت لله حكمة عند ماسلط إبليس على رجل سعيد . أيوب ؟ إن أبناءه وبناته السبع ، وماشيته وأولادها ردت إليه ، ولكننا لم نقرأ عن أى عوض ناله نظير ما أصابه ، لقد أجبر على القيام بدور مضحك البلاط وهو يكابد الاضطراب والتعذيب والشقاء لينال السادة قسطا من الهو دون مقابل . لقد استرد أيوب نصيبه من الماشية والذرية ، ولم يحصل على شىء غير هذا .. ها .. ها ؟

www.alkottob.com

بروميثيوس ! أأنت على أية حال صديق الإنسان الوحيد بين القوى المسيطرة عليه ؟ أحقاً لديك القوة التى ستحررنا جميعاً فى يوم من الأيام ؟ متى تقبل إذن لتثير الثورة الكبرى ؟

هيا ، هيا .. انطلق بالعربة ثانية .. أنت ترى أنها امتلأت .

وصاحت لويز الصغيرة وهى تنحدر فى التل ركضاً ، وجدائل شعرها الأصفر تتطاير حول أذنيها

— أبى ، حان موعد تناول العشاء ، تعال الى البيت .

— ولكنها توقفت على حذر ، وهى على مسافة قصيرة منه .. إذ لم تعرف أى مزاج قد يكون مزاج أبيها

— شكرا أيتها القردة الصغيرة . ألدينا طعام طيب للعشاء الليلة ؟

وقال الصبية بصوت ينم على المعاكسة :

— آها ! هذا سر .

وكان وجهها قد أشرق الآن سرورا إذ وجدته يتقرب إليها :

— أمسك بى يا أبى ! إنى أستطيع أن أجرى بأسرع مما تستطيع أنت !

— أخشى يا فتاتى الصغيرة أن أكون متعبا الآن أشد التعب .

— إيه يا أبى المسكين ! أأنت متعب ؟

وأقبلت عليه ، وأمسكت به من يده ، ثم دست ذراعها فى ذراعه .. ووجدت لهوا ممتعا فى صعودها التل وهى متعلقة بذراع أبيها كأنها فتاة شبت عن الطوق .

ثم حل أوان الصقيع . وفى أحد الأيام نفذت قمم التلال إلى السحب الرصاصية الرمادية التى هطلت منها الثلوج الجارفة . ووقفت ميرل الى جانب النافذة وقد بدا

www.alkottob.com

وجهها رماديا فى الضوء المزج . ونظرت الى الوادى حيث أطبقت عليه الجبـــال ، فبدا لها أشد ضيقا من ذى قبل ، وثقلت أنفاس المرء ، وبدا كأن عقله خمد بين ألفاف البرد الرطب.

أج ! خير لها أن تذهب إلى المطبخ ، وتعـكف على العمل من جديد . . خير لها أن تعمل . . تعمل وتنسى .

وجاءها ذات يوم خطاب ينبئها بموت أمها .

www.alkottob.com

الفصل الثالث

عزيزى كلاوس بروك .

مخلوق أسطورى ! سقط ذات يوم من القمم الخديوية ، ثم صعد مرة أخرى فى اليوم التالى مع ڤكتشنر . ولكن ، قل لى بحق السماء ، ما الذى ذهب بك إلى السودان ، ما الذى جعلك تذهب وتجازف بحياتك فى أم درمان ؟ أظنه نفس اليأس القديم الذى تشكو منه دائماً . ولماذا اخترت من دون الأشياء جميعاً أن تغرس نفسك فى موقع متطرف على حافة البادية لترقد هناك مستيقظاً فى الأمسيات ، وتهدهد أفكار « شوبنهاور » الانتحارية .. تقول إنك عشت بلا مبادىء ، وبددت شبابك سدى ، وأصبحت لا مأوى لك الآن فى أى مكان ، ولا أخلاق لك ولا وطن ولا دين. ولكن أتستطيع تحسين ذلك كله بجعل الأمور أسوأ بكثير مما هى عليه ؟

وعلى فكرة أنت تخطىء إذ تحسدنى على حياتى الريفية ، ولا معنى لتمادياك فى الحنين إلى كنيسة صباك الصغيرة وأنبيائها وأناشيد وأقانيمها .. حسناً .. إن الحنين قد لا يضر ، ولكن لا تحاول أبداً أن تعثر عليها ، فالواقع يا صديقى العزيز أن مثل هذه الأشياء لا يمكن العثور عليها بعد الآن أبداً

أنا أسلم بأن العقيدة كان لها سلطان عليك فى صباك يماثل ما كان لها من سلطان على . لقد كنا كلانا غلامين شقيين همجيين ، ولكننا كنا نميل للذهاب إلى الكنيسة ، لا لنستمع إلى المواعظ ، ولكن لنحنى رؤوسنا عند ما يتعالى النشيد ، ولنغنى مع المغنين . وعند ما كانت أمواج موسيقى الأرغن تمر فى الكنيسة ، بدا — لى أنا على الأقل — كأن شيئاً بدأ يتعالى فى صدرى ، ويحملنى بعيداً إلى بلاد وممالك كل شىء فيها هو على الأقل قائم على نحو ما ينبغى أن يكون . وعند ما خرجنا معاً إلى فسحة العالم خرجنا ونحن نحتفظ فى قلوبنا بشىء من صدى ذلك النشيد ، وربما لعنا القدر ، ولكن النشيد ظل حياً فى ركن من عقلنا وكأنه اشتهاء .. كأنه جوع إلى شىء من تناسق الوجوه . ولعلنا كنا نحتمل فى اليوم الزاخر بالعمل حصتنا من أغنية

www.alkottob.com

الصلب الهادرة ، ولكننا فى الأمسيات ، فى فرشنا الموحش ، كانت طاقة أخرى تغشى عقولنا ، هى الجوع الى اللانهائى ؛ هى لهفتنا على أن تحملنا أمواج الأبدية فوق متنها وتهدهدنا . . تلك الأبدية التى يبعد كشف طريقها عن كل متناول .

ولا تعتقد مع ذلك أنك ستجد الآن كنيسة صباك فى أية بقعة من بقاع بلادنا ، فإن لنا الآن أنواراً كهربية فى كل مكان ، ولنا تليفونات وآلات عازلة ، ونقابات عمال ، واجتماعات سياسية،ولكن الكنيسة أصبحت خاوية على عروشها . لقد ذهبت إليها ، ووجدت الأرغن ينوح كأنه يشكو ألماً فى ضرسه ، والواعظ يعطس نشيده عطسا ، ورواد الكنيسة لا يزلزون سقفها بأصواتهم ، وما ذلك إلا لسبب واضح هو أنه ليس بالكنيسة من رواد . . والقسيس المسكين يقف على منصته بشاربه الأسود، ونظارته ذات الزنبرك . . إنه ضابط فى الجيش الاحتياطى ، يقرأ ملحوظاته المعقولة إلى حد بعيد من ورقة مكتوبة ، ولكن وجهه ينطق طوال الوقت قائلا : « أننا أيها الصعلوكان اللذان لم يعد بالكنيسة رواد غيركما ، إنكما لا تؤمنان بكلمة واحدة مما أقول ، ولكن لا بأس ؟ فأنا لا أؤمن أيضاً بذلك . » إنه لأمر فاجع أن يتجاوز الناس عهد اعتقادهم فى المقدسات . ونحن نحسب أننا الآن نفضل القديسين . . إن مذهب التفكير المؤسس على أن كل إنسان آثم بطبيعته ، والله يبطش بالآثمين . . إن هذا المذهب يستثيرنا . . وإننا لنهز له أكتافنا ، ونشيح عنه بوجوهنا مبتسمين أو نافرين . إننا لم نبلغ مصاف الملائكة بعد ، ولكننا أصبحنا أرقى من أن نؤمن بمثل هذا .

إن للقسيس عذره بالطبع ، فهو لا بد أن يبشر بإله ، وليس هناك إله إلا الله .

وإنه ليكاد يدهش المرء ، على العموم ، أن يجد حتى الفلاحين الجهلاء يهزون رؤوسهم ، ويتباعدون عن الكنيسة . فماذا يصنعون إذن فى أيام الآحاد ؟ إنهم يجلسون حول مائدة مستطيلة مطأطئى الرؤوس فى انتظار مرور النهار . وهم يذكرون الإنسان بحصان الحراث الذى ملأ جوفه بالطعام ، ووقف يصهل صهيلا خافتا ، لأنه لا عمل له فى ذلك اليوم .

أنا أسلم بأن خطة التطور الكبرى ، بما اشتملت عليه من أعاجيب الصلب ، ومعجزات العلم ، تغير وجه العالم ، وتزيد من نبضاتها شيئاً فشيئاً حتى تصبح نبضات محمومة . ولكن أية فائدة تعود على الفلاح إذا ما استطاع أن يطير بعربته ذات اليد

www.alkottob.com

بين أجواز الفضاء ، فى حين لايبقى له على وجه الأرض أى معبد ، أو أى يوم عيد ؟ وأية مهمة يمكن أن يضطلع بها بين السحب فيما إذا لم تعد هناك أقواس سماوية تعلو روحه ؟

هذا هو السؤال الحارق الذى يلازمنا جميعاً ... يلازمك أنت فى الصحراء ، ويلازمنا نحن هنا فى الشمال تحت القطب . يبدو لى أننا فى حاجة إلى من يجدد لنا عقيدتنا .. وليس القصد رسولا جديدا ، ولكن عقيدة مجددة .

إنك تسألنى عن صحتى .. حسناً ، يخيل إلى أن الحديث عنها ما زال مبكرا جدا. ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنك إذا تعرضت للعذاب والألم فلا تلق المسئولية على غيرك ، ولكن ألقها على نفسك .

تحيات إليك منا جميعاً ؟

المخلص

بير ديلزمان

www.alkottob.com

الفصل الرابع

اقترب عيد الميلاد ، وأصبحت الأيام كلها ذات غسق أشهب ، وحل صقيع جعل الحيطان الخشبية تقعقع . وازرقت الأطفال من البرد وهم يروحون . ويغدون . وارتدوا الى حلقة الانزلاق كلما عكفت أمهم على تنظيف الأرض ، مع أنه قد تكون هناك نار متوقدة فى المدفأة . وكان بير يخوض متوغلا فى الثلج بعيدا ليصل إلى البئر ويعود بالماء . وتدلت لحيته وكأنها جدائل ثلجية تحيط بوجهه .

نعم ، هذا هو الشتاء .

وكانت ابنتا راستاد الهرم فى قاعة الألبان تعصلان اللبن لتستخرجا الجبن . وفتح الباب على مصراعيه فاندفعت منه هبة من هواء قارس . ووقف بير هناك يطرف بجفنيه

— ها ! يا لكما من فتاتين متقددتين ؟

— أنحن كذلك الآن ؟

وأخذت الفتاة ذات الشعر الأحمر ، والأخرى ذات الشعر الأصفر ، تضحكان فى استخفاف ، فهذا المستاجر الحضرى العجيب الذى حل بدارهما لا يقترب منهما أبدا دون أن يتشدق بالنكت .

— وعلى فكرة يا « إلزا » ، لقد رأيت ليلة أمس فى الحلم أننا سنتزوج .

وصرخت كلتا الفتاتين اغتباطا بهذا القول

— وأنت يا مارى ، ستتزوجين العمدة .

— يا لله ! هذا المخلوق العجوز الذى يقطن فى « موورين » ؟

— إنه فى أرذل العمر ، فى التسعين .

وقالت الفتاة ذات الشعر الأحمر وهى تقلب مايحتويه مرجلها الكبير الغائر .

— أف ! .. أنت لا تكف عن هرائك أبدا .

وخرج بير ثانية . وكانت الفتاتان لاتكادان تتجاوزان سن المراهقة ، وبدا

www.alkottob.com

وجهاهما مع ذلك كأنهما قد جمدا وتيبسا لما تبذلان من جهد . وكلما حاول بير أن يباغتهما بما يضحكهما ساورهما الخوف من أن يكون قد خدعهما ليحملهما على ارتكاب أمر لاخير فيه .

وتمشى فوق الجليد المقعقع تحت قدميه وهو يضع على رأسه قبعة من فرو تغطى أذنيه . وكانت جوتونهايم نفسها تقع هناك فى الشمال ، وترسل أنفاساً من الصقيع الأزرق يعم العالم بأسره .

وهو ؟ أيواصل العيش على هذا المنوال ، ويحدودب ظهره تحت حمل يثقل كاهله ويحنيه شيئاً فشيئاً دون انقطاع؟ لماذا،والعياذ بالله ، لا ينفض عنه هذا الحمل ، ويتخلص منه ، ويركل فى شجاعة قدره المشئوم ؟

وسألته ميرل وهى واقفة فى المطبخ :

— ما رأيك يا بير فى إعطاء الأطفال هدية بمناسبة عيد الميلاد ؟

— أوه ... نهب كلا منهم بالطبع قصراً ، وجواداً يمتطيه ... عند ما يكون لديك مال يفوق فى وفرته الحد الذى لا تعرفين معه كيف تنفقينه فالشيطان يتكفل عندئذ بالتوفير ... وماذا عنك أنت يا فتاتى ؟ ألديك اعتراض على إهدائك فراء يبلغ ثمنه ألفى كراون ؟

— لا ، ولكنى جادة ، فليس لدى الأطفال مزالق يزحفون بها على الجليد ، وليس لديهم زحافة ذات يد .

— حسناً ، ألديك مال تشترين به هذه الأشياء ، أما أنا فلا أملك شيئاً منه .

— لنفترض أن تحاول أنت صنعها لهم ؟

وتأمل بير الفكرة من مختلف نواحيها وهو يصفر :

— مزالق ؟ حسناً ، لم لا ؟ وزحافة ؟ قد نستطيع تدبير ذلك . ولكن ماذا عن أستا الصغيرة ، إن سنها أقل من أن يناسبها هذا النوع من الأشياء .

www.alkottob.com

— إنها لا تملك فراشاً لدميتها .

وصفر بير ثانية .

— لهذا الرأى شيء من الوجاهة ... إنها لفكرة ، أنا لم أصبح بعد عاجزاً إلى حد العجز عن صنع ذلك ...

ولم يلبث أن اضطلع بالعمل فى جد . وكانت هناك أدوات ونحت نجارة فى بناء صغير تابع للدار ، وهناك زاول عمله ، وكان التعب يدركه بسهولة، وتحاول قدماه دائماً أن تتوجها به إلى الباب ، ولكنه كان يحمل نفسه على الاستمرار فى العمل . أهناك ما يشوب الفكرة التى تقول إن الإنسان يستطيع أن يشفى بمجرد تصميمه على ذلك ؟ سأشفى ، سأشفى ، سأشفى . وبدأ تفكيره فيمن عداه من أهله يتغلب على تلك الطيور الكواسر التى تفترس رأسه ... هدايا لأطفاله ... هدايا صنعها لهم أبوهم بنفسه لقد أشاعت هذه الصورة النور والدفء فى عقله ... إلى الأمام إذن .

وعندما حان صنع الأربطة الحديدية لمقود الزحافة كان عليه أن يجتاز البلدة ليذهب إلى الحداد . وهناك وقف رجل ريفى يقوم بتخشين حدوة حصانه ... وبدا الحديد والصلب المتوهجان مرة ثانية ، وخيل إليه أن صوت المطرقة وهى تدق السندان تمزق أذنيه ، وبرغم ذلك كان هذا الصوت يجتذبه أيضاً ... وقد طال عهده بسماع الصوت ... وكانت هناك ذكريات .

« أريد أن ألحم هذا بالكهرباء ياجينز ؟ ... أين البورق ؟ انظر ، هذه هى طريقة لحامه .

وقال جينز وهو يرقب الضربات الحاذقة الميسورة المطرقة :

— لله ولله حداداً ، وربى حداداً .

وحلت ليلة عيد الميلاد ، وجر مهر المزرعة الأشهب صندوقاً خشبياً كبيراً وصل به إلى الباب . وفتح بير الصندوق وحمل ما به إلى داخل البيت ... وتكومت كومة كبيرة من الأشياء الطيبة أرسلها معارفه من ربنجيي بمناسبة عيد الميلاد .

www.alkottob.com

وعض شفتيه إذ رأى كل الحقائب مكونة فوق مائدة المطبخ ... لقد مر به زمن ليس ببعيد كان يملأ فيه هو وميرل زحافته بسلع من متجر لورينج ، ويذهب بها ، وهي محملة بهدايا عيد الميلاد ، إلى جميع الفقراء القاطنين فى تلك النواحى . وكان ذلك بالنسبة لهما جزءاً مما يلهوان به ... والآن ... الآن عليهما حتى أن يسرا بتلقى الهدايا هما نفساهما .

ـــ ميرل ... أليس لدينا شيء نستطيع أن نجود به هذا العام ؟

ـــ لست أدرى ؟ وماذا ترى أنت .

ـــ إنه ليكون عيد ميلاد رهيب فقير للغاية ... إذا كنا نتلقى الهدايا فقط ولا نجد لدينا أقل شيء نعطيه .

وتنهدت ميرل وقالت :

ـــ علينا أن نأمل ألا يحدث لنا هذا مرة ثانية .

وقال وهو يذرع الغرفة رائحاً غادياً :

ـــ أنا لا أسمح بأن يحدث لنا ذلك الآن ... هناك ذلك النجار الفقير الذى يقطن فى « مووين » ، وينهشه مرض السل ... سأذهب إليه برزمة صغيرة أدخل بها بابه حتى ولو اضطررت إلى أخذ كسائك الداخلى ، وخلع قميصى عن ظهرى . فأنت نفسك تعلمين أنه لن يكون ثمة أى عيد ميلاد أبداً إذا نحن لم نقم بعمل ما .

ـــ حسناً ... ما دمت ترغب فى ذلك . سأرى هل نستطيع أن بين ملابس الأطفال شيئاً يمكنهم الاستغناء عنه .

وانتهى الأمر بأن أخذت ميرل تجبى عشوراً على كل رزمة وردت إليها من بيت أهلها ، سواء فى ذلك رزم الأرز والزبيب والفطائر ، وعبأت مما التقطته طروداً يذهب بها زوجها إلى من يقطنون حوله ... هذه هى طريقة ميرل ، دعها تعمل وحدها وهى توفق إلى شيء صائب .

www.alkottob.com

وقعقعت الثلوج ثم قعقعت تحت قدمى بير وهو يمضى لتأدية مهمته ... وكانت السماء مرصعة بالنجوم ، والهواء قارصاً . وترامى نور فوق نور من نوافذ الضيـــاع المبعثرة على جانب التل المظلم . وبدا تجاه السماء وميض ضئيل يعلو كل ما عداه ، وقد يكون منبعثاً من نافذة أحد الأكواخ ، أو لعله نجم من النجوم .

وتورد بير وانتعش عندما عاد إلى دفء الغـرفة . وتعالت صيحات مرحة كأنها غناء جوقة من المرتلين ، وذلك عندما أعلنت ميرل للأطفال قولها : « أبوكم سيعاون كلا منـكم على الاستحمام الليلة » .

وكان قاع برميل منشور بمنشار هو حوض الاستحمام . ووقف بير فى المطبخ ، مشمراً أكمامه عن ساعديه ، ممسكا بالأجسام الصغيرة وهى تتقلب فى الماء الساخن .

وكانت الأم منهمكة فى القيام بعمل ما فى غرفة الجلوس . وكان ذلك العمل سراً كبيراً وبدا الأطفال متـكتمين أمره ، غامضين كل الغموض . وقالوا لأستا الصغيرة التى ذهبت باكية إلى الباب طالبة أمها : « لا ، لا ... ينبغى ألا تدخلى » .

وحدث بعد ذلك فى المساء ، عندما أضيئت شجرة عيد الميـلاد ، وسطعت النوافذ سطوعاً أبيض من أثر الصقيع ... حدثت أمور كبرى على أرض غرفة الجلوس .. حصلت لويز على مزلاقيها وزحفت بهما فوقعت فى الحال على وجهها . وأخذ لورنتز يصيح وهو يسرع بزحافته الجديدة : « ها ! .. ها ! .. أفسح فى الطريق هناك ! » وهناك فى أحد الأركان جلست « أستا » الصغيرة مشتغلة بوضع دميتها فى فراشها ، والغناء لها حتى تنام .

ونظر الزوج وزوجته كل إلى الآخر وابتسم ... وقالت ميرل :

— ألم أقل لك .. ؟ .

* * *

وزحفت أيام الشتاء الرصاصية الشهبة بطيئة بطيئاً يعذب النفوس . فى منتصف النهار كان يحل غسق يستمر مدة ساعتين — مدة ساعتين فقط — ثم يعود الظلام

www.alkottob.com

إلى ما كان عليه ، وفى خلال الليالى الطويلة كانت ريح الشمال تعوى مرددة مرثيات جنازية — هوه ... أوه ... أوه ... وتكوم الثلوج فتحدث أجرفاً عميقة عمقاً يكاد يدفن الزحافة ومن يقودها ، وظلت الأيام والليالى تروح وتغدو رتيبة لاتتغير . وضوء النهار الثلجى الأشهب هو نفسه لا يتبدل ، وليس ثمة آدمى واحد يبادلونه الحديث — وهناك عبر الوادى يصدك حائط جبل راسخ هائل ، فتحدق فيه إلى أن يكاد يذهب بعقلك آه لو يستطيع الإنسان أن يحدث فيه ثقباً يسترق من خلاله لمحة إلى العالم الواقع خلفه ، أو لو يستطيع أن يصعد إلى قمته العليا ، ويدور بعينيه ، للحظة من اللحظات ، حول الأفق البعيد العريض ، ويتنفس مرة أخرى فى حرية .

وحدث أخيراً ، فى يوم من الأيام ، أن ارتفع النقاب الأشهب قليلا . وظهر شريط من السماء الزرقاء ... واستخف ذلك المنظر القلوب ، وتحولت القمم الثلجية فى الجنوب إلى قمم ذهبية ... ماذا ؟ . . . أهذه هى الشمس حقاً ؟ وبمرور يوم بعد يوم ازداد الآن اتساع حزام من ذهب ، وهبط شيئاً فشيئاً على جانب التل إلى أن انغمست الضياع فى وهجه الأحمر . وفى آخر الأمر وصل اللهب الأحمر إلى البيت الكبير ، وسطع عبر أرض الغرفة التى كانت ميرل تجلس فيها إلى جوار النافذة ، وترفع قاعدة سروال صغير .

أية حياة ، وأية بهجة يأتى بها هذا الضوء !

وصاحت لويز من الباب مغتبطة :

— أماه ... ها هى ذى الشمس .

— نعم يا بنيتى ، إنى أراها .

ولكن لويز لم تجىء إلا للحظة من اللحظات كى تطلب من أمها فطائر لأخيها لورينتز ولنفسها ، وتنصرف بعد ذلك إلى التزحلق بمزلاقيها فوق منحدرات التل . « أشكرك يا أمى ... أنت حبيبة إلى نفسى ! » واندفعت إلى الخارج حاملة قطعة من الفطير فى كل يد من يديها ، متوردة الوجه من البرد وتوفر الصحة .

آه لو أمكن فقط أن يتورد وجه بير صحة من جديد ! .. ولكنهما حتى لو استطاع

www.alkottob.com

إقناع نفسيهما بأنه الآن . الآن تخلص من المأزق . ففى اليوم التالى سيرقد متخبطا فى حبائل الفاقة ، وسيصبح كل شىء أدعى إلى اليأس من أى وقت مضى . وقد عاد إلى تناول عقاقير الطبيب — زرنيخ وحديد وما إلى ذلك — والجو الهادىء النقى الذى وصفوه له متوفر هنا .. أما من شىء يفيده ؟ لم تعد هناك أشهر كثيرة متبقية الآن من العام .

وماذا بعد ؟ .. شتاء آخر؟ .. والعيش على إحسان المحسنين — آه ، ولى !... وهزت ميرل رأسها وتنهدت .

وحان أيضاً الوقت الذى ينبغى للويز أن تذهب فيه إلى المدرسة .

وكتبت العمة ماريت من بروسيث رسالة قالت فيها : « أرسلوا الأولاد إلى — أرسلوهم ثلاثتهم إذا أردتم ذلك . » لا ، شكراً ، إن ميرل تعرف معنى ذلك ، فالعمة ماريت تريد إبقاءهم عندها دائماً .

أتفقد أطفالها ؟... أتسلمهم إلى الآخرين ؟ أسيحل اليوم الذى لا بد أن يقع هذا الحمل على أكتافهم أيضاً ؟

ولكن لا بد من التحاقهم بالمدرسة ، لا بد أن يتعلموا ، على الأقل ، ما يجعلهم أكفاء لكسب رزقهم عند ما يكبرون . وإذا كان أبواهم لايستطيعان أن يتيحا لهم الذهاب إلى المدرسة ، فلعلهما لا يكون لهما عندئذ حق الاحتفاظ بهم ؟

وظلت ميرل تعمل بإبرتها ، وترفع رأسها من حين إلى حين لتقع أشعة الشمس على وجهها .

عجبا لتألق الثلج — إنه يتألق كالأرجوان تحت فيض أشعة الشمس الحمراء . . . وبدا على أية حال أن همومهما خف حملها اليوم قليلا ، وكأنما كان فى قلبها شىء متجمد بدأ الآن فى الذوبان .

وكانت لويز تتقدم فى العزف على الكمان ، ولعل الطفلة تستطيع فى يوم من الأيام أن تخرج إلى العالم ، وتحقق النجاح الذى حلمت أمها بتحقيقه سدى .

وتردد فى الممشى صوت خطوات مسرعة ، فجفلت وجلست فى توجس . أهو يعود هائجاً مائجاً ؟ أم يائساً ؟ أم أن ألم رأسه قد عاوده ؟... وفتح الباب .

www.alkottob.com

— وجدتها الآن يا ميرل .. وحق الآلهة جميعاً لقد حدث آخر الأمر شيء أيتها المرأة الصغيرة !

ونهضت ميرل من مقعـــدها نصف نهوض ، ثم سقطت فيه ثانية ، محدقة فى وجه زوجها .

وعاد يقول :

— وجدتها هـذه المرة يا ميرل ، وكيف بالله لم تخطر الفـكرة على بالى قط من قبل .. فى حين أنها فى بساطة نزع قشرة البازلاء !

وتمشى الآن فى الغرفة وهو يضع يديه فى جيبيه ويصفر .

— ولـكن ما الأمر يا بير ؟

— كنت أقطع خشب الوقود كما ترين ، وأسراب من آلات الحصاد تئز فى رأسى أزيزاً طوال الوقت .. تسع ملايين من تلك الآلات تعلق الحشائش فى مقصها وتعوقه عن العمل . وبللنى عرق بارد .. أحسست أنى أسير إلى جهنم رأساً . ثم خطرت لى الفـكرة فى ومضة . . ومضة من ومضات الصلب ، وهذا يعنى نجاتنا يا ميرل ، نجاتنا.

— أوه ، أرجو أن تفصح حتى أستطيع أن أفهم قليلا ما تقول .

— ما ذا ، ألا ترين الأمر !.. كل ماهو مطلوب « فرشاة » من صلب ، صغيرة متحركة ، توضع فوق المقص لتدفع الحشائش بعيداً ، فيظل المقص نظيفـاً . سحقاً لهذا كله ، إن طفلا يستطيع تبين هذا . أقسم لك أيتها المرأة الصغيرة أن الأيام توشك الآن أن تتغير بالنسبة لنا .

ووضعت ميرل ما تحوكه فى حجرها ، وتركت يديها تتساقطان .

آه لو كان هذا صحيحاً .

— سأحضر آلة الحصاد إلى هنا يا ميرل ، ولن أجد صعوبة أبداً فى صنع الفرشاة وتثبيتها فى موضعها .. وفى وسعى أتم ذلك فى يوم واحد بدكان الحداد هنا .

www.alkottob.com

— ما ذا ! .. إنك حاولت ذلك محاولة أفضل من هذه ! . . لقد بدأت الآن تتحسن قليلا ، وهأنتذا تريد أن تفسد ذلك كله ثانية !

— إنى لن أشفى أبداً يا ميرل ما دامت هذه الآلة الجهنمية تتأرجح فى رأسى بين النجاح العالمى والإخفاق . إنها تضغط ذهنى بمثل ثقل الرصاص ، ولن أظفر فى ليلة من الليالى بنوم مناسب حتى أتخلص منها . أوه يا إلهى الكبير .. لو أن الزمن يتغير يوماً ما . . . حتى بالنسبة لنا ! حسناً ! أتظنين يا ميرل أنى لن أشفى لدى حلول ذلك اليوم !

وتركته يضمها هذه المرة بين ذراعيه . ولكنها جلست ساكنة بعد انصرافه ، مترقبة غروب الشمس وراء سلسلة التلال ، وظلت كذلك حتى كلت عيناها ، وثقلت أنفاسها .

وبعد أسبوع ، عند ما كانت الشمس تلتهب فوق أسطح المنازل البيض ، جاء المهر الأشهب إلى راستاد وهو يجر عربة تحمل صندوقاً ضخماً . وفى نفس اليوم التقطت الآذان صوت المطرقة والمبرد فى أثناء عملهما بدكان الحداد .

وما أهمية بضع ليال يقضيها الآن ساهراً ؟ ولا يرجع سبب تضيتها ساهراً إلى القلق .. ذلك أن الأمور الآن تسير سيراً حسناً .. بسبب الأحلام .. وقد أخذ كلاهما يحلمان .. اشتريا لورينج من جديد ، وها يطوفان مرة أخرى بغرف القصر الفسيحة المضيئة ، ويتمتعان بالسلام والسعادة التامة ، أما الأيام المشئومة الماضية فهى أشبه بكابوس مضى وانقضى . وسيعود لهما شبابهما مرة أخرى ، وسيتجولان منزلقين معاً على الجليد ، ثم يتعشيان بعد ذلك ؛ ويشربان الشمبانيا ، ويتبادلان النظرات بعيون تفصح عن الحب ، وسيكرران ذلك مرة أخرى .. ثم مرات أخرى عديدة .

— مساء الخير ، يا ميرل .

— مساء الخير يا بير ، واستمتع بنوم طيب .

واستمر الطرق فى دكان الحداد يوماً بعد يوم .

ومنذ بضع سنوات ماضية كان يستطيع أن ينتهى من هذا العمل كله فى يومين . ولكن نصف ساعة يقضيها اليوم فى العمل تكفى لإنهاك قواه . وإنه لعمل يرهقك

www.alkottob.com

إذا ركزت أفكارك فى نقطة واحدة بينما اعتاد ذهنك خلال مدة طويلة أن يتلهى عابثاً بتصورات شاطحة وهى تعن له .. ووجد بير أيضاً أن هناك عيوباً تحتاج إلى إصلاح فى الأجزاء التى ظنها من قبل لا نقص فيها . ثم إنه لم يعد له مساهمون الآن ، وليس له مسبك يستمد منه السبائك ، وعليه أن يصهر كل قطعة يحتاج إليها بيديه ، مستعملا أدوات بدائية .

وأية أهمية لذلك ؟

وبدأ ينظم ذهنه ، وينكر على نفسه كل فكرة لا ضرورة ويرخى ستائر سوداً على كل نافذة من نوافذ وعيه ، ما عدا نافذة واحدة .. هى المطلة على آلة الحصاد . وكان بعد قضاء نصف ساعة فى العمل يأوى إلى فراشه ليستريح .. يغمض عينيه فحسب ، ويستريح — هذا أيضاً كان ضمن التنظيم — ويغمر عقله كله بالظلام بالظلام ليوفر قواه استعداداً للنصف الساعة من العمل فى اليوم التالى .

هل ميرل خائفة وقلقة ؟ إنها على أية حال لم تنبس بكلمة عن العمل الذى استغرق بير كل هذا الاستغراق ، فقد كان مضطرباً بما فيه الكفاية وهو على ماهو عليه من حال . وهى لم تعد الآن تنظر إليه حتى نظرة تأنيب عند مايغضب ويحتد على الأولاد، فإن عليهم ، هى وأولادها جميعاً ، أن يحتملوه .. فعما قريب سينتهى هذا كله .

وكانا كلاهما يبدوان أحياناً وهما يتجولان فى الليالى المقمرة الصافية بعد أن يأوى أولادهما إلى فراشهم .. كانا يسيران وكل منهما يطوق خصر الآخر بذراعه ، ويتحدثان بصوت عال ، ويستغرقان فى الضحك ، ويغنيان فى بعض الأحيان . وقد يسمع المارة فى الطريق رنين الضحك والغناء فيقولون لأنفسهم : « هذا الصوت صادر إما من سكران ، وإما من الزوجين اللذين يقطنان فى البيت الكبير .

وتقدم الربيع ، وازدادت الأيام إشراقاً .

* * *

ولكن فى معرض « هامار » الزراعى ، حيث جرت تجربة آلة الحصاد ، وجد المحكمون أن هناك آلة حصاد أخرى لمنافس أمريكى تفضلها . ورأى جميع الحاضرين

www.alkottob.com

أن الأمر غير طبيعى ، فحتى أن الفكرة لم تسرق مباشرة من بير ، فما لا شك فيه أن آلة حصاده هى التى أوحت بها . فالمبادىء المتبناة فى كلتا الحالتين واحدة ، ولكن الآلة الأمريكية كانت تتميز بتحسينات متعلقة بتنفيذ تلك المبادىء تكفى للشك فى وجود أية فائدة فى رفع دعوى خاصة بحقوق الاختراع .. ويضاف إلى ذلك أنه ليس من السهل الميسور على رجل لا يستند إلى مال ، أن يقاضى شركة أمريكية غنية .

كان بير على وشك أن يفوز فى السباق الجبار بين المتنافسين فى العالم أجمع على إنتاج أحسن آلة . لقد تسلق رجل آخر عربته ، وقفز فى اللحظة الأخيرة فسبقه ببضع خطوات ، وعلى ذلك فاز بالجائزة .

وما دام النجاح لا تشوبه شائبة فى ذاته ، فالعالم لا يسأل مأخوذاً بالفضول الشديد أتحقق هذا النجاح بوسيلة شريفة .

وليس ثمة فائدة من البدء فى إنشاء شركة مساهمة لاستغلال آلة جديدة فى حين توجد آلة أفضل منها فى الميدان .

لقد أخذ الصلب بتلابيب بير ، واتخذه لوحاً للقفز من فوقه إلى الأمام ، ولكن حسن الجزاء كان مقدراً لرجل آخر .

www.alkottob.com

الفصل الخامس

هر أنهوج الابن . وكيل شركات « الأقمشة » الصوفية الانجليزية ، خرج من القطار فى يوم حار من أيام يوليو ، ووقف لحظة على رصيف المحطة وهو ينظر فيما حوله .. إن المنظر باهر دون ريب . وهذا الوادى الجميل هو الوادى الذى تقيم فيه أخته منذ أكثر من عام .. هو رائع — وبرغم ذلك ، لسبب ما ، لم يبد أنه أفاد صهره فائدة تذكر . حسناً ، حسناً !.. ومضى الشاب السرى ، النظيف الثياب ، ميمماً على قدميه شطر « راستاد » ، سائلا بين الحين والحين عن الطريق المقصود . لقد أراد أن يفاجئهم بحضوره . ففى رينجيبى انعقد مجلس عائلى اتفقوا فيه على ضرورة تسوية الأمر تسوية حاسمة لتأمين مستقبل أخته وزوجها اللذين ساءت حالهما على نحو ميئوس منه كل اليأس .

وإذا عرج على الطريق الجانبى المؤدى إلى الضيعة فطن إلى رجل يجر عربة يد مملوءة بالأحجار وهو يرتدى قميصاً بلا سترة .. ماذا ؟.. وخطر له : —

أيمكن أن يكون مخطئاً ؟ لا .. فما لاشك فيه أن الرجل هو بير هولم — بير هولم ، يحمل أحجارا على عربة ، ويجرها إلى أسفل التل نشيطاً كما لو أنه يتقاضى أجراً عن كل خطوة يخطوها .

ولم يكن « الوكيل » ممن يرثون للناس ويواسونهم ، وصاح :

— هالو ! أنت تعمل بجد ، أليس كذلك ؟ أرى أنك اشتغلت بالفلاحة .

ووقف بير منتصب القامة ، ومسح يديه فى سرواله ، وأقبل صوب القادم . وقال أوتهوج لنفسه : « يا لله ! كم تقدمت به السن ! » ولكنه عاد فقال بصوت مسموع : « حسناً ، إنك لتبدو فى حالة مناسبة . وكان يصعب على أن أعرفك ثانية . »

ولمحتهما « ميرل » كليهما من نافذة المطبخ وصاحت : « ماذا ، وإنى أعتقد .. » وخرجت من البيت راكضة . وكانت لم تر أى فرد من أهلها منذ زمن طويل ،

www.alkottob.com

فنسيت وقارها ، ولم تمض لحظة حتى كانت تطوق عنق أخيها وتحتضنه .

لا ، لم يأت أوتهوج الابن بالتأكيد حاملا فى جعبته الرثاء والمواساة ، فقد حمل فى حقيبته زجاجة من النبيذ الجيد . وملأ منها الكؤوس فى أثناء العشاء ، وشاركهما كليهما فى الشراب ، وحدثهما عن المسارح ، والملاهى المتنوعة ، وحاكى الممثلين المشهورين إلى أن حمل المخلوقين المسكينين المرهقين على الضحك ، فلا بد أنهما كانا فى حاجة إلى قليل من المرح والضحك .. آه ، لقد علم عن يقين إلى أى مدى هما لا بد محتاجان إلى ذلك .

ولكنه علم أيضاً أن ميرل وبيرعلى أحر من الجمر فى انتظار الوقوف على ما قررته الأسرة بشأن مستقبلهما . إن الأيام التى سلخاها هنا من حياتهما كانت مشئومة محزنة ، ولكن كل ما يؤملانه الآن هو أن يتيسر لهما التمكن من البقاء على هذا النحو ، فلو أن المعونة التى تلقياها حتى اليوم انقطعت عنهما فإنه لا يصبح فى وسعهما البقاء هنا أو الذهاب إلى مكان آخر ، فماذا يستطيعان عندئذ أن يفعلا ؟.. فلا عجب إذن أن يساورهما الجزع وهما بجلسان هناك .

وخرج ليتمشى مع بير بعد العشاء فى حين انتظرت ميرل فى البيت قلقة ، فقد أدركت أن مصيرها سيتقرر فى أثناء انتظارها .

وعادا آخر الأمر .. وقد أدهشهما أن يعودا ضاحكين .

وحياها أخوها متمنياً لها مساء طيباً ، وطبع قبلة على جبينها . ، وربت ذراعها ، وكان الرفق نفسه مجسداً . وصعدت به إلى غرفته ، وودت لو جلست هناك برهة وتحدثت إليه ، ولكنها كانت تعلم أن بير ينتظر الانفراد بها ليفضى إليها بالنبأ الذى يخصهما من قريب جداً . وقالت لأخيها :

— طبت مساء يا كارستين .

وهبطت إلى الدور السفلى .

وحدث أخيراً أن جلست هى وبير معاً وحدهما إلى مائدة الحياكة بالقرب من النافذة .. قالت ميرل :

www.alkottob.com

حسنا ؟

ـــ إن الأمر على هذا النحو يا ميرل : إذا كانت لدينا أية شجاعة على مواجهة الحياة ،

فينبغى لنا أن نواجه الواقع على صورته الحقيقية :

ـــ نعم ، يا عزيزى ، ولكن خبرنى ..

ـــ الواقع هو أنى لا أستطيع الالتحاق بأية وظيفة وصحتى على ماهى عليه الآن .. من المؤكد أنى لا أستطيع ذلك . وما دام الأمر كذلك فقد يكون بقاؤنا هنا مثل بقائنا فى أى مكان آخر .

ولكن هل فى وسعنا أن نبقى هنا يا بير ؟

ـــ نعم ، إذا كان فى وسعك أن تعيشى مع مهمل تعس مثلى .. إن هذا لسؤال وجيه بالطبع .

ـــ أجبنى ... هل نستطيع البقاء هنا ؟

ـــ نعم ، ولكن قد تمر سنوات يا ميرل قبل أن أصبح صالحاً للاضطلاع بالعمل مرة أخرى .. ينبغى أن نحسب حسابنا على ذلك ، وأنا لا أستطيع أن أحتمل ، بل لن أحتمل العيش عاماً بعد عام معتمداً على الإحسان .

ـــ ولكن ما الذى نصنعه إذن يا بير ؟ فيبدو أنه ليست ثمة وسيلة أستطيع بها كسب أى مبلغ من المال .

ـــ وأجاب مطلا من النافذة :

ـــ بوسعى أن أحاول أنا ذلك على أية حال .

ـــ أنت ؟ أوه ، لا يا بير . فإنك حتى إذا تمكنت من الالتحاق بوظيفة رسام ، فعيناك لا تستطيعان احتمال ذلك أبدا ..

وقال بير :

www.alkottob.com

— أستطيع أن أقوم بأعمال الحدادة .

وحلت فترة صمت . وتطلعت إليه ميرل دون قصد وكأنها لاتكاد تستطيع تصديق أذنيها . أيمكن أن يكون جاداً ؟ أقدر للمهندس الذى بنى قناطر النيل أن ينحدر فيتحول إلى حداد ريفى ؟

وتنهدت ، ولكنها شعرت بأنها ينبغى ألا تثبط عزيمته . وقالت آخر الأمر فى جهد :

— لعل ذلك يساعد على إزجاء الوقت ، وقد تجد السبيل إلى نوم أهدأ .

وأطلت من النافذة وهى تطبق شفتيها فى شدة .

— وإذا قمت بذلك يا ميرل استطعنا البقاء فى هذا المنزل . وبيت كبير مقام على مثل هذه الأرض هو فى الواقع واسع بالنسبة لنا على أية حال .. حينما لا يكون عندك خادمة تساعدك .

— ولكن أتعرف بيتاً أصغر من بيتنا نستطيع استئجاره ؟

— نعم ، هناك مسكن صغير للبيع تتبعه أرض تبلغ مساحتها زهاء فدان أو فدانين . فلو كانت لنا بقرة وخنزير وعدد من الدواجن ، واستطعنا الحصول من الأرض على أردب أو أردبين من القمح ، وتمكنت أنا من كسب بضعة شلنات فى الأسبوع من دكان الحدادة ، استحال تشردنا على أية حال . وأنا أستطيع مزاولة المهام الصغيرة التى أكلف بها .. واشتغالى بهذه التوافه يفيدنى فى الواقع .. فما رأيك فى هذا ؟

ولم تجبه ميرل ، فقد دارت بعينيها ، وتطلعت من النافذة شاخصة البصر .

— ولكن هناك مسألة أخرى يا ميرل .. مسألة خاصة بك .. أتريدين أن تصدرى معى إلى مثل الحياة ؟.. أنا سأكون فى حال جيدة ، فقد عشت وأنا صبى فى مكان يطابق المكان الذى أحدثك عنه تماماً . ولكن ماذا عنك أنت ؟ أقول لك صادقا يا ميرل أنى أرى أنه لم يكن ينبغى أن أطلب منك ذلك الطلب .

وبدأ صوته يرتجف ، وأطبق شفتيه ، وتحاشى نظراتها .

www.alkottob.com

وحلت فترة صمت ، ثم قالت آخر الأمر :

— وماذا عن المال ؟ كيف تشترى البيت ؟

— وعدنى أخوك أن يدبر لى قرضاً ، ولكنى أعود فأقول ياميرل .. إنى لن ألومك بحال إذا أنت آثرت الذهاب إلى عمتك والإقامة معها فى بروسيث . ويخيل إلى أنها ستبتهج لوجودك معها ، وبوجود الأولاد أيضاً .

وعاد الصمت فساد لحظة أخرى . ثم قالت :

— إذا اشتمل ذلك الكوخ على غرفتين لائقتين ، استطعنا أن نجد بهما راحة كافية . وسيهون الاعتناء بهما أسهل كما تقول .

وانتظر بير قليلا ، فقد كان هناك شىء فى حلقه يمنعه عن الكلام . وقد أدرك الآن أنه لابد من التسليم ، دون مناقشة ، بأنهما ينبغى ألا يفترقا . واحتاج الى قليل من الوقت للتغلب على أثر هذا الاكتشاف .

وجلست ميرل فى مواجهته ، ولكن عينيها دارتا صوب النافذة على نحو ما كانتا من قبل . وهى لا تزال تحتفظ بنفس حاجبيها الجميلين الأسودين ، ولكن وجهها ذبل وبلى ، وظهرت خيوط بيض فى شعرها .

وأخيراً تكلم ثانية :

— وعن الأطفال يا ميرل . .

وشرعت تقول :

— الأطفال . . ماذا عنهم ؟

هل حل أخيراً الأمر الذى ظلت تخشاه كل هذه المدة الطويلة

— أرسلت العمة ماريت كلة لتسأل هل نسمح لأخيك أن يصطحب لويز إليها لتقيم معها ،

www.alkottob.com

ـــ واندفعت ميرل قائلة :

ـــ لا !.. لا يابير . إنك رفضت ذلك من فورك بالتأكيد .. إنك لن تدعها تذهب بالتأكيد ، فأنت تعلم ما تعنيه رغبتهم فى ضمها إليهم هناك .

وأومأ قائلا :

ـــ أنا أعلم ذلك . ولكن هناك سؤالا آخر : هل لنا الحق ، من ناحية مصلحة لويز نفسها ، أن نرفض طلبهم ؟

وصاحت ميرل وهى تهب واقفة ، وتدق يداً بيد :

ـــ بير ، ينبغى ألا تطلب إلى ذلك . وأنت نفسك لاترضى بتنفيذه . إننا لم نصل إلى هذا الحد بالتأكيد .. حد البدء فى إرسال .. فى إعطاء ..

وتأوهت :

ـــ لا ، لا ، لا .. أتسمعنى يا بير ؟ أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك .

وقال وهو ينهض ، ويرغم نفسه على التحدث بهدوء :

ليكن ما تريدين يا ميرل . ونحن على أية حال نستطيع التفكير فى الأمر حتى موعد سفر أخيك غداً .. إن للأمر جانبين اثنين ، فالسبيل الأول قد يؤلمنا الآن، فى حين أن السبيل الثانى قد يكون أمراً كبير الأهمية بالنسبة للويز ، العزيزة المسكينة .

وذهب بير وميرل معاً إلى غرفة الأطفال فى صباح اليوم التالى عند ما حان موعد استيقاظهم . وتوقفا عند فراش لويز ، وانحنيا ينظران إليها . وكانت الطفلة قد نمت نمواً كبيراً منذ مجيئهما إلى راستاد . وهى ترقد الآن وأنفها مدفون فى الوسادة ، وشعرها الأصفر يحجب خدها . وتستغرق فى نوم هادىء آمن إلى حد كبير . فهذا البيت ما زال بيتها ، وبقاؤها مع أبيها وأمها أوفر أماناً من بقائها فى أى مكان آخر فى الدنيا بأسرها .

www.alkottob.com

وقالت ميرل وهى تهزها :

— لويز ، حان وقت تيقظك يا عزيزتى .

وجلست الطفلة فى سريرها وهى لا تزال بين اليقظة والنوم ، وتطلعت فى عجب إلى الوجهين .. ما الأمر ؟ . وقال بير :

— هيـا أسرعى وارتدى ملابسك . تصورى ! ... إنك سترحلين اليوم مع خالك « كارستين » لتزورى عمتك «ماريت» فى « بروسيث » ، فما رأيك فى هذا ؟

وتيقظت الصبية الصغيرة تماماً فى هذه اللحظة ، ووثبت فى التو من فراشها لتبدأ فى ارتداء ملابسهـا . ولـكن كان هناك شىء يلوح على وجـه أبويها كبح جماح فرحتها قليلا .

ودار همس كثير بين الأطفال فى ذلك الصباح . ونظر أخواها اللذان يصغرانها بعينين متسائلتين إلى أختهما الـكبرى التى سترحل . وأعطاها لورنتز حصانه تذكاراً ، وأعطتها أستا دميتها الصغرى . وراحت ميرل هنا وهناك تحاول أن تقنع الأطفال أن لويز سترحل فى زيارة قصيرة فقط ، وأنها ستعود عما قريب .

ومع حـلول وقت الغداء كانوا قد أعدوا حقيبة سفر صغيرة ، واندفعت لويز هنا وهناك ، وهى فى أحسن ملابسها ، تودع جميع أهل الضيعة ، وجاء إليها الحصاد الذين ساعدتهم على نقـل الدريس إلى دورهم ... جاءوا يودعونها وداعاً عاطفياً خاصاً . وكانت آخر زيارة قامت بها هى زيارتها لموسين ، الحصان الأشهب الذى وقف يرعى وهو مربوط وراء دكان الحداد... وكان موسين مشغولا بقضم الـكلأ ، ولـكنه رفع رأسه فحسب ، ونظر اليها ... فنزعت حفنة من الحشائش ، وقدمتها إليه ، وبعد أن تولى أمر تلك الحشائش مسحت فمه وتركها تتعلق برقبته لحظة . وصاحت وهى تعود ثانية إلى الفناء دون أن توجه قولها إلى شخص معين :

— سأكتب إليـكم دون شك .

وتحرك القطـار خارجاً من المحطة ، مقلا أوتهوج الابن ، ولويز ،

www.alkottob.com

في حين أخذ كل منهما يلوح بيده من إحدى نوافذ الديوان .

وترك القطار بير وميرل واقفين على رصيف المحطة ، ممسكين بولديهما الأصغرين من يديهما . وكان لا يزالان يستطيعان أن يريا يداً صغيرة تلوح بمنديل أبيض من عربة القطار . ثم توارت آخر عربة خلف المنحنى ، ولم يبق من القطار إلا دخانه وجلبته .

ومضت مدة قصيرة على الأربعة الذين تخلفوا وهم واقفون دون حراك . ولكن بدا أنهم انسحبوا دون وعي وقد ازداد كل منهم التصاقاً بالآخرين .

www.alkottob.com

الفصل السادس

على درب صاعد ، متفرع من الطريق العام ، يقع منزل ذو طابق واحد ، وثلاث نوافذ على صف مستقيم ، وهناك سقيفة لإيواء بقرة فى أحد جانبيه ، ودكان حداد فى الجانب الآخر . ويقول الجيران عندما يتصاعد الدخان من ذلك الدكان : « لا بد أن تكون حال المهندس قد تحسنت تحسناً ضئيلا اليوم ما دام أنه عاد ثانية إلى العمل بدكانه وإذا كان لديك شىء تريد إصلاحه خير لك أن تذهب به إليه ، فهو لا يتقاضى أجراً يزيد على ما يتقاضاه « جينز » المقيم بعيداً فى « ليبيا » .

وكانت ميرل وبير قد أمضيا هنا عامين عاشا خلالهما على وفاق ، ولكن حدث أن اختلفا فيما يأتى : ظلت ميرل تتطلع إلى وجه زوجها ، مؤملة دائماً أن تتحسن حاله ، فى حين أنه لم يعد له هو نفسه أى أمل فى ذلك . وحتى حينما كانت ضربات المطرقة التى تدق فى رأسه تهدأ بعض الوقت لم يخل الأمر غالباً من مضايقة ما ، تساوره من ناحية ما ، وتجعله يظل يعانى العذاب ، وإن كان لم يعد يتحدث قط عن ذلك . . . كان يتطلع إلى وجه زوجته ويقول لنفسه : « إنها تتغير تغيراً يتزايد على الدوام ، وأنت الملوم على ذلك . . . أنت لم تفتأ تصب شقاءك على رأسها ليل نهار ، وقد آن لك اليوم أن تحاول إصلاح بعض خطئك . » وهكذا بدأ الصراع ليحتفظ بالصمت ، ويحتمل ويضحك إن كان ذلك مستطاعاً ، حتى حين يشعر فى قرارة نفسه برغبة فى البكاء . وكان ذلك عسيراً كل العسر ، لا سيما فى أول الأمر ، ولكن كل توفيق حققه فى هذا العدد عاد إليه بارتياح معين أمده بقوة تمكنه من استئناف الصراع من جديد .

وقد تعلم ، على هذا النحو أيضاً ، أن ينظر إلى مصيره وهو أكثر هدوءاً . وأخذ مزاجه يزداد انشراحاً ، وأصبح كأنه نصب طوله ، ونظر إلى شقائه وجهاً لوجه قائلا . « نعم ، أنا أعلم أنى لا أملك الدفاع عن نفسى ، وأنك تستطيع أيضاً أن تغوص بى إلى هوة أعمق وأعمق ، ولكننى إذا اخترت أن أضحك ، مع ذلك كله ، فليس فى وسعك أن تحول بينى وبين ذلك . »

www.alkottob.com

وكم بدت الأمور كلها أيسر بكثير الآن وهو لا ينتظر أى خير يصيبه ، ولا يلح فى مطالبة أى كائن فى الأرض أو فى السماء بحق له عليه . ولكنه عندما يصيبه التعب من عمله فى المصنع كان يجد راحة فى قوله لزوجته : « لا ، يا ميرل ، ألم أقل لك إنك لن تضطرى إلى حمل الماء بنفسك إلى البيت ؟ أعطنى الدلو » . « أنت ؟ . . إنك تبدو قادراً على حمله ، أليس كذلك ؟ » « ماذا تقولين ! أ أنا رجل ، أم لا ؟ . . . عودى إلى مضجعك فهو مكان المرأة . » وعلى ذلك صار ينقل الماء إلى البيت ، وازداد مزاجه بذلك انشراحاً على الرغم من أنه قد يشعر أحياناً بأن ظهره يتحطم . وقد يقول فى بعض الأحيان : « أشعر اليوم بالكسل يا ميرل ، وسأبقى فى الفراش مدة أطول قليلا إذا كان ذلك لا يضيرك . وكانت تدرك ما هنالك ، فهى تعلم بالخبرة أن هذه هى الأيام التى يصيبه فيها صداع كالكابوس ، وأنه يسمى تعبه كسلا ليوفر عليها الانزعاج .

وأصبحت لهما الآن بقرة وخنزير ، وبعض الدواجن ، ولم يكن ذلك على نطاق ما كان لهما فى لورينج تماماً ، ولكن ميزة الحال الجديدة أنه يستطيع رعاية حيواناته بنفسه . وقد جنينا فى العام الماضى قدراً كبيراً من البطاطس إلى حد أنهما استطاعا أن يبيعا منه بضعة قناطير . وهما لم يعودا يشتريان البيض قط ، بل أصبحا يبيعانه . أوكان بير يحمله بنفسه إلى التاجر المحلى ، ويبيعه إياه بسعر السوق ، ويشترى بالثمن يشاء قد يكونان فى حاجة إليها . ولم لا ؟ ولم تكن ميرل تعتقد أنه ليس من مقامها أن تغسل الملابس ، وتحك الأرض ، وتطهو الطعام . وفى الحق إن الأمور كانت مختلفة بالنسبة لهما فى وقت ما ، ولكن ميرل هى وحدها التى تعاودها الآن لحظات تحلم فيها بإمكان عودة الأيام السالفة من جديد . وفيما عدا ذلك كانت الحال بالنسبة له ولها على السواء كما لو أن البحر ألقى بهما على شاطىء مقفر ، وأصبح عليهما أن يحاولا العيش خلال الأيام العجاف على خير نحو مستطاع .

وقد يحدث أحياناً أن يرسل أحد الفلاحين إلى دكان الحدادة آلة حصاد من الطراز الأمريكى الجديد بقصد إصلاحها ، وعندما يحدث هذا كان بير يطبق شفتيه بقوة ويرسم على وجهه تعبير غريب ، وينظر إلى الآلة لحظة ، ويبتلع شيئاً فى حلقه . . إن الرجل الذى سرق هذا الشىء منه ، وأدخل عليه تحسيناً طفيفاً لا يكاد يذكر ، أصبح الآن بفضل ذلك صاحب ملايين دون أدنى ريب .

وكان قيامه بتلك الإصلاحات يكلفه شيئاً من الجهد ، ولكنه اعتاد أن يحنى رأسه ويشرع فى العمل ، فميرل ، البنت الطيبة ، فى حاجة إلى حذاء .

وكان أحياناً أيضاً ينصرف عن السندان والظلام فى داخل الدكان ، ويخرج إلى عتبة الباب ليستنشق نسمة من الهواء ، وهنا كان يطل على النهار ... النهار الكبير العريض الخاوى .

إن رجلا يمسك المطرقة بيديه يرفع ناظريه إلى السماء بالفطرة . وقد ورث هذه الفطرة عن جدوده الأقدمين الذين جاءوا للناس بالنار والأفكار ، وعلموهم التمرد على الأقدار .

وتطلع بير إلى السماء ، وإلى السحب التى تجرر أذيالها عبرها محدثة ضوضاء لامعنى لها ... أهو تمرد هناك فى الأعالى ؟ ولكن السماء خالية ليس فيها شىء تتمرد السحب عليه .

ولكن ثمة جميع المظالم ، ومختلف الشرور ... منذا الذى سيعاقب مرتكبيها؟ من ؟ أهناك أحد يقوم بذلك ؟ . . لا .

ماذا ؟ ... فكر فى الملايين من الشهداء الذين ينتمون إلى كل جنس ، الشهداء الذين ماتوا تحت وطأة أعنف تعذيب دموى ، وهم مع ذلك فى مثل براءة أطفال يرقدون على صدور أمهاتهم ... أهناك من يعوضهم مما عانوه ؟ ..

لا ...

ولكن لا بد أن يكون هناك عالم يكتظ بضحايا الظلم الذين تسبح أرواحهم فى مختلف الأرجاء متعللة لأن أصحابها ماتوا تحت وطأة عار لا يستحقونه ... لأنهم خسروا معركة كانوا فيها أصحاب الحق ... لأنهم تعذبوا وناضلوا فى سبيل الحق ، ولكنهم سقطوا فى الميدان لأن الباطل كان الأقوى ... الحق ؟ .. الصواب ؟ .. أليس هناك أحد يمنح السلام فى يوم من الأيام لأولئك الأموات فى قبورهم ؟ ويضع الأمور فى نصابها ؟ أهناك أحد يضطلع بذلك ؟

www.alkottob.com

إن العالم يجرى فى مجراه ، والقـدر أعمى ... القدر يبتسم ، والشيطان يملى عليه إرادته .

صه أيها الأبله ، واقبض بيديك على مطرقتك ، فإذا حدث ووسع وعيك العالم بأسره فإن هول ذلك سيصرعك ... تذكر أنك حيوان ذو سلسلة فقرية ، وأنك طورت روحك خطأ .

وتوالت دقات المطرقة ، وتطاير الشرر من السنـدان ... عش حياتك على نحو ما هى عليه .

ولـكن بدأ يتدفق فى نفسه ميل غريب للانضمام إلى جميع أولئك الأشقياء الذين سحقهم القدر دون تبصر ... وجمع شملهم لا فى سبيـل النواح الجماعى على أنفسهم ، ولـكن فى سبيل النصر الجماعى ... لا فى سبيل الأخذ بالثأر ، ولـكن فى سبيل أغنية حمد وتسبيح . أنظرى أيتها القدرة الأبدية كيف نقابل قسوة الحياة بحمد الحياة ... أنظرى إلى أى حد نحن مفطورون على صورتك .

معبد ... معبد لروح الإنسان العصرى الجائع إلى الخلود ... معبد ، لا لمجرد ترتيل صـلوات محفوظـة ، ولـكن لتوجيه نشـيد مجاجل إلى السماء ، منبعث قلب إنسانى كريم ... فهل يحين وقت ذلك ؟ ... هل يبنى ذلك المعبـــد فى يوم من الأيام ؟

* * *

عاد بير من مكتب البريد إلى بيته مسـاء يوم من الأيام وقد بدا عليه الانشراح :

« هيه يا ميرل ، لقد تلقيت رسالة من سيدة بروسيت .

ونظرت ميرل إلى لورينتز الذى اقترب منها بدافع الغريزة ، وكان يرمق أباه .

وسألت ميرل زوجها :

— من بروسيت ؟ وكيف حال لويز ؟

www.alkottob.com

وقرأت ميرل الرسالة على عجل ، وتطلعت إلى لورينتز من جديد .

وفي هذا المساء جلس الأب والأم ، بعد أن أوى ولداهما إلى فراشهما ، وطفقا يتحدثان بصوت منخفض .

واضطرت ميرل إلى الاعتراف بأن زوجها كان على حق ، فالاحتفاظ بابنهما هنا إيثار لنفسيهما ، في حين أنهما إذا سمحا له بالذهاب فقد يصبح وارثاً لبروسيث .

ولنفرض أنه بقي ، وعمل تحت إشراف أبيه ، وتعلم حرفة الحدادة ؟ . . إن أيام الحدادين مضت وانقضت . . . فالمصانع تؤدي العمل كله اليوم .

وأي علم مدرسي يستطيع أن يتلقنه هنا في الريف ؟ لقد عرضت العمة ماريت أن ترسله إلى مدرسة صالحة . . . وهكذا نفذ فيه المقدور هو أيضاً .

ولكنهما عندما ذهبا بالغلام إلى المحطة لتشييعه لازم منديل الأم عينيها طوال الوقت ، مع كل ما بذلت لتتجلد .

وعلى أثر عودتهما إلى البيت اضطرت إلى ملازمة فراشها ، في حين تجول بير هنا وهناك مترنماً بأغنية في همهمة وهو يعد عشاء خفيفاً ، ويحمله إلى جانب فراشها . وصاحت قائلة :

ـــ لست أفهم كيف تحتمل الأمر بهذه السهولة ؟

وضحك ضحكة غريبة إلى حد ما :

ـــ لا ، لا ، فلعلنا كلما أقللنا من الكلام في هذا الصدد كان ذلك خيراً لنا .

ولكن ، في صباح اليوم التالي ، كان بير هو الذي قال إنه يشعر ثانية بالكسل ويريد أن يرقد مدة أطول قليلا . ونظرت إليه ميرل ، وأخذت تمسح جبينه بيدها .

ومرت الأيام . وأجهدا نفسيهما في العمل ليعيشا في حدود دخلهما دون الاستعانة

www.alkottob.com

بأحد . وقنعا بقبول الأمور على علاتها . وعندما شرعا فى تشييد معمل كبير للألبان بالقرب منه ربح قدراً وفيراً من المال نظير بناء المصنع ، وهو لم يتعال كذلك عن شحذ مثقاب لعمال الطرق . وكان كثيراً ما يرى متجهاً إلى متجر البلدة ، مرتدياً صدرية ذات أكمام ، حاملا على ظهره مزوداً ، وكان يرفع رأسه عالياً ، وقد أخذ لون لحيته المعتنى بتمشيطها يتحول إلى لون أبيض . وكانت لوجهه فى أغلب الأحيان تلك الهيئة المجهدة الناشئة من الأرق ، ولكنه كان خفيف الخطوة ، وظل يجد نكتة يسمعها للفتيات اللواتى يقابلهن .

وكان جيرانهما غالباً ما يرونهما فى الصيف يغلقان البيت ، ويبدآن الصعود فى التل وهما يحملان مزوداً ، و بريقاً لصنع القهوة ، فى حين كانت آستا الصغيرة تعدو بينهما . ولعلهما كان يمضيان إلى التل فى محاولة لاسترجاع ذكريات الأيام الخالية ، وبذلك بصنع القهوة فى الهواء الطلق على النار التى توقد فى النزه الخلوية .

وفى الخريف ، عندما تصبغ الحقول الشاسعة جوانب التلال بصفرتها ، كانت لبير وميرل خطتهما الخاصة بهما ، البادية ذهبية أيضاً . فسعة العيش انكمشت انكماشاً غير قليل بالنسبة لهذين الزوجين ، وأصبح أردب القمح الآن شيئاً كثيراً فى نظرهما وإذا جاء محصول البطاطس أقل قنطارين من القدر الذى توقعاه صدمهما ذلك صدمة شديدة . ولكن ربات البيوت الفاطنات فى المزارع المجاورة كثيراً ما كن يجئن إلى ميرل ليشاهدن كيف أبقت بيتها الصغير مشرقاً نظيفاً . وهى الآن ، إذ لم يصبح عندها أحد يعاونها ، تجد مع ذلك وقتاً تلقن فيه الفتيات الريفيات شيئاً عن الطهو والحياكة .

ولكن عادة واحدة سيطرت عليها ؛ فهى قد تقف طويلا طويلا إلى جانب النافذة حيث تطل منها على الوادى الذى تحصره التلال . وبدا كأنها تبحث دون انقطاع عن شىء سوف يلوح لها ، شىء لا بد أن يعود عليهما بأيام أفضل ، والوقت الذى تقف فيه هناك وتطل وتنتظر كان عندها أشبه بنوع من أيام الآحاد .

ومرت الأيام . . .

www.alkottob.com

الفصل السابع

عزيزى كلاوس بروك ،

أكتب إليك لأخبرك بما حدث لنا أخيراً هنا ، ويحدونى على الأخص أمل فى أن تجد بعض السلوى فيما أكتب . ذلك أنى اكتشفت ياصديقى العزيز أن أحزاننا الدنيوية هذه شىء يستطيع الإنسان أن يتغلب عليه فيما إذا تعلم فقط أن ينظر بعينيه هو نفسه لا بعينى الآخرين .

قد يقول أغلب الناس إن الأمور واطبت على أن تسير ، بالنسبة لى ، من سيىء إلى أسوأ ، وأنا لن أزعم بالتأكيد أنى أشعر بميل إلى العذاب فى ذاته ، فهو ، على العكس ، يؤلم ولا يرفع قدر الإنسان ، بل يثير وحشيته ، إلا إذا اشتد إلى الحد الذى يحتضن معه جميع الأشياء . . لقد كنت ذات مرة مهندساً ممثولا عند الشلال الأول ، وأنا الآن حداد فى أبرشية ريفية . . . وهذا يؤلم النفس . وقد حيل بينى وبين القراءة بسبب عينى ، كما حيل بينى وبينى الاتصال بالناس الذين تتيح عشرتهم المتعة ، ومرجع ذلك إلى أن مثل أولئك الناس لا وجود لهم هنا . كل ذلك مؤلم حتى إذا وصل بك الحد إلى اعتياده . . . إن هذا فى ذاته ليس بالأمر الطيب . وقد خطر ببالى مراراً أننا بلغنا قرار منعطف البؤس ، ولكن كان يتضح دائماً أن الأمر ليس إلا ثلمة ، وأعمق الأعماق لا يزال فى الطريق إلينا . . فأنت تعمل حتى حين يحس رأسك كأنه ينصدع . وأنت توفر كل دبوس ، وكل عود ثقاب ، ونجد برغم ذلك أن للخبز الذى تأكله طعم إحسان المحسنين ، وهذا يؤلم . وأنت تقطع الأمل فى إمكان تحسن الأمور يوماً من الأيام . . . أنت تفقد كل أملى . . . كل حلم . . . كل إيمان . . . كل وهم . . . لا شك أنك وصلت إلى نهاية كل شىء . . . ولكن لا ، فان جذور وجود الإنسان ما زالت باقية ، إن أتعس شىء فى هذا كله ما زال باقياً . . . وإنك لتسأل : ماذا يمكن أن يكون هذا الشىء ؟

هذا هو ما سأحدثك عنه .

www.alkottob.com

إن الشيء الذى حدث إنما حدث فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الأمور تبدو بالنسبة لنا أبهج قليلا . فمنذ وقت قليل مضى خف اضطراب رأسى ، وشرعت فى صنع محراث آلى جديد . . . عودة ثانية إلى الصلب ، فهو لا يدع الإنسان مستريحاً أبداً . . . وأنت تعلم ما يراه الإنسان فى شيء كهذا من إمكانيات لا حصر لهـا . وكانت ميرل تعمل بشجاعة متجددة . . . ما رأيك فى زوجة كهذه ؟ تتحمل المحنة بمحض إرادتها الحرة ، وتروح تشارك رجلا مفلساً فى حياته ؟ أرجو أن تلتقى بامرأة كهذه فى يوم من الأيام . لقد أخذ شعرها يشيب حقاً ، وأخذ وجهها يتجعد ، ولم تعد طلعتها معتدلة على نحو ما كانت فى وقت مضى ، واحمرت يداها وتشققتا . بيد أن هذا كله له روحه الخاص ، له جماله الخاص فى عينى ، لأنى أعلم أن كل تجعد هو علاقة تركها الزمن عندما حلت بنا محنة جديدة ، ووجدتنا مرتبطين معاً . ثم إنها تبتسم فى يوم من الأيام وقد أصبحت مجهدة مفعمة بالحزن ، بيد أنها تعود إلى ثانية بالأيام التى كانت السماء والأرض تلفحاننا كلتاهما بالأنفاس الباردة ، فيشتد التصاق كل منا بالآخر طلباً للدفء . إن سعادتنا وعذابنا صاغاها على النحو الذى هى عليه الآن . ولعل العالم يظن أنها أخذت تتقدم فى السن . ولكنها بالنسبة لى ليست إلا أجمل مما كانت من قبل.

وأنا الآن مقبل على ما كنت سأفضى به إليك . . . أنت تدرك أنه لم يكن بالأمر الهين علينا أن نبعد والدينا عنا ، وورود رسائل منهما يتوسلان إلينا فيها أن ندعهما يعودان إلينا لم يجعلنا أحسن حالا . ولكننا لا نزال نحتفظ بطفلة صغيرة بقيت لنا ، هى أستا التى بلغت الخامسة أخيراً . وكم أود لو أنك استطعت أن تراها . فأنت إذا كنت أبا ، وجعلتك أعصابك المعذبة فى كثير من الأحيان خشنا جائراً مع أخويها اللذين يكبرانها ، فانك ستحاول — أليس كذلك ؟ — ستحاول إصلاح الأمر باسباغ عطفك القلبى على الطفلة التى بقيت لك ، وهى آستا — أليس ذلك بديعاً ؟ تصور مخلوقة صغيرة لفحتها الشمس ، ذات شعر أسود ، وحاجبين كحاجبى أمها ، مشغولة دائماً بعرائسها ، وبجلب الحطب للبيت ، أو خبز الكعك لأبيها فى الوقت الذى تعد فيه أمها الخبز لنا جميعاً ، أو الثرثرة مع العصافير فوق سطح البيت ، أو الغناء بين الحين والحين لا لشيء إلا لأن ثمة نغمة موسيقية شاردة طرأت على ذهنها . وعندما تشغل أمها بحك الأرض كان لا بد أن تمسك آستا الصغيرة بخرقة مبتلة وتحملها وراء ظهرها ، وتنحدر تحت أحد المقاعد حتى تقع فى ورطة شديدة ، ثم تصاب بصدمة ،

www.alkottob.com

وتصرخ هنيهة ، ولكنها سرعان ما كانت تنطلق راكضة وتغني لنفسها شاعرة بالسعادة من جديد . وعندما تعمل في دكان الحدادة يترامى إليك وقع خطوات صغيرة ، وصوت يقول « أبي ، تعال لتناول العشاء ؛ وتمسك بك يد صغيرة ، وتقودك إلى الباب : « هل تغسل لي رأسي الليلة يا أبي ؟ » أو « هاهي ذي منشفتك يا أبي . » ورغم أن طعام العشاء قد لا يزيد على البطاطس واللبن فإنها كانت تقبل على الأكل وكأنها تجلس إلى وليمة من أكبر الولائم ، « أليس البطاطس واللبن هما طعامك المفضل يا أبي » وهي تقطب لك جبينها مأخوذة بحماسة أسئلتها . وفي المساء كانت تنام في صندوق موضوع عند طرف فراشنا . وعندما أتمدد على الفراش وأنا أكابد الأرق كان غالباً ما يملؤني تنفسها الخفيف الهادىء بالهدوء أنا أيضاً ، وكانت يدها الصغيرة كأنها تمسك بيدي وتقودني إلى النوم نفسه ... إلى نوم جميل ، قدسي .

والآن ، وقد وصلت إلى ذكر الشيء الذي حدث ، أجد شيئاً من الصعوبة في الكتابة ... ويدي بدأت ترتجف . ولكن آمل أن يكون لك أنت أيضاً بعض العزاء في ذلك على نحو ما يحقق ليرل ولي في آخر الأمر .

وكان الجاران الملاصقان لنا صانع آنية نحاسية وزوجته ... وهما رفيقا الحال مثلنا . وعلى أثر مجيئنا إلى هنا قصدت جاري لأتحدث إليه ، ووجدته مخلوقاً شقياً جاف الطبع ، يتسكع هنا وهناك بأحماضه ، ويحصل على رزقه ببذل قصارى ما في وسعه . فهو يلحم المعادن ، « وبيض » الآنية النحاسية والقدور ... وسألني وهو ينظر إلى شذراً : « ماذا تريد ؟ » . وسمعته يغلق بابه بالمزلاج ورائي وا أسفاه ، لقد كان خائفاً .. خائفاً من أن أختطف منه لقمة الخبز التي يتبلغها يومياً وكانت زوجة كتلة من العظم العريض ، واللحم المكتنز ، وقحة في معاملتها إلى حد كاف برغم أنها أودعت السجن أخيراً بسبب إغرائها الإجرامي لفتاة انتهت بها الحال إلى الوقوع في محنة .

وفي صباح يوم أحد كنت واقفاً أنظر إلى بعض من أشجار التفاح المزدهرة في حديقته . وكانت إحدى تلك الأشجار قريبة من السياج إلى حد أن أفرعها تدلت ناحية حديقتي ، وانحنيت لأشم زهرها . ثم سمعت صيحة على حين فجأة : « هيه ، يا تمر ! أمسك به ! » وإذا الكلب الذئب الضخم الذي يملكه النحاس ينحدر إلى

www.alkottob.com

واثباً متهيئاً للانقضاض على عنق ، وكنت حسن الحظ إذ استطعت أن أمسك بطوقه قبل أن يلحق بى أى أذى ؛ وجررته إلى صاحبه وأخبرته أنه إذا تكرر وقوع شىء كهذا فسأضطر إلى إرسال ضابط المركز فى إثره،ثم بدأ العزف الموسيقى ، فقد أطلق العنان لنفسه دون ضابط ، وصارحنى برأيه فى : « أمسك لسانك أنت أيها الصعلوك اللعين الذى جاء يأخذ لقمة الخبز هنا من أفواه العاملين الشرفاء . » واسترسل فى قول من هذا القبيل وهو يطلقه فيحاً ، ويلوح بساعديه فى الهواء ، وخيل إلى آخر الأمر أنه يتحسس هنا وهناك بحثاً عن سكين ، أو شىء يقذف به رأسى . ولم أتمالك نفسى من الضحك ... لقد كانت مشاحنة من طراز جسيم بين قوتين كبيرتين فى عالم المنافسة .

وبعد مرور يومين على ذلك سمعت صرخة من زوجتى وأنا واقف فى مصنع الحدادة ، فاندفعت إلى الخارج — أى أمر يمكن أن يكون هذا ؟ وكانت ميرل قد وصلت وقتئذ إلى سياج الحديقة،ورأيت ما هنالك فى لحة واحدة — كانت آستا ممددة هناك تحت جسم حيوان هائل .

ثم ... حسناً ، لقد أخبرتنى ميرل فيما بعد أنى أنا الذى انتزع الحيوان وأبعده عن رزمة الملابس التى كانت تحته ، وحمل طفلتنا الصغيرة إلى البيت .

والطبيب يصبح على الأغلب ملاذاً طيباً وقت المحنة . ولكن على الرغم من أنه قد يخيط تمزقاً غير منتظم خياطة متقنة كل الإتقان ، فليس من الضرورى أن يؤدى ذلك إلى مساعدة المصاب مساعدة فعالة .

بيد أنه كانت هناك أم تأبى أن تدعه ينصرف — أم تبكى وتصلى ، وتتعلق به ، وتتوسل إليه أن يحاول مرة أخرى فيما إذا كان يستطيع أن يصنع شيئاً . وعندما انصرف أخيراً ظلت متشبثة بالانطلاق وراءه وزحفت على الأرض،ومزقت شعرها — لم تستطع ، ولم تشأ أن تصدق ما كانت تدرك أنه حقيقة لامراء فيها .

وفى ذلك المساء كان هناك أب وأم يجلسان معاً ، ويحملقان على نحو غريب فى الفضاء الممتد أمامهما ... كانت الأم هادئة الآن ، والطفلة مزينة مجهزة وجلس

www.alkottob.com

الأب إلى جانب النافذة ، مطلا منها . وكان ذلك فى فصل الربيع ، والليل رمادى الإهاب .

والآن كنت أنا الذى أدرك كيف أن الحزن الكبير يذهب بنا إلى مسافة أبعد وأبعد من قمة الوجود . وقد وصلت أنا اليوم إلى النقطة القصوى — حيث لا شىء بعدها .

وقد وجدت أيضاً ، يا صديقى العزيز ، أن سنوات الشقاء العديدة هذه لم تصفنى على شكل واحد ، ولكن على عدة أشكال : ذلك أنه كانت توجد داخل كيانى مادة يتشكل منها أشخاص عديدون مختلفون كل الاختلاف ، وقد تم الان بعثهم ، وصار فى وسعهم أن ينفصلوا عن كيانى ، ويسلكوا سبلهم المتعددة .

رأيت رجلا يندفع إلى جوف الليل وهو يهز قبضته متوعداً الأرض والسماء ... رجلا مجنوناً أبى أن يواصل تمثيل دوره فى المهزلة ، ولذلك اندفع منحدراً صوب النهر .

ولكنى أنا نفسى جلست هناك ساكناً .

ورأيت رجلا آخر ترك حبله على غاربه — هو مخلوق ناقص التكوين ... زاهد ذليل أشيب ، طأطأ رأسه ، وانحنى تحت ضربات السياط وقال : «فلتكن مشيئتك يا ربى ... الله أعطى ، والله استرد ما أعطى ... » . مخلوق يستدر الشفقة انسل تحت جنح الظلام وتوارى .

ولكنى أنا نفسى جلست هناك ساكنا

جلست وحدى فوق قمة الوجود ، وقد خرجت الشمس والنجوم من نطاقها ، وحل فراغ بارد كالثلج فوق ، وحولى ، وداخل نفسى ، وفى كل جانب من الجوانب .

ولكن حدث بعد ذلك يا صديقى أن لاح لى بالتدريج أن ثمة شيئاً لم يزال باقياً ، ففى كيانى شعلة صغيرة جامحة بدأت تتوهج من تلقاء نفسها ؛ وخيل إلى أنى نقلت

www.alkottob.com

ثانية إلى أول أيام الوجود ، وانبعثت فى نفسى إرادة أبدية وقالت : « فليكن هناك نور ! » .

هذه الإرادة هى التى نمت فى نفسى شيئاً فشيئاً ، وجعلتنى قوياً .

وبدأت أشعر بإشفاق لا يوصف على جميع أهل الأرض ، بيد أنى أصبحت آخر الأمر فخوراً بأنى واحد منهم .

وقد أدركت كيف أن القدر الأعمى يستطيع أن يجردنا من كل شىء ، ويسلبنا كل شىء ، بيد أنه ، برغم ذلك ، سيبقى فينا حتى النهاية شىء ما لا تستطيع أية قوة فى الأرض أو فى السماء أن تقهره . لقد قدر لنا أن تموت أجسادنا ، وتنطفىء أنفسنا ، ولكننا مع ذلك سنظل نحمل داخل أنفسنا الشعلة ... سنحمل فى سبيل الوجود ، وفى سبيل الله ، جرثومة تاسق ونور لامتناهيين .

وأدركت الآن أن الجوع الذى شعرت به خلال أجمل سنى حياتى ، لم يكن جوعاً إلى العلم أو الجاه أو الغنى ... لا ولا أن أصبح قسا ، أو مخترعاً كبيراً فى عالم الصلب ، لا ، يا صديقى ... بل إلى بناء معابد ؛ ولست أقصد تلك المعابد التى تشيد لإقامة الصلاة ، ولا تلك الكنائس التى تشيد لينوح فيها الآثمون النادمون . ولكن أقصد معبداً لروح الإنسان فى كامل عظمته حيث نستطيع أن نرفع أرواحنا بالتسبيح هدية إلى السماء .

وأنا لا أستطيع أن أقوم بذلك الآن ، ولعله لم يعد ثمة شىء أستطيع أن أقوم به أبداً . وعلى الرغم من ذلك يخيل إلى وأنا جالس هناك أنى انتصرت .

وما حدث بعد ذلك ؟ حسناً ، لقد حل بنا جفاف رهيب استمر طوال الربيع ، وتلك هى الحال فى هذا الوادى غالباً . فريح الشمال التى لا تنقطع عن الهبوب حملت إلينا الأتربة الناعمة الجافة ، مكتسحة السحب من أنحاء الريف كله ، فأصبحنا مهددين ، فى حالة عدم سقوط الأمطار بأسوأ سنة من سنى القحط .

وجازف الناس آخر الأمر ببذر حبوب القمح ، ولكن الصقيع حل عندئذ ، وتراكمت الثلوج ، وتساقط البرد ، فتجمدت الحبوب فى الأرض . وكان جارى

www.alkottob.com

النحاس قد زرع بقعة أرضه شعيراً ... ولكن أصبح عليه الآن أن يزرعها من جديد ، ومن أين يحصل على البذور ؟ وأخذ يتنقل من مزرعة إلى أخرى مستجدياً بعض الحبوب ، ولكن الناس كانوا يمقتون رؤيته بعد الذى حدث بشأن آستا ، ولم يقبل أحد أن يعيره شيئاً منها ، ولم يكن يملك نقوداً لشراء مايريد . وشيعه الغلمان فى الشوارع بصيحات الاستهزاء ، وتحدث بعض الجيران عن طرده من الأبرشية .

ولم أستطع أن أنام كثيراً فى الليلة التالية أيضاً . ونهضت من فراشى عند ما دقت ساعة الحائط دقتين ، وسألتنى ميرل :

— إلى أين ؟

وقلت لها :

— أريد أن أرى هل بقى لدينا نصف « بوشل [1] » من الشعير .

— شعير ؟... وما حاجتك إلى الشعير ونحن فى منتصف الليل ؟

وقلت :

— أريد أن أزرعه فى أرض النحاس ، والأفضل أن أفعل ذلك الآن حتى لا يعرف أحد أنى أنا الذى قام بهذا .

وجلست فى فراشها وحملقت فى :

— ماذا ؟.. أرض..ا.. النحاس؟

وقلت :

— نعم ، فنحن لن نفيد شيئاً ، كما تعلمين ، إذا رأينا قطعة أرضه منبسطة جرداء طوال الصيف .

---

(١) البوشل يبلغ زهاء أربع كيلات .

www.alkottob.com

— بيير ... إلى أين أنت ذاهب ؟

وقلت :

— إن أخبرتك بما أعتزم .

وخرجت ، ولكنى كنت أعلم أنها ترتدى ملابسها ، وتقصد الحقل هى أيضاً .

وهطل المطر فى أثناء الليل ، وكان الهواء رقيقاً مستساغ الاستنشاق عندما خرجت من البيت ، ولم يزل النهار منبسطاً فى لون رمادى ، ونور باهت ، تتخلله ومضات منبعثة من السحب التى تزجيها الريح فى الشمال . وفاح الهواء برائحة الأغصان المزهرة ، وحومت الغربان والزرازير فوقى وحولى ، ولكن لم يكن هناك آدمى واحد تقع عليه العين . كانت المزارع مستغرقة فى النوم ، وكذلك كانت أرجاء الريف كلها .

وحملت البذور فى سلة ، وتسلقت سياج الجار وبدأت أغراس الحب . ولم تبد من البيت علامة تنم عن وجود أحياء فيه . وكان ضابط المركز قد أتى فى اليوم السابق وأطلق النار على الكلب فأرداه قتيلا . ولا شك أن النحاس وزوجته كانا يرقدان مستسلمين للنعاس ، ولعلهما كانا يحلمان بأعداء يحيطون بهما ، ويحاولون ما وسعوا أن يلحقوا بهما الأذى .

أهناك يا صديقى العزيز أية حاجة إلى ذكر باقى ما حدث ؟ ومع ذلك فكر فقط كيف أن رجلا ما قد يهب مملكة بأسرها ، ولا يكلفه ذلك شيئاً ، فى حين قد يهب بضع حفنات من القمح ، ولا يعنى ذلك بالنسبة له أنه وهب كل ما عنده وحسب ، ولكنه يعنى تمرضه لنضال وانفعال لا حد لهما قبل أن يستطيع حمل نفسه على تقديم هذه الهبة ... أتظن أن هذا يعد هباء؟ .. أما بالنسبة لى فإنى لم أقدم على ذلك فى سبيل المسيح ، أو لأنى أحب عدوى ، ولكن لأنى أشعر بمسئولية كبيرة وأنا واقف على أنقاض حياتى ... فعلى الإنسان أن ينهض ، وأن يناضل قوى الأقدار العمياء التى تفرض وسائلها ، وعليه ألا يغيب عنه ، وهو محاط بأحزانه ، أن النفحة الإلهية فيه

www.alkottob.com

لا تموت . إن شعلة الأبدية توهجت مرة أخرى بين جوانحى وهتفت بى : فليكن هناك نور .

وبدأت آلف شيئاً فشيئاً فكرة أن الإنسان مفروض عليه أن يبعث هو نفسه كل ما هو مقدس فى الأرض والسماء ... وأن هذا هو سبيل انتصاره على سيطرة الوجود الكاتمة الأنفاس .. ولذلك خرجت من بيتى ، وغرزت حبوب القمح فى حقله حتى انبعثت النفحة الإلهية .

آه لو أنك عرفت هذه اللحظة !... حدث كأن الجو امتلأ بالأصوات قد بثت فيه الحياة ، وكأن جميع المنكودين الذين رأيتهم وعرفتهم جاءوا يلازموننى ، وازداد عدد من جاءوا فى اطراد ، ولحق بنا الأموات أيضاً ... جيش أقبل من أزمنة مضت ... أزمنة موغلة فى القدم . وجاءت أختى لويز ، وعزفت نشيدها ، وحملت الأصوات كلها على أن تغنى غناء جماعياً ، غناء الأحياء والأموات ... غناء البشرية قاطبة .. انظر ، إننا هنا جميعاً ... أخواتك وأخوتك ، ومصيرك هو مصيرنا . لقد قذف بنا قانون الوجود غير المبالى إلى حياة لانستطيع تنظيمها وفق مشيئتنا . لقد دمرنا الظلم والمرض والحزن ، والنار والدم . وحتى أسعدنا جميعاً لا مفر له من الموت ، وهو فى ذات بيته إنما يقوم فيه بمجرد زيارة . وهو لا يعلم أبداً إلا أن قد يرحل فى غده . وبرغم ذلك يبتسم الإنسان ، ويضحك فى وجه مصيره الفاجع . وقد ابتدع الجمال على وجه الأرض وهو فى صميم عبوديته ، وكان له فائض كبير من النشاط الروحى ، وهو وسط عذابه ، إلى حد أنه بث بهذا النشاط مشعاً متغلغلا إلى أعماق الفضاء ، فأدفأها بعقيدته وإيمانه بالله .

كم أنت رائع ، يا روح الإنسان ! وما أشبهك بصورة الخالق فى طبيعتك ! إنك تحصد الموت ، وفى مقابل ذلك تزرع حلم الحياة الأبدية وإنك تملأ الوجود بحب الخالق المعبود اقتصاصاً من قدرك المشئوم .

إننا احتملنا دورنا فى هذا الوجود ، نحن الذين أصبحنا جميعاً الآن ترابا ، نحن الذين غصنا فى الظلام وانطفأنا انطفاء اللهب ، وقد بكينا وطربنا ، وشعرنا بالنشوة والعذاب ، ولكن كل واحد منا جاب أشعتنا إلى خضم النور الهائل كل واحد

منا ؛ ابتداء من الزنجي الذي وضع أول لبنة على قبر فقيده إلى العبقري الذي رفع أعمدة أول معبد صوب السماء . لقد احتملنا دورنا جميعاً ابتداء من الأم للسكينة التي تصلي بجانب مهد طفلها ، إلى الجماعات التي ترفع أناشيد الحمد عالية إلى الفضاء الذي لا يحد.

لك المجد يا روح الإنسان . إنك وهبت الدنيا روحاً ، وجعلت لها هدفاً ... إنك تريد رفعها إلى مرتبة التناسق ، لذلك عد إلى نفسك ، وارفع رأسك ، وقابل الشر الذي يقصدك في اعتزاز ... قد يسحقك الشقاء ، وقد يمحوك الموت من الوجود ، بيد أنك لازلت على الرغم من ذلك أبديا لا تقهر.

صديقي العزيز ... هذا هو ما شعرت به ... وبعد أن قمت بزراعة القمح ، وعدت (أدراجي ،) كانت الشمس تطل من فوق كتف التل ، وميرل تقف إلى جانب السياج ناظرة إلي ، وقد أنزلت منديلها إلى حاجبيها على طريقة الفلاحات حتى تظلل وجهها ؛ ولكنها ابتسمت لي ... وكأنما هذه الأم المصابة قد سعدت هي أيضاً من خضم عذابها حتى تستطيع هنا ، وقت بزوغ النهار أن تضطلع بنصيبها في بعث الله في القلوب ؟

library4arab.com
www.alkottob.com

دار الطباعة الحديثة
٦ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
ت ٩٠٨٣١٨ - س. ت ٨٩٦٩١

ديسمبر سنة ١٩٦٦

library4arab.com
www.alkottob.com